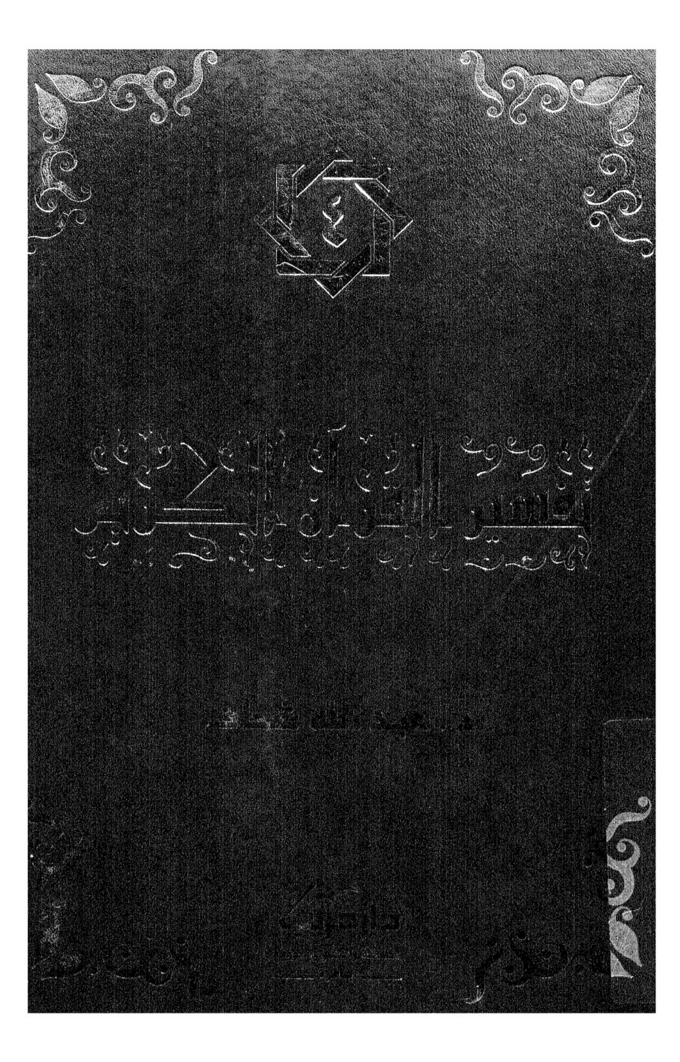

تفسير القرآن الكريم

إهـــــداء 2005
أ.د. عبد الله شحاتة
القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ
أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ
الْقَوْمِ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

المفردات :

قسيسين : جمع قِسِّيس ؛ وهو رئيس دينى مسيحى .

ورهبانا : الرهبان ؛ جمع راهب ، وهو المتبتل : المنقطع للعبادة وحرمان النفس من الاستمتاع بالزوج والولد .

تفيض من الدمع : أى تمتلئ أعينُهم بالدمع حتى يتدفق من جوانبها ؛ لكثرته .

التفسير :

٨٢ ـ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا .... الآية

أسباب النزول :

تعددت الروايات فى سبب نزول هذه الآية ولكنها تلتقى فى أن بعض طوائف النصارى ، استمعوا إلى القرآن الكريم فتأثرت به نفوسهم وفاضت أعينهم بالدمع وأعلنوا الإسلام .

ويذهب جمهور المفسرين إلى أنها نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ومن معه من القسيسين والرهبان . وجميع الروايات : تدل على أنه أسلم وهو ومن معه .

وكتب السيرة تفيد أن قيصر ملك الروم تلقى دعوة الرسول ﷺ فى رفق وأناة . كذلك تلقى المقوقس عظيم القبط بمصر دعوة الرسول ﷺ فى مودة ولين وأرسل إلى رسول الله بعض الهدايا .

رأى الطبرى : ساق الطبرى عدة روايات فى سبب نزول هذه الآيات ، منها ما يفيد أنها نزلت بعد أن أسلم النجاشى ثم عقب الطبرى على الروايات بقوله :

والصواب فى ذلك من القول عندى : أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى ، أنَّ نبىَّ الله يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم ، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك : أصحاب النجاشى ، ويجوز أن يكون أريد بذلك : قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا ، لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق ، ولم يستكبروا عنه [1] .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ ...

أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهم اليهود والذين أشركوا .

وعداوة المشركين للمسلمين معروفة السبب ؛ فالمشرك لا يؤمن بالله الواحد المنزه عن النظير والمثيل ، والمؤمن يؤمن بالله الواحد الخالق الرازق ، فلا عجب أن يحمل المشركون للمسلمين العداء ؛ لاختلاف مناهج الإيمان من الأساس . واختلاف تصوُّر الفريقين للألوهية .

إلى جوار أن مشركى مكة كانوا على جانب من الغنى والجاه والسلطان والجبروت ورأوا أن الإسلام يحدّ من طغيانهم وجبروتهم وما اعتادوه من استعلاء وكبرياء ، وكانوا يرون أن الأغنياء والعظماء أولى بالرسالة والنبوة وقالوا : لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١).

وقد جاهر كفار مكة بالعداء للإسلام والمسلمين وما زالوا بالمسلمين يعذبونهم ويضطهدونهم حتى أخرجوهم من ديارهم وصادروا أموالهم .

أما اليهود :

فهم أهل كتاب وتوحيد وعقيدة تؤمن بالله واليوم الآخر لكنهم فى نفس الوقت أهل حقد وحسد وعناد ؛ فقد حقدوا على العرب أن يكون نبيهم من نسل إسماعيل لا من نسل إسحاق . وأعْلنُوا العداء للإسلام ورسوله . وشنوا على الإسلام الحروب الطاغية بقوة السلاح ، أو بالدسائس والمؤامرات كما

عرف عن اليهود قسوة القلب وتحريف التوراة وقتلهم الأنبياء ، وأكلهم أموال الناس بالباطل والإسراف فى التمرد والعصيان .

وقد تعرض الإسلام فى مكة لعنت المشركين وحربهم وظلمهم حتى حاولوا قتل الرسول ﷺ أو حبسه أو نفيه فأمره الله بالهجرة إلى المدينة ، وقام اليهود بدور بارز فى فتنة المؤمنين وإشاعة الأراجيف ، وبث الفرقة فى صفوف المسلمين ومن هنا قال القرآن الكريم .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ .

لقد كان اليهود أشد الناس عداء للإسلام فحاربوه بالسلاح والكيد والتآمر .

ولذلك قدمهم القرآن على الذين أشركوا ، وهم كفار مكة ومن سار على نهجهم .

أما النصارى ، فقد سارعت طائفة منهم لاعتناق الإسلام كما أكرم ملك الحبشة المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وحاول المشركون أن يوغروا صدره عليهم ولكنه لم يستجب لهم ، وأكرم المسلمين ، قال تعالى :

وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى . أى : لتجدن يا محمد ، أقرب الناس محبة ومودة لك وللمؤمنين الذين قالوا : إنا نصارى .

أى : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهج إنجيله فهؤلاء فيهم مودة للإسلام فى الجملة ، وفى قلوبهم رأفة ورحمة ؛ قال تعالى :

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً . (الحديد : ٢٧) فى كتابهم : من ضربك على خدِّك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ؛ ليس القتال مشروعًا فى ملتهم .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ . ففيهم من يتولى تعليمهم دين المسيح وهم القسس جمع قسيس وقس ، وقد يجمع على قسوس ، وبهذا التعليم والتوجيه والتربية ؛ تظل تعاليم السماء ووحى السماء رطبًا فى نفوسهم .

وفيهم الرهبان وهم جمع راهب وهو العابد ، مشتق من الرهبة وهى الخوف ، كراكب وركبان، وفارس وفرسان ، ويطلق الرهبان على الواحد وعلى الجمع .

والرهبان هم الزاهدون فى الدنيا المتفرغون للعبادة فى الصوامع والخرب .

وهذه الفقرة وصفت النصارى بثلاث صفات :

(أ) العلم .

(ب) العبادة .

(جـ) التواضع .

فهم لا يتكبرون عن الاستجابة للحق والاستماع إليه ، والبكاء عند سماع القرآن ، والدخول فى دين الإسلام .

٨٣ – وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ... الآية .

هذه الآية استمرار فى وصف النَّصارى واستجابتهم للإيمان ؛ قيل : نزلت هذه الآية فى النجاشي وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبى طالب سورة مريم .

قال : فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

وقال السهيلى : هم وفد نجران ، وكانوا نصارى ، فلما سمعوا القرآن من النبى ﷺ بكوا مما عرفوا من الحق وآمنوا ، وكانوا عشرين رجلاً ، وكان قدومهم على الرسول ﷺ بمكة .

وأما الذين قدموا عليه بالمدينة من النصارى من عند النجاشى فهم آخرون وفيهم نزل صدر سورة آل عمران .

مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ . أى : مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ .فبكاؤهم من أجل الفرح والاهتداء إلى دين الإسلام الحق .

يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . لقد قابلوا معرفة الإسلام واستماع القرآن بالبكاء والتأثر حتى إذا اطمأنت نفوسهم ؛ أعلنوا إسلامهم وقالوا : ربنا آمنا بنبيك محمد ورسالته فتقبل منا .

فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . أى : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به .

عن ابن عباس فى قوله : فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . أى : مع محمد ﷺ وأمته هم الشاهدون ، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ ، وللرُّسل أنهم قد بلغوا .

وقال أبو على : فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك .

٨٤ – وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ .

والمعنى أىُّ شىء يمنعنا من الإيمان بالله وكل ما حولنا يوحى إلينا بالإيمان فلماذا لا نؤمن بالله ونصدق بما جاءنا من الحق بعد ما تبين لنا صدق الرسول ﷺ ، وصحة رسالته ؟!.

أى : لا شىء يصرفنا عن ذلك ، وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله تعالى : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية . (آل عمران : ١٩٩) وهم الذين قال الله فيهم : وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . (القصص : ٥٣).

٨٥ - فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لقد أحسنوا الاستماع وأحسنوا الإدراك ، وأحسنوا الإيمان ، وأحسنوا القول ، وساروا فى طريق العمل الصالح .

فجازاهم الله وكافأهم ، وأسعدهم بما أعد لهم من جنات ، تجرى الأنهار من تحت قصورها وأشجارها خَالِدِينَ فِيهَا أى : ماكثين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون . وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . أى : فى اتباعهم الحق وانقيادهم له ، حيث كان وأين كان ومع من كان .

وهذا الجزاء الحسن يعم كلَّ من أحسن إحسانهم . قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ . (الرحمن : ٦٠)

٨٦ - وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . أى : الذين لا يفتحون قلوبهم للحق ، ولا يؤمنون بأنه من عند الله ؛ فلهم جزاء آخر يليق بهم .

وفى التفسير الوسيط .

المعنى : والذين كفروا - من اليهود والنصارى والمشركين ومن لا دين لهم ، ودأبوا على التكذيب عنادًا واستكبارًا ، بعدما وضح الحق ، وقامت الأدلة على صدق الرسول محمد ﷺ ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . أى : هم أهلها والداخلون فيها .

فى أعقاب الآيات :

نلمح من الآيات أن المراد بها فئة من النصارى آمنت برسول الله ﷺ واستجابت لدعوة الإيمان فى قولها وسلوكها .

وهناك فئات أخرى جحدت رسالة محمد ﷺ وبيتت له الكيد والحقد والعناد ، والكفر والتكذيب فليس هؤلاء بأقرب الناس مودة للذين آمنوا إنما هم حرب عليهم فى تاريخهم القديم والحديث .

ولقد شهد المسلمون من فظائع الصليبيين ما شهدوا فى الشرق ، وشهدوا منهم فى الأندلس ما تقشعر لهوله الأبدان ، ولا يزال الحقد الصليبى يظهر تحت ستار الآيات الشيطانية وغيرها ، مما يجعل المسلمين على حذر فأهل الكتاب ثلاثة أصناف كما سبق أن ذكرنا ،

١ – صنف يظهر الولاء للإسلام والمسلمين وهؤلاء لا حرج علينا فى إحسان معاملتهم وبرّهم وإكرامهم .

٢ – صنف يبحث عن عورات المسلمين ومثالبهم وهؤلاء يحرم علينا موالاتهم .

٣ – صنف على الحياد وهؤلاء لا بأس من معاملتهم مع الحيطة والحذر .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

التفسير :

٨٧ – يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

والمعنى يا أيها الذين آمنوا إيمانا حقًا ، لا تحرموا على أنفسكم شيئًا من الطيبات التى أحلها الله لكم فإنه سبحانه ما أحلها لكم إلا لما فيها من منافع وفوائد تعينكم على شئون دينكم ودنياكم .

ولا تتجاوزوا حدود الله بالإسراف أو بالتقتير أو بتناول ما حرمه عليكم ، فإنه سبحانه لا يحب الذين يتجاوزون حدود شريعته وسنن فطرته وهدى نبيه ﷺ .

٨٨ – وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا . أى تمتعوا بأنواع الرزق الحلال من أكل وشرب ولباس ، وغير ذلك من الطيبات وخص الأكل بالذكر لأنه معظم مقاصد الرزق .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ . أى اجعلوا أنفسكم فى وقاية من غضب الله الذى آمنتم به فلا تتجاوزوا ما شرعه الله لكم .

وعن الحسن البصرى رضى الله عنه أن الله أدب عباده فأحسن أدبهم فقال : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . (الطلاق : ٧) . ما عاب الله قومًا وسَّع عليهم الدنيا فتنعموا بها وأطاعوا ، ولا عذر قومًا زواها عنهم فعصوْه .

وتُمثل هاتان الآياتان مع غيرهما من هدى القرآن والسنّه منهج الإسلام الوسط فهو لم يحرم الطيبات وإنما حرم الإسراف واتباع الشهوات .

وقد كان عليه الصلاة والسلام نموذجًا عمليًا فى ذلك فهو يأكل ما يجده أكل اللحم بالثريد وشرب اللبن ، والماء الصافى وكان يأكل الخشن من الطعام ويصوم ويجوع ويطوى ، ويتمتع بالنعمة ويصبر مع الشدة ، ويعلم أصحابه فن حب الحياة وشكر نعم الله ، والبعد عن تحريم الحلال .

قال القرطبى : قال علماؤنا : فى هذه الآية وما شابهها من الأحاديث الواردة فى معناها ، ردٌّ على غُلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه .

قال الطبرى : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شىء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ولذلك ردّ النبى ﷺ التبتل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا فضل فى ترك شىء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو فى فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله ﷺ وسنَّه لأمته واتبعه على مناهجه الأئمة الراشدون .

إن التفاضل بين المؤمنين يكون باستقامة النفس وسلامة العبادة وكثرة إيصال النفع للناس.. ولا يكون بالانقطاع عن الدنيا وتحريم طيباتها التى أحلها الله تعالى .

وقد ورد فى القرآن والسنة ما يؤيد وسطية الإسلام قال تعالى : يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . (البقرة : ١٧٢) .

وقال عز شأنه : يَابَنِىْ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . (الأعراف : ٣١) .

وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى معنى هذه الآيات منها ما يأتى :

– روى الشيخان عن عائشة أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السرّ فقال بعضهم لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا ، وكذا . لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» [٢] .

– وعن ابن عباس : أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنى إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإنى حرمت علىَّ اللحم فنزلت :

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ . [٢]

– وروى سفيان الثورى عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نغزو مع النبى ﷺ وليس معنا نساء فقلنا ألا نستخصى ، فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك ، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبد الله . ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ﴾ (٤) الآية ، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة ، والله أعلم .

★ ★ ★

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

المفردات :

باللغو : اللغو فى اليمين : الحلف من غير قصد القَسَم .

بما عقدتم الأيمان : أصل العقد: نقيض الحل. فَعَقْد الأيمان وتعقيدها: توكيدها بالقصد والتصميم.

فكفارته : أصل الكفارة من الكَفْر . وهو : الستر والتغطية ، ثم صارت – فى اصطلاح الشرع – اسمًا لأعمال تكفِّر – أى تمحو – بعض الذنوب .

من أوسط ما تطعمون أهليكم: الأَوسط : المعتدل من كل شىء . والمراد هنا : الأَغلب من الطعام ، الذى هو وسط بين الدُّون الذى يُتَقشَّفُ به ، وبين الأَعلى الذى يُتوسَّع به .

أو تحرير رقبة : أى إعتناق رَقيق مملوك له .

تمهيد فى : أنواع الأيمان :

تنقسم الأيمان إلى ثلاثة أقسام :

يمين اللغو : وهو ما يسبق إليه اللسان بالحلِف بدون قصد مثل قوله : لا والله ، وبلى والله ، أو من حلف على شىء يعتقد أنه صادق فيه ، وكان الأمر بخلافه ، كمن حلف أنه ليس معه نقود أو قلم، ثم تبين وجود نقود أو قلم فى جيبه ، بدون أن يعلم بوجوده .

أما اليمين المنعقدة : فهى الحلف على شىء أن يفعله أو لا يفعله عاقدًا العزم مؤكدًا النية على ذلك فإذا حنث فى هذا اليمين فتلزمه الكفارة وهو مخيّر فى هذه الكفارة بين ثلاثة أشياء .

١ – إطعام عشرة مساكين يغدّيهم ويعيشهم ، أو يعطى لكل مسكين نصف صاع من قمح أو صاعًا من شعير .

٢ – إعطاء كل مسكين ثوبا يستره ويصلح للصلاة فيه .

٣ – إعتاق رقبة .

قال فى البحر المحيط : وأجمع العلماء على أن الحانث مخير بين الإطعام والكسوة والعتق .

فإذا عجز المسلم عن أداء أى واحد من الثلاثة المذكورة فكفارة اليمين له صيام ثلاثة أيام واشترط الأحناف والحنابلة التتابع فى الأيام .

وقال الشافعى ومالك: لا يجب التتابع ، واختار الطبرى أنه كيفما صامهنّ مفرقة أو متتابعة أجزأه.

٨٩ – لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ... الآية يسر الله التشريع والأحكام فقال تعالى : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِن حَرَجٍ. ومن هذا التيسير أنَّه رفع عن هذه الأُمة ما حدّثت به نفسها ، ورفع عنها إثم ما سبق إليه اللسان ، بدون قصد من القلب ، كقول الحالف لا والله وبلى والله .

كما سامح المؤمن فى الحلف على شىء أنه فعله أو لم يفعله معتقدًا صدق ذلك ثم تبين أن الأمر بخلافة.

يسمى ذلك اليمين اللغو وهى يمين نرجوا أن يسامحنا الله فيها .

وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ . أى ولكن يؤاخذكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم.

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهلِيكُمْ . أى كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذى تطعمون منه أهليكم .

جاء فى فتح القدير للشوكانى :

المراد بالوسط هنا : المتوسط بين طرفى الإسراف والتقتير ، وليس المراد به الأعلى كما فى غير هذا الموضع : أى أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه ، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه ، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه ، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا .

وقد روى عن على أنه قال : لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغدّيهم ويعشيهم ، قال أبو عمرو : هو قول أئمة الفتوى بالأمصار .

وقال الحسن البصرى وابن سيرين : يكفيه أن يُطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا وسمنًا أو خبزًا ولحمًا .

وقال عمر بن الخطاب وعائشة ومجاهد والشعبى وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وميمون بن مهران وأبو مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبو قلابة ومقاتل : يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من برّ أو تمر .

وقال أبو حنيفة نصف صاع برّ ، وصاع مما عداه .

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ) أى كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن .

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) أى إعتاق عبد مملوك لوجه الله .

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ) أى فمن لم يجد شيئًا من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام.

(ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) أى ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم .

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) أى احفظوها من الابتذال ولا تسارعوا إلى الحلف ، وإذا حنثتم فلا تتركوها بغير تكفير .

(كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أى مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم .

★ ★ ★

فى أعقاب الآية :

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال :

لما نزلت : يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ . فى القوم الذين كانوا حرَّموا على أنفسهم اللحم والنساء ، قالوا : يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلفنا عليها ؟ فأنزل الله : لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ
وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ
فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ
ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات :

الخمر : هى كل ما خامر العقل وغيَّبَه .

الميسر : القمار .

الأنصاب : الأصنام المنصوبة جمع نُصب .

والأزلام : هى قداح أى قطع رقيقة من الخشب على هيئة السهام ، كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم .

رجس : قذر .

البغضاء : البغض .

ويصدكم : أي : ويمنعكم يقال صدَّه يصدُّه منعه عن أمر .

فيما طعموا : أي : فيما تناولوا قبل التحريم .

تمهيد :

عرف العرب الخمر ومدحوها فى أشعارهم وتحدثوا عن أسباب شربها فهى تولد فيهم الشجاعة والجرأة وتنسيهم آلام الفقر على حدّ قول الشاعر :

فإذا سكرت فإننى ربُّ الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإننى رب الشويهة والبعير

وقد كان الشارع حكيما فى التدرج فى التشريع فقد حرم الخمر بالتدريج ، كما حرّم الزنا بالتدريج.

تقول عائشة رضى الله عنها : (لو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقال الناس : لا نترك الخمر أبدًا ، ولو نزل أول ما نزل لا تقربوا الزنا لقال الناس : لا نترك الزنا أبدا ، وإنما نزل أول ما نزل آيات تدعوا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر حتى إذا استقر الإيمان فى القلوب حرَّم الله الخمر وحرم الزنا) (٥) .

لقد نزلت آيات فى مكة تحذِّر من الزنا ولم تشرِّع عقوبة للزناة بمكة ، ففى سورة الفرقان مدح الله عباد الرحمن بصفات متعددة منها بعدهم عن الزنا ، وفى سورة الإسراء وهى من أواخر ما نزل بمكة يقول الله تعالى : وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . وفى سورة النور التى نزلت فى أعقاب غزوة بنى المصطلق حوالى سنة ٦ للهجرة أنزل الله تحريم الزنا وشرع عقوبة رادعة له واعتبر الزنا جريمة جنائية يجب على شُرطة الدول وإدارتها معاقبة الزناة وإقامة الحدّ عليهم بشروط معينة .

وكذلك تحريم الخمر مرّ بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : بيان أن ضرر الخمر أكثر من نفعه ، والمعروف أن ما كثر ضرره وجب تركه.

قال تعالى : يَسأَلُونَكَ عَنِ الْخَمرِ والْمَيسرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٍ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإِثْمُهُمَا أَكبرُ مِنْ نَفْعِهِمَا . فترك الخمر بعض الناس ، ولم يتركها الجميع .

ثم قال تعالى : لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىَ . فترك الخمر بعض الناس ، وشربها بعضهم فى غير أوقات الصلاة .

ثم حرم الله تعالى الخمر تحريمًا قاطعًا مبينًا مفاسدها وآثامها . محذرًا من إفسادها لدين المسلم وقواه العقلية لما وردت أحاديث كثيرة بروايات متعددة فى تحريم الخمر وتحريم صنعها ، والاتصال بها على أى نحو من الأنحاء .

حتى قال العلماء : ثبت عن النبى ﷺ تحريم الخمر بأخبار بلغ بمجموعها رتبة التواتر ، وأجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على تحريمها وبذلك استقرت الحرمة حكمًا للخمر فى الإسلام ، وصارت حرمتها من المعلوم من الدين بالضرورة (٦) .

التفسير :

٩٠- يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أكد الله سبحانه وتعالى تحريم الخمر بأساليب متعددة نظرًا لأن مدمن الخمر يصعب عليه التخلص منها لما تتركه من آثار كيميائية ولها تأثير على الأعصاب والمخ والدم ، كما أنها سبب فى كثير من الأمراض والمدمن إما أن يفقد منزلته أو يفقد اتزانه .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف : (أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد ، منها : تصدير الجملة ، بإنّما ، ومنها : أنه قرنهما بعبادة الأصنام ، ومنها قوله ﷺ : (شارب الخمر كعابد الوثن) ومنها : أنه جعلهما رجسًا ، كما قال : (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ومنها : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان لا يأتي منه إلا الشرّ البحت ، ومنها : أنه أمر بالاجتناب ومنها : أنه جعل الاجتناب من الفلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحًا كان الارتكاب خيبة ومعصية ، ومنها : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال ، وهو وقوع التعادي والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار ، وما يؤديان إليه من الصدّ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة . انتهى.

وهذه الآية الكريمة بينت مضار الخمر ، (وَالْمَيْسِرُ) وهو القمار (وَالأَنصَابُ) وهي الأصنام المنصُوبة للعبادة (وَالأَزْلاَمُ) وهي الأقداح التي كانت عند سدنة البيت وخدام الأصنام .

قال ابن عباس ومجاهد : الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، والأزلام : قداح كانوا يستقسمون بها .

ذكر سبحانه أن هذه الأربعة – الخمر والميسر والأنصاب والأزلام (رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أي قذر ونجس تعافه العقول وخبيث مستقذر من تزيين الشيطان . (فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

أي ابتعدوا عنه وكونوا في جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم .

٩١– إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... الآية. أي ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلاّ إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين في شربهم الخمر . ولعبهم بالقمار وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ . أي ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم ، وعن الصلاة التي هي عماد دينكم .

قال أبو حيان : ذكر الله تعالى في الخمر والميسر مفسدتين إحداهما دنيوية والأخرى دينية ، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتئول بشاربها إلى التقاطع ، وأما الميسر فإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليبًا لا شيء له ، وينتهي إلى أن يقامر على أهله وولده ، وأما الدينية فالخمر لغلبة السرور والطرب بها تلهي عن ذكر الله وعن الصلاة ، والميسر – سواء كان غالبًا أو مغلوبًا – يلهي عن ذكر الله [٧] .

فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . وهذا الاستفهام من أشد أساليب النهي عن الخمر والميسر ، ولذلك قال عمر عندما سمعها انتهينا ربنا انتهينا .

قال أبو حيان فى البحر المحيط : وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من المفاسد التى توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم ؟

فى أعقاب الآية :

وردت الأحاديث الصحيحة فى تحريم الخمر ومن ذلك ما يأتى :

روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «ياأيها الناس إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمرًا ، فمن كان عنده شىء منها فليبيعه ، ولينتفع به» وما لبثوا إلا يسيرًا حتى قال ﷺ: «إن الله حرم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية يريد (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) وعنده منها شىء فلا يشرب ولا يبع ، فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها» [٨] .

– وروى أحمد ومسلم والنسائى ما يأتى :

لقى النبى ﷺ رجلاً يوم الفتح براوية من خمر فقال له أما علمت أن الله حرمها ؟

فأقبل الرجل على غلامه وقال له اذهب فبعها فقال له الرسول ﷺ إن الذى حرم شربها حرم بيعها فأمر بها فأفرغت فى البطحاء [٩] .

ومن هذه الأحاديث وغيرها تقررت حرمة الانتفاع بالخمر على أى نحو من الأنحاء ، فيحرم أن تدخل فى الطعام بأىِّ قدر كان ، ويحرم أن يصفف بها الشعر ، كما تفعله بعض السيدات ، ويحرم تقديمها فى موائد المسلمين مجاملة لغير المسلمين .

المخدرات :

أن الخمر هى كل ما أسكر كما ورد . «كل مسكر خمر وكل خمر حرام» [١٠] .

إن بعض المخدرات أشد فتكًا بصحة الإنسان من الخمر . ولذلك أجمع فقهاء الإسلام على حرمة المخدرات وقرروا أن استحلالها كاستحلال الخمر وجاء فى كتبهم (ويحرم أكل البنج والحشيش والأفيون لأنها مفسدة للعقل ، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويجب تعزير آكلها بما يردعه) .

وقال ابن تيمية (إنّ فيها من المفاسد ما ليس فى الخمر فهى أولى بالتحريم ، ومن استحلها ، وزعم أنها حلال فإنه يستتاب فإن تاب وإلاَّ قتل مرتدا ولا يصلّى عليه، ولايدفن فى مقابر المسلمين).

وقال ابن القيم : «يدخل فى الخمر كل مسكر ، مائعا كان أو جامدًا ، عصيرًا أو مطبوخًا ، واللقمة الملعونة ، لقمة الفسق والفجور التى تحرك القلب الساكن إلى أخبث الأماكن» ويعنى باللقمة الملعونة (الحشيشة) هذه اللقمة وغيرها من المخدرات تذهب بنخوة الرجال . وبالمعانى الفاضلة فى الإنسان

وتجعله غير وفىّ إذا عاهد ، وغير أمين إذا اؤتمن ، وغير صادق إذا حدَّث ، تميت فيه الشعور بالمسئولية ، والشعور بالكرامة .

وثبت طبيًا أن للمُخدرات الحديثة كالكوكايين والهروين والأقراص المصنّعة آثارًا قوية على المخ وسائر ملكات الإنسان ، بل فيها قتل معنوى ، وسحق للقيم وهى تُشمِتُ بنا الأعداء ، وتُحزن الأصدقاء .

ويمكن التغلب عليها بالإيمان واليقين الصادق بالله وباليوم الآخر ، وبقوة العزيمة ، ومعونة الأطباء والعلماء .

يجب أن يقوم البيت بواجبه فى رعاية الفتيان والفتيات ، ويجب أن تقوم وسائل الإعلام بالتوعية الحقيقية، وأن ينهض المسجد والمدرسة والأجهزة المعنية برعاية المدمنين وتوجيههم ، والأخذ بيدهم إلى الشّفاء ، يجب تحذير الجميع من هذه المخدرات ومن تناولها مطلقًا فإن المرة الأولى يمكن أن تجرّ صاحبها إلى الإدمان ، وإلى العجز التام عن العودة إلى الجادة والاستقامة ، ولقد سبق القرآن إلى تحريم الخمر ، وهى كلّ ما خامر العقل وستره سواء أكان خمرًا . أم أى صنف من المخدرات وجب علينا جميعًا أن نستجيب لأمر الله ففيه الحياة الحقيقية قال تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَسول إِذَا دَعَاكُمْ لِما يُحْيِيكُم . (الأنفال : ٢٤). وقال سبحانه : يُحِلَ لَهُم الطَيبَات ويُحَرمَ عَليهِمُ الخَبَائِثَ . (الأعراف : ١٥٧). وقال ﷺ : «البرّ ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس» [١١].

ولم تظهر هذه المخدرات فى حياة الرسول ﷺ وإنما ظهرت مع سقوط بغداد فى يد التتار سنة ٦٥٦ هـ ، وأفتى العلماء بتحريمها لأنها تفسد العقل وتصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، بل هى أشدّ فتكًا بالجسم والعقل من الخمر .

وقد جاء الإسلام ليحافظ على العقول ، وجعل العقل واللب والفؤاد والقلب أسمى أدوات الخطاب وأوجب علينا التفكُّر والتدبر ، وحرم الغفلة والضياع . قال تعالى : وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَىَ التَهْلُكَة . (البقرة : ١٩٥) وقال سبحانه : وَلا تَقتُلوا أَنْفُسَكُم (النساء : ٢٩) .

وروى ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «لعن الله الخمر وشاربها ، وساقيها وبائعها ، ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها ، وآكل ثمنها ، وحاملها والمحمولة إليه» [١٢] .

المخدرات وباء فتاك :

إن مما يدعو للحزن والأسف أن يتهافت الشباب على هذه المخدرات ويدَّعى أنّ تحريمها لم يذكر فى القرآن الكريم وهذه المخدرات قتل معنوى للإنسان خصوصًا الهروين والكوكايين ففى الشمّة

الأولى يفقد المخ ٣٣ ٪ من مقوماته ، وفى الشمة الثانية يفقد المخ ٦٦ ٪ من مقوماته وفى الشمة الثالثة يفقد المخ ٩٩ ٪ من مقوماته ويصبح المدن آلة فى يد الإدمان ، وهذا قتل وتدمير لكرامة الإنسان قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً . (الإسراء : ٧٠). وفى القرآن الكريم : وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . (البقرة : ١٩٥) .

إن هذه المخدرات هلاك لجيل من الشباب والفتيان والفتيات ، وعدوان على مستقبل الأمّة ، وامتهان لكرامة الوطن والمواطن ، لأن المدمن لا يستطيع أن يضبط عمله ولا أن يصون نفسه ، ولا أن يدافع عن وطنه وفى الحديث الشريف «البرُّ ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس» (١٣) .

إذا ثبت أن المخدرات ضارة بالصحة وبالعقل والتفكير وجب الابتعاد عنها تمامًا كما أمر الله بالابتعاد عن الخمر لأنها تستر العقل ، والمخدرات تستر العقل وتفسد المخ فهى أشد ضررًا من الخمر، وكل ما ثبت ضرره وجب تركه من أصول الدين «لا ضرر ولا ضرار» (١٤) فترك الضرر واجب شرعًا ، والإقلاع عن المخدرات واجتنابها نهائيًا واجب شرعًا ، ومقصد من مقاصد الشريعة حفاظًا على أنفسنا وعلى أمتنا قال تعالى:

وَلا تَقْتُلوا أَنْفُسَكُم ... (النساء : ٢٩) .

من وسائل العلاج :

إن الابتعاد عن المخدرات لايكفى معه الكلام أو النصح بل يحتاج إلى خطة متكاملة حتى يصبح البعد عن الإدمان سلوكًا عامًا .

وهذا السلوك يحتاج إلى تكاتف المختصين بالأمر من أطباء الصحة وعلماء النفس والتربية والاجتماع والإعلام والصحافة وخبراء التربية الإسلامية ، والدينية .

إن قيام المسجد والكنيسة وسائر دور العبادة بالدَور المطلوب منها ، وبالواجب المنوط بها ، سيؤدى إلى استقرار حكم التحريم لهذه المخدرات ، ومن الواجب أن تتسع صدورنا لمناقشة المدمن ، وتشجيعه على الاعتراف والحديث ؛ فهو مريض يحتاج إلى العلاج ، قبل أن يحتاج إلى الفتوى ومن العلاج أن نحترم إنسانيته وأن نفتح أمامه باب التوبة والأمل ، حتى يتغلب على اليأس والإحباط .

كما ينبغى للأسرة أن تتقبل المدمن ، وأن تتكاتف فى رعايته حتى يقلع عن الإدمان . ويجب العناية بدو الاستشفاء والعلاج من الإدمان ، وتزويد هذه الدور بالمتخصصين ، لأنها استثمار حقيقى للإنسان وقد خلق الله الكون كلّه من أجل الإنسان ، وسخر له الشمس والقمر والليل والنهار ،

والسماء والأرض ، واستخلف الإنسان فى عمارة الكون ، وإصلاح الحياة ، والمؤمن الصالح أهل للخلافة فى هذه الأرض ، ولا صلاح إلا بالاستقامة والجدّ والعمل والأمل .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ... (الكهف : ٣٠) .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

٩٢- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ... الآية .

هذا أمر من الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وتحذير من مخالفة اللهومخالفة رسوله وقريب من ذلك قوله تعالى : مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . (النساء : ٨٠)

وفى الآية ترغيب فى طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله وتحذير من المخالفة فمن خالف رسول الله وأعرض عن هدى السماء فإنه لا يخالف المُرسَل وإنما يخالف المرسِل ، وهو ﷺ ليس مسيطرًا ، ولا مكلفًا بالهداية قال تعالى : إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ . (الشورى : ٤٨) .

وقال سبحانه : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ .

قال الشوكانى فى فتح القدير : أى فإن أعرضتم عن الامتثال فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم وصلاحكم ، ولم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم ، وفى هذا من الزجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه .

قال النسفى :

أى : فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنه ما كلّف إلا البلاغ المبين بالآيات، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه .

٩٣- لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

سبب النزول :

لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها، ويأكل الميسر، وماتوا وهى فى بطونهم فكان الجواب أنهم ماتوا قبل تحريمها ، فلم يكن عليهم فى شربها إثم وكانوا أتقياء .

قال القرطبى :

وهذه الآية نظير سؤالهم عمن مات إلى القبلة الأولى فنزلت وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم ... الآية (البقرة : ١٤٣) .

والمعنى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ) أى إثم أو عقوبة (فِيمَا طَعِمُوا) أى فيما تناولوه من طعام أو شراب قبل تحريمه ، وكذلك لا إثم على من مات قبل التحريم والخمر فى بطنه .

إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . إذ اتقوا الله وخافوه وعملوا الأعمال الصالحة .

ثُمَّ اتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ أى ثم استمرُّوا على تقواهم وامتلاء قلوبهم بخشية الله والإيمان الحق به سبحانه.

ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ثم تأكد استمرارهم على التقوى وإحسان العمل والإخلاص لله فى السر والعلن.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . أى يرضى عنهم ويشملهم برحمته .

والإحسان : أسمى أنواع العبادة : وهى عبادة الله مع الإخلاص وصدق النية ، وفى الحديث الصحيح «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [١٥] .

والآية تشتمل على جانب من مظاهر رحمة الله بعباده ، فإنه لا يؤاخذ الناس على الفعل إلا من بداية تحريمه ، فمن مات شاربًا للخمر قبل تحريمها فلا جناح ولا إثم عليه .

وتلحظ أن الآية ختمت بوصف التقوى وتكرير التقوى ، والمقصود من ذلك ، وجوب امتلاء قلب المؤمن بتقوى الله ، واستمراره على ذلك حتى يصل إلى مرتبة الإحسان فى العبادة .

قال الطبرى :

الاتقاء الأول : هو الاتقاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق .

والاتقاء الثانى : الثبات على التصديق .

والثالث الإحسان والتقرب بالنوافل .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن
يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ
وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا
بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا
سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ
مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ
تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات :

ليبلونكم : الابتلاءُ : الاختبار .

بشيء من الصيد : الصيد : ما صِيدَ من حيوان البحر ، ومن حيوان البر الوحشية ، ومن الطيور.

تناله أيديكم ورماحكم : يراد به كثرته وسهولة اصطياده .
روى عن ابن عباس : أنه ما تناله الأيدى : الصغار والفراخ من الصيد . وما يؤخذ وينال بالرماح الكبار .

ليعلم الله من يخافه بالغيب : أى ليعاملكم معاملة المختبر ، الذى يريد أن يعلم الشيء علم وقوع – وإن كان سبحانه وتعالى يعلمه علم غيب – فهو علام الغيوب .

وأنتم حرم : جمع حرام . ويطلق على الذكر والأُنثى . يقال : رجل وامرأة حرام . أى رجل محرم وامرأة محرمة : بحج أو عمرة .

من النعم : الأنعام من الإبل والبقر والغنم .

أو عدل ذلك . العدل (بفتح العين): المعادل للشيء ، والمساوى له ، مما يدرك بالعقل والعِدل (بكسر العين) : المساوى للشيء مما يدرك بالحس .

ليذوق وبال أمره : الوبال : من الوبل والوابل . وهو : المطر الثقيل ، وطعامٌ وبيلٌ أى ثقيل . ويقال للأمر الذى يُخشَى ضَرَرُهُ : هو وبال .

أحل لكم صيد البحر : البحر المراد به : الماء الكثير الذى يوجد فيه السَّمك ، كالأنهار ، والبِرَك ونحوها .. وصيد البحر ما يصاد منه مما يعيش فيه عامة .

وطعامه متاعا لكم : وطعام البحر : ما قذف به إلى ساحله .

وللسيارة : والسيارة هم المسافرون ، يتزودون منه .

الذى إليه تحشرون : أى تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة .

التفسير :

٩٤- يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ .

تمهيد :

خلق الله الإنسان للاختبار والابتلاء فمن أطاع فله الجنة ، ومن أساء فله النار .

قال تعالى : الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . (الملك : ٢) .

وقد كان الصيد أحد معايش العرب فابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفى الحرم ، كما ابتلى بنى إسرائيل ألا يعتدوا فى السبت .

عن مقاتل قال : أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قطّ فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ .

والمعنى : أى ليختبرنكم الله – وأنتم محرمون – ببعض من الصيد يسهل عليكم تناوله ، بحيث تناله أيديكم بدون حاجة إلى سهام أو جوارح ، أو بطيور صغار تستطيعون أخذها بأيديكم وبطيور كبار تستطيعون صيدها برماحكم لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ . ليتميز عند الله من يخافه منكم خفية عن الناس ، كما يخافه بمرأى من الناس ومسمع منهم ، فالخوف بالغيب برهان الإيمان .

جاء فى حاشية الجمل : وقوله (بالغيب) حال من فاعل يخافه أى يخاف الله حال كونه غائبًا عن الله ، ومعنى كون العبد غائبًا عن الله ، أنه لم ير الله تعالى .

أو حال من المفعول: أى يخاف الله حال كونه – تعالى – ملتبسًا بالغيب عن العبد أى غير مرئى له.

(فَمَنِ اعْتَدَى) فاصطاد .

(بَعْدَ ذَلِكَ) أى بعد الابتلاء .

(فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أى شديد الإيلام عظيم الإهانة لأن التعدى بعد الإنذار، دليل على عدم المبالاة بأوامر الله، ومن لم يبال بأوامر الله ساءت عاقبته وقبح مصيره.

هذا ولقد نجحت الأمة الإسلامية، وخصوصًا سلفها الصالح فى هذا الاختبار، فقد تجنب أبناؤها وهم محرمون صيد البر مهما أغراهم قربه منهم، وحبهم لصيده والانتفاع به.

بينما أخفق بنو إسرائيل فيما يشبه هذا الاختبار فقد نهاهم الله عن الصيد فى يوم السبت، فكانت الأسماك تظهر لهم فى هذا اليوم امتحانًا من الله لهم، فما كان منهم إلاَّ أن تحايلوا على صيدها بأن حبسوها فى يوم السبت، ليصيدوها فى غيره .. فاستحق اليهود اللعنة والمسخ واستحقت الأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

٩٥ - يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ... الآية.

لما كان قتل الصيد فى حال الإحرام - ذنبا كبيرًا كرر النهى عنه فى هذه السورة.

أى: لا تَتَسَبَّبُوا فى قتل الصيد، ولا تباشروا القتل فى حال الإحرام.

قال القرطبى:

هذه الآية خطاب عام لكل مسلم ذكر وأنثى، وهذا النهى هو الابتلاء المذكور فى قوله تعالى قبل هذه الآية: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ. وروى أن أبا اليسر واسمه عمرو بن مالك الأنصارى كان محرمًا عام الحديبية بعمرة، فقتل حمارًا وحشيًا فنزلت هذه الآية.

وتفيد الآية النهى عن قتل الصيد لمن كان مُحرما بحج أو عمرة، سواء أكان الصيد مأكول اللحم أو غير مأكول وهذا رأى الجمهور، وخصه الشافعية بما يؤكل لحمه فقط، لأنه الغالب فيه عرفا.

أما الحيوانات الخطرة على حياة الإنسان فإنه يباح قتلها فى الحرم.

قال ﷺ: «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور» [١٦] وفى رواية الحية بدل العقرب. رواه الشيخان عن عائشة.

وقد ألحق مالك وأحمد بالكلب العقور: الذئب، والسبع والنمر، والفهد، لأنها أشد ضررًا منها، وهكذا كل ما يكون خطرًا على حياة الإنسان.

وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ... الآية. أى: ومن تعمد منكم قتل الصيد، أو كان له دخل فى قتله، وسواءٌ أقتله فى الحرم أم خارجه، وكذلك من قتله فى الحرم - وهو غير محرم - فعليه فى كل حالة مما ذكر جزاء من النعم مماثل لما قتله إن وجد.

قال ابن كثير وفى قوله تعالى :

فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ... الآية . دليل لما ذهب إليه مالك والشافعى وأحمد من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسى ، خلافا لأبى حنيفة حيث أوجب القيمة سواء أكان الصيد المقتول مثليًا أو غير مثلى ، قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه وإن شاء اشترى به هديًا .

والذى حكم به الصحابة فى المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا فى النعامة ببدنة ، وفى بقرة الوحش ببقرة ، وفى الغزال بعنز .. وأما إذا لم يكن الصيد مثليا فقد حكم ابن عباس فيه بثمن يحمل إلى مكة [١٧]

وقوله تعالى : مُّتَعَمِّدًا ليس قيدًا لوجوب الجزاء والكفارة ، فإن الخطأ مثل العمد فى الكفارة المذكورة ، فالتعبير بقوله متعمدًا لبيان الواقع ، لأن الآية كما سبق نزلت فى أبى اليسر ، لما قتل عمدًا حمارًا وحشيًا وهو محرم .

يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُم . أى يحكم بالجزاء أو بمثل ما قتل رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين ، فإذا حكما بشىء لزم .

هَدْيًا بَالِغَ الكَعْبَةِ .

المعنى : أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدى من الإرسال إلى مكة والنحر هناك ، ولم يرد الكعبة بعينها ، فإن الهدى لا يبلغها ، وإنما أراد الحرم ولا خلاف فى هذا .

أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا .

المعنى : أن من قتل الصيد وهو محرم ، أو قتله فى الحرم وهو غير محرم ، فهو مخير بين ثلاثة أمور:

١ – الجزاء بالمثل . ٢ – إطعام المساكين . ٣ – الصيام .

فأما الإطعام فبقيمة ما قتل من الصيد يعطى لكل مسكين مدّ وأما الصيام فإنه يصوم عن كل مدّ يومًا وبهذا نرى أن المحرم إذا قتل الصيد فعليه جزاء من النَّعم مماثل للصيد المقتول فى الخلقة والمنظر ، أو عليه ما يساوى قيمة هذا الجزاء طعامًا لكل مسكين مدّ ، أو عليه ما يعادل هذا الطعام صيامًا ، عن كل مدٍّ يوم .

أما أبو حنيفة فيرى أن المماثلة إنما تعتبر ابتداء بحسب القيمة فيقوّم الصيد المقتول من حيث هو ، فإن بلغت قيمته قيمة هدى يخيّر الجانى بين أن يشترى بها هديًا يهدى إلى الحرم ، ويذبح فى

الحرم ويتصدق بلحمه على الفقراء ، وبين أن يشترى بالقيمة طعامًا للمساكين يوزع لكل مسكين مدّ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يومًا .

وعندى أن المذهب الحنفى أوضح وأسهل تطبيقًا ، وأدق فى تعرف المثل ، وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح ، إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة [١٨] .

لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ . أى أوجب الله هذا الجزاء السابق على قاتل الصيد ليذوق عقاب جنايته لهتكه حرمة الإحرام أو الحرم .

عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ . أى عفا الله عمّا تقدم من قتلكم الصيد قبل نزول هذه الكفارة .

وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنهُ . أى ومن عاد إلى قتل الصيد – بعد نزول هذه الآية – فينتقم الله منه ، وعليه مع ذلك الكفارة . وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . فهو سبحانه العزيز الذى لا يغالب ولا يقاوم ، المنتقم الذى لا يُدْفع انتقامه .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد حذّرت المؤمنين من التعرض للصيد فى حالة إحرامهم وبينت الجزاء المترتب على من يفعل ذلك ، وهددت من يستهين بحدود الله بالعذاب الشديد .

٩٦– أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ... الآية . المراد بالبحر ما يعم المياه العذبة والملحة ، والمراد بصيده : ما صيد منه ، فهو حلال كله ، سواء أكان صيده للطعام كالسمك ، أم لغيره من وجوه النفع الأخرى كاللؤلؤ والمرجان .

وَطَعَامُهُ . أى وأكل ما يصلح للأكل منه ، سواء أخذ من البحر حيًّا أم ميتًا .

أخرج الإمام أحمد وأهل السنن ومالك والشافعى عن أبى هريرة أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر؟

فقال رسول الله – ﷺ – «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» [١٩] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله – ﷺ – «أحلت لنا ميتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدّمان فالكبد والطحال» [٢٠] .

وقد احتج بهذه الآية مَن ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئًا.. وقد استثنى بعضهم الضفادع ، وأباح ما سواها .. وقال أبو حنيفة لا يؤكل ما مات فى البحر ، كما لا يؤكل ما مات فى البّر لعموم قوله تعالى : حُرِّمَت عَلَيكُم الْمَيْتَةَ .

وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا . أى وحرّم عليكم اصطياد حيوان البرّ – أو طيره – ما دمتم محرمين ، بخلاف ما صاده غير المحرمين أو ما صدتمون قبل إحرامكم ، فليس محرمًا عليكم أن تأكلوه ولو فى حال إحرامكم .

وقد ذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد إلى أنه لا بأس بأكل المحرم الصيد إذا لم يصد له ولا من أجله.

وقال أبو حنيفة : أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال ، إذا اصطاده الحلال ، سواء صيد من أجله أو لم يصد .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . أى قفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها واعلموا أن مرجعكم وحشركم إليه وحده ، وسيجازيكم على أعمالكم التى عملتموها فى دنياكم .

والحكمة من تحريم الصيد البرّى على المحرمين ما يأتى :

١ – تكريم منطقة الحرم فهى منطقة أمان للإنسان والحيوان والطير .

٢ – تعويد المؤمن على السلام عمليًا حتى إنه لا يقتل صيدًا ولو وجد قاتل أبيه فى الحرم لا يقتله حتى يخرج إلى منطقة الحل .

٣ – توفير الصيد حول الحرم لأهل مكة وحدهم حتى ينتفعوا به .

★ ★ ★

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾

المفردات :

قياما للناس : ما يَقوم به أمر الناس ؛ ويصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

والشهر الحرام : الحرام ؛ (أل) فى الشهر ، للجنس . فيعم الأشهر الحرم الأربعة . وهى : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ورجب . وقيل : «الشهر» هو شهر ذى الحجة.

والهدى : ما يهدى إلى الحرم من الأنعام قربة إلى الله ، للتوسعة على فقراء الحرم .

والقلائد : جمع قلادة ، وهى كل ما علق على أسنمة الأنعام وأعناقها ، علامة على أنها لله . والمراد بالقلائد : ذوات القلائد إذا ساقوها هَدْيا .

التفسير:

٩٧ – جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ ... الآية .

اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يُصيِّر الكعبة التى هى البيت الحرام قِيامًا لِلنَّاسِ أى به قوامهم فى إصلاح أمر دينهم ودنياهم فهى مركز الإسلام الأوّل .

فصلاح أمر الدين بالحج إلى البيت الحرام وأداء المناسك والعبادات ، وصحة الصلاة باستقبال البيت الحرام ، وصلاح أمر الدنيا عن طريق تبادل المنافع ، وبذل الأموال والشعور بالأمان والاطمئنان ، وتوثيق الصلات الدينية والدنيوية .

فقد جعل الله الكعبة معظمة فى القلوب ، يفد الناس إليها من كل فج عميق لأداء المناسك ، وصار ذلك سببًا فى إسباغ النعم على أهلها ، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم الخليل : رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرَ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم ٣٧) .

وقد حقق الله دعوة سيدنا إبراهيم ، فصارت الكعبة ملاذًا للناس ، وأمنًا لأهلها على أنفسهم وأموالهم ، فلو وجد الإنسان قاتل أبيه أو أخيه عند الكعبة لم يجز له أن يقتله .

وكذلك جعل الله الأشهر الحرم منطقة زمنية يحرم فيها القتال وذلك لأن الناس يتفرغون للتجارة والعمل والإنتاج والإفادة ، فتطمئن الأفئدة ، ويحصل التآلف والتزاور بعد التدابر والتقاطع والتعادى.

كما أن الهدى والقلائد ، التى يسوقها المحرمون إلى الحرم فيها ما فيها من التوسعة على الفقراء، وإشاعة روح المحبة والتسامح والإخاء .

ويشير الإمام القرطبى فى تفسيره إلى الحكمة من جعل هذه الأشياء قيامًا للناس فيقول :

إن الله تعالى خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتقاطع والسلب والغارة ، فلم يكن بد فى الحكمة الإلهية من وازع يحملهم على التآلف .

فجعل الله الخليفة فى الأرض حتى لا يكون الناس فوضى ، وعظم فى قلوبهم البيت الحرام ، وأوقع فى نفوسهم هيبته فكان من لجأ إليه معصومًا به ، وكان من اضطهد محميًا بالالتجاء إليه ، كما جعل الله الأشهر الحرم ملجأً آخر ، وقرر فى نفوسهم حرمتها فكانوا لا يطلبون فيها دمًا ، ولا يروِّعون فيها نفسًا ، ثم شرع لهم الهدى والقلائد فمن علق قلادة على بعيره أو على نفسه لم يروعه أحد حيث لقيه .

والهدى : ما يهدى للبيت الحرام وفى ذبحه منافع للفقراء وقيام لمعيشتهم ، وثواب للأغنياء ، ورفع لدرجتهم

والقلائد : أى الحيوانات التى توضع فى رقبتها قلادة من ورق الشجر ، فمن رآها علم أنها ستقدم للبيت الحرام فترك سبيلها حتى تذبح ، وتوزع على فقراء الحرم ، وتخصيص القلائد بالذكر - مع شمول الهدى إياها - لبيان أن الشرع أباح تقليد الهدى ، لما فيه من إظهار شعائر الله، والمبالغة فى منع التعرض لها .

ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . أى شرع الله هذه الأحكام السابقة لتعلموا أنه سبحانه يعلم علمًا شاملاً ما فى السموات وما فى الأرض ، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم ، وهتاف أرواحهم .. لأن تشريع هذه الشرائع المستتبعة لدفع المضار ، ولجلب المصالح الدينية والدنيوية دليل على أنه سبحانه يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وعلى أنه بكل شىء عليم فلا تخفى عليه خافية والجملة الأخيرة فى الآية توكيد ، لإحاطته تعالى بما كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون .



﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠) ﴾

التفسير :

٩٨- اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . تعتمد التربية الإسلامية على التوازن والتكامل والجمع بين الخوف والرجاء ، فإذا اشتد الخوف صار يأسًا ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وإذا قوى الرجاء وزاد عن حده تحول إلى تمن وطاعة وفى الحديث «ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل [٢١] ألا وإن أقواما غرتهم الأمانى فخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا على الله ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . أى اعلموا - أيها الناس - أن الله شديد العقاب لمن انتهك حرماته وتجاوز حدوده .

وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . لمن تاب من ذنبه وعاد إلى ربه وندم على ما فرط منه .

وقد جمعت الآية بين الخوف والرجاء ، تحذيرًا من المعصية وترغيبًا فى التوبة والإنابة .

وتلك طريقة القرآن الحكيمة ، لأنها طريقة العليم الخبير الذى خلق الإنسان ، وقدّر له أسباب الهداية، وحذره من الغواية قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . (ق : ١٦) .

٩٩- مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

والمعنى : أى على رسولنا محمد ﷺ إلا أن يبلغ دعوة ربّه وأن يدعو الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وليس عليه الهداية أو الضلال ، وإنما ذلك بيد الله وحده فهو سبحانه بيده الملك والأمر وهو المطّلع على السرائر وهو المجازى والمحاسب .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . فهو سبحانه يعلم ما تظهرون وما تخفون من طاعة ومعصية ، فيحاسبكم عليه ويجازيكم به إن خيْرًا فخير وإن شرًّا فشر .

١٠٠- قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ... الآية .

والمعنى : أمر الله تعالى رسوله الأمين أن يبلغ أمّته هذه القاعدة السليمة : لا يستوى فى ميزان الله ولا فى ميزان العقلاء الخبيث والطيب ، حتى ولو كان الفريق الخبيث كثير العدد براق الشكل تعجب الناظرين هيئته ، فلا تغتر به أيها العاقل، ولا تؤثر فى نفسك كثرته ، وسطوته ، فإنه مهما كثر وظهر وفشا .. فإنه سيء العاقبة ، سريع الزوال، لذته تعقبها الحسرة ، وشهوته تتلوها الندامة .

أما الفريق الطيب أو الشيء الطيب فهو محمود العاقبة ، لذته الحلال ، يباركها الله ، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وطريقه المستقيم – مهما قلّ سالكوها – هى الطريق التى توصل إلى كل خير وفلاح .

ولا شك أن العقل عندما يتخلص من الهوى سيختار الطيب على الخبيث ، لأن فى الطيب سعادة الدنيا والآخرة ، وما أحسن قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : «ما تمتع الأشرار بشيء إلاَّ وتمتّع به الأخيار ، وزادوا عليه رضا الله عز وجل» .

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . أى إذا كان الطيب راجحًا ومحمودًا مهما قل ، والخبيث مرذولاً ومرجوحًا مهما كثر .

فراقبوا الله يا أصحاب العقول السليمة لعلكم بسبب هذه التقوى تدركون الفلاح والنجاح فى دنايكم وآخرتكم .

قال الفخر الرازى :

لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الترغيبات الكثيرة فى الطاعة ، والتحذيرات من المعصية أتبعها بوجه آخر يؤكدها فقال : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى فاتقوا الله بعد هذه البيانات الجليّة والتعريفات القوية ، ولا تقدموا على مخالفته لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

التفسير :

١٠١ – ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُم﴾ ... الآية .

سبب النزول :

روى البخارى – بسنده – عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، وقال فيها «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيرًا» [٢٢] قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم – لهم حنين – فقال رجل : من أبى ؟ فقال فلان .. فنزلت هذه الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وذكر المفسرون روايات متعددة فى سبب نزول الآيتين ومنها ما رواه البخارى أيضًا عن أنس عن النبى ﷺ وفيه : «فوالله لا تسألونى عن شيء إلاّ أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا ، فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : «النار» فقام عبد الله بن حذافة وكان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه ، فقال من أبى يا رسول الله ؟ فقال أبوك حذافة .. [٢٣] .

قال القرطبى: ويحتمل أن تكون الآية نزلت جوابا للجميع ، فيكون السؤال قريبا بعضه من بعض.

المعنى : يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بالله حق الإيمان ، لاَ تَسْأَلُوا نبيكم ﷺ أو غيره عن أشياء تتعلق بالعقيدة أو بالأحكام الشرعية أو بغيرها ، هذه الأشياء (إِن تُبْدَ لَكُمْ) وتظهر (تَسُؤْكُم) أى تغمّكم وتحزنكم وتندموا على السؤال عنها لما يترتب عليها من إحراجكم ومن المشقة عليكم ، ومن الفضيحة لبعضكم .

فالآية كما يقول ابن كثير : تأديب من الله لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربَّما ساءتهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «لا يبلغنى أحد عن أحد شيئًا ، فإنى أحبّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» .

وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرءَانُ تُبدَ لَكُمْ .

السؤال نوعان : سؤال يمكن الاستغناء عنه وسؤال يحتاج الإنسان إلى معرفته فيما يتعلق بتفصيل أحكام نزل بها القرآن الكريم أو شرح لها .

والمعنى لا تكثروا أيها المؤمنون من الأسئلة التى لا خير لكم فى السؤال عنها ، وإن تسألوا عن أشياء نزل بها القرآن مجملة ، فتطلبوا بيانها لكم حينئذ لاحتياجكم إليها .

من تفسير القرطبى :

قال القرطبى : قوله تعالى : وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرءَانُ تُبدَ لَكُمْ . فيه غموض ، وذلك أن فى أول الآية النهى عن السؤال ، ثم قال : وَإِن تَسْأَلُوا ... الخ . فأباحه لهم فقيل : إن المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه ، فحذف المضاف ، ولا يصح حمله على غير الحذف .

قال الجرجانى : الكناية فى (عَنْهَا) ترجع إلى أشياء أخر ، كقوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِيْنٍ يعنى آدم ، ثم قال : ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً أى : ابن آدم ، لأن آدم لم يجعل نطفة فى قرار مكين ، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله ، وعرف ذلك بقرينة الحال .

فالمعنى : وإن تسألوا عن أشياء – أُخر – حين ينزل القرآن من تحريم أو تحليل أو حكم ، أو مست حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم فحينئذ تبد لكم فقد أباح – سبحانه – هذا النوع من السؤال [٢٤] .

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا . أى هناك أشياء سكت عنها القرآن ، ولم يكلفكم فيها بشىء ، فلا تسألوا عنها ، ولكن إن سألتم عنها ينزل عليكم التكليف بحكمها ، أى فلا تكثروا من السؤال [٢٥] .

قال رسول الله ﷺ «أعظم المسلمين فى المسلمين جرمًا من سأل عن شىء لم يحرّم ، فيحرّم من أجل مسألته» [٢٦] .

وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . والله واسع المغفرة والحلم والصفح ولذا لم يكلفكم بما يشق عليكم ، ولم يؤاخذكم بما فرط منكم من أقوال وأعمال قبل النهى عنها .

١٠٢ – قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ . أى قد سأل مثل هذه المسائل المنهى عنها ، قوم من قبلكم فأجيبوا ، ثم لم يعملوا ، فأصبحوا بها كافرين ، لأنهم استثقلوا الإجابة عما سألوا عنه، وتركوا العمل بما تطلعوا إلى معرفته .

قال الآلوسى : «واختلف فى تعيين القوم : فعن ابن عباس هم قوم عيسى سألوه إنزال مائدة ثم كفروا بها ، وقيل : هم قوم صالح – عليه السلام – سألوه الناقة ثم عقروها وكفروا بها ، وقيل : هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم ...»

من تفسير ابن كثير :

قال ابن كثير : ظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته فالأولى الإعراض عنها ..

فقد روى الإمام أحمد ومسلم والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه» [٢٧] .

وروى الدار قطنى وأبو نعيم عن أبى ثعلبة الخشنى . أن النبى ﷺ قال :

«إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودًا فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تقربوها ، وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» [٢٨] .

من تفسير القاسمى :

قال القاسمى : رحمه الله تعالى عقب تفسيره للآيتين ما يأتى : رأيت فى موافقات الإمام الشاطبى فى هذا الموضع مبحثًا جليلاً قال فيه :

الإكثار من الأسئلة مذموم ، والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح ... وهذه مواضع يكره السؤال فيها :

١ – السؤال عما لا يقع فى الدّين ، كسؤال عبد الله بن حذافة من أبى يا رسول الله ؟ فأجابه أبوك حذافة .

٢ – أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها ، كما جاء فى سنن أبى داود فى النهى عن الأغلوطات (٢٩) وهى المسائل يغالط بها العلماء ليزلّوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنة .

٣ – أن يبلغ بالسؤال إلى حدّ التكلف والتعمق ، وعلى ذلك يدلّ ما أخرجه مالك فى الموطأ عن يحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج فى ركب ، فيهم عمرو بن العاص ، حتى وردوا حوضًا ، فقال عمرو بن العاص ، يا صاحب الحوض ، هل ترد حوضك السباع ؟

فقال عمر يا صاحب الحوض ، لا تخبرنا ، فإنا نرد على السباع وترد علينا (٣٠) .

٤ – السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ . وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عرضًا للخصومات أسرع التنقل .

٥ – السؤال عما شجر بين السلف الصالح ، وقد سئل عمر ابن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كفّ الله عنها يدى ، فلا أحبّ أن ألطخ بها لسانى .

٦ – سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة عند الخصام وقد ذم القرآن هذا اللون من الناس فقال: وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . (البقرة : ٢٠٤) ، وقال سبحانه : بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . (الزخرف : ٥٨) . وفى الحديث : «إن من أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدّ الخصم .

هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها ويقاس عليها ما سواها وليس النهى فيها واحدًا، بل فيها ما تشتد كراهته ، ومنها ما يخف ومنها ما يحرم ، ومنها ما يكون محلّ اجتهاد .

والنهى فى الآية مقيد بما لا تدعو إليه الحاجة من الأسئلة لأن الأمر الذى تدعو إليه الحاجة قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ . (الأنبياء : ٧) . وفى الحديث : «قاتلهم الله، هلاّ سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء الجهل بالسؤال (٣١) .

★ ★ ★

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ
ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

المفردات :

بحيرة : البحيرة ؛ هي الناقة التي يبحرون أذنها . أي يشقُّونها إذا أنتجت خمسة أبطن ، خامسها أنثى.

سائبة : السائبة ؛ هي الناقة التي تُسيَّبُ بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ولا يحمل عليها شيء ، ولا يُجزُ وبرها ، ولا يُحْلَبُ لَبَنُها إلا لضيف .

وصيلة : الوصيلة هي الشاة التي تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكرًا : كان لآلهتهم . وإذا ولدت أُنثى : كانت لهم ، وإن ولدت ذكرًا وأُنثى قالوا : وصلت أَخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

حام : الحامي : هو الفحل يولد من ظهره عشرة أَبطن ، فيقولون : حَمَى ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماءٍ ولا مرعى .

التفسير :

١٠٣ – مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ .

١ – **البحيرة** : الناقة كان أهل الجاهلية يبحرون أذنها ، أي يشقُّونها، ويجعلون لبنها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس ، وجعل شق أذنها علامة لذلك .

٢ – **السائبة** : الناقة تسيَّب . أو البعير يسيب بنذر على الرجل : يقول إن شفيت من مرضى أو بلغت منزلى فناقتى سائبة أى لا تحلب ولا تركب ، ولا تحبس عن رعى ولا ماء .

٣ – **الوصيلة** : هى الشاة التى تصل أخاها ، فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكرًا كان لآلهتهم ، وإذا ولدت أنثى كانت لهم وإن ولدت ذكرًا وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

٤ – **الحامى** : هو الفحل إذا نُتج من صلبه عشرة ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يُركب ولا يمنع من كلأ ولا ماءٍ .

والمعنى : ما شرع الله تعالى شيئًا مما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم فى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام وهذه الحيوانات إنما حرم أهل الجاهلية أكلها والانتفاع بها من عند أنفسهم بدون علم أو برهان .

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ . حيث حرموا هذه الأشياء تدينًا وتعبدًا ولم يحرمها الله عليهم ، ثم نسبوا هذا التحريم إلى الله كذبًا وزورًا والمراد بالذين كفروا هنا هم الرؤساء والزعماء الذين يأتون للعوام بالأحكام الفاسدة . والمزاعم الباطلة وينسبونها إلى دين الله كذبًا وزورًا .

وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ . أن ذلك افتراء ، لأنه قلدوا فيه آباءهم .

والمراد هنا العوام والدهماء الذى يقلدون الرؤساء والكهان بدون تدبر أو تبصّر .

وقد عبر سبحانه بقوله : وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ : إنصافًا للقلة العاقلة التى خالفت هذه الأوهام الباطلة واستجابت للحق عند ظهوره .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «إن أوّل من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن لحى وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار» [٣٢] .

١٠٤- وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا . أى : إذا نصحهم الرسول والمؤمنون والدعاة والهداة باتباع كتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ قالوا : لن نؤمن بالقرآن ولا بالرسول ويكفينا ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وتقاليد وعادات ... فلا نلتفت إلى ما سواه .

أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ . وهذا ردّ عليهم بأسلوب التأنيب والتعجيب من جهالاتهم وخضوعهم للباطل بدون مراجعة أو تفكير . والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ .

والمعنى : أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، ويغلقون على أنفسهم باب الهداية ، ليبقوا فى ظلمات الضلالة ... أولَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنَ الحَق وَلاَ يهتدون إليه لانطماس بصيرتهم .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾

التفسير:

١٠٥ – يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ... الآية .

المعنى : الزموا أنفسكم واحفظوها ، لا يضركم ضلال من ضلّ من الناس ، إذا اهتديتم للحق أنتم فى أنفسكم ، وقد دلت الآيات القرآنية ، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجوبًا متحتمًا ، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أولا يظن التأثير بحال من الأحوال ، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما ضره ضررا يسوغ معه الترك [٣٣] .

وإذا تأملنا سياق الآية وجدنا أنها مسوقة لتسلية المؤمنين ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم إذا لم يجدوا أذنًا صاغية لدعوتهم .

فكأنها تقول لهم : إنكم – أيها المؤمنون – إذا قمتم بما يجب عليكم ، لا يضركم غيركم .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف : كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتوّ والعناد من الكفرة : يتمنون دخولهم فى الإسلام فقيل لهم : (عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ) وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها فى طريق الهدى (لَا يَضُرُّكُم) الضلال عن دينكم : إذا كنتم مهتدين .. وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما لا يكون مهتديًا ، وإنما هو بعض الضلال ، الذين فصلت الآية بينهم وبينه .

وقد نقل القرطبى فى تفسيره ما يأتى :

روى أبو داود والترمذى وغيرهما عن قيس بن أبى حازم قال : خطبنا أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – فقال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ... الآية . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أو شك أن يعمهم الله بعذاب من عنده» [٣٤] .

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له كيف تصنع بهذه الآية ؟ فقال : أية آية ؟ فقلت قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ... قال:

أما والله لقد سألت عنها جبيرا، سألت عنها رسول الله ﷺ – فقال : ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوى متبعًا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة، فإن من ورائكم أيامًا : الصابر فيهنّ، مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم (٣٥).

وزاد فى رواية أخرى «قيل يا رسول الله، أجر خمسين منّا أو منهم؟» قال : (بل أجر خمسين منكم).

والخلاصة : أن الآية الكريمة لا ترخص فى ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يسقط وجوبها عن القادر عليهما.

قال تعالى : كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَتَنْهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ ... الآية. (آل عمران : ١١٠).

وقال سبحانه : وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعروفِ وَيَنهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفلِحُونَ.. (آل عمران : ١٠٤).

وقد لعن الله اليهود، لأنهم : كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ... الآية. (المائدة : ٧٩).

ونقل الفخر الرازى فى تفسيره عن عبد الله بن المبارك أنه قال :

هذه أوكد آية فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإنه سبحانه قال : عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُم يعنى أهل دينكم، ولا يضركم من ضل من الكفار، وهذا كقوله، فاقتلوا أنفسكم، يعنى أهل دينكم، فقوله (عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُم) يعنى أن يعظ بعضكم بعضا، ويرغب بعضكم بعضًا فى الخيرات، وينفره من القبائح والسيئات.

إِلَى اللَّهِ مَرجِعكُم جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتم تَعمَلون . أى إليه وحده رجوعكم جميعًا، من ضل ومن اهتدى، فيخبركم – عند الحساب – بما قدمتم من أعمال، ويجزيكم على حسب ما علمه من هدايتكم أو ضلالكم وفى هذا وعد للمهتدين، ووعيد للضالين، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره قال تعالى : وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... الآية. (فاطر : ١٨).

وقال سبحانه : يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُروا أَعْمالَهُم فَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَن يَعْمل مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ.

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ
تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ
يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ
مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ
وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المفردات :

شهادة بينكم: الشهادة: قول صادر عن علم حصل، بطريق البصر أو السمع، أو بهما جميعا.

إن أنتم ضربتم فى الأرض: أى : سافرتم فيها.

تحبسونهما: أى : تمسكونهما، وتمنعونهما من الانطلاق والهرب.

إن ارتبتم: أى : شككتم فى صدقهما فيما يقران به.

لمن الآثمين: أى : العاصين.

فإن عثر: عثر من العثور على الشيء، وهو: الاطلاع عليه من غير سبق طلب له.
وأعثره عليه: وقفه عليه، فأعلمه به، من حيث لم يكن يتوقع ذلك.

التفسير :

١٠٦ – يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٌ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ... الآية .

لما بين الله تعالى – فى الآية السابقة – أن المرجع إليه وحده بعد الموت، وأنه هو الذى يتولى الحساب، وجزاء المحسن والمسيء، أرشدنا سبحانه – فى هذه الآية – إلى أنه يلزم – فى الوصية قبل الموت – الإشهاد عليها، حفاظاً على أداء الحقوق الموصَّى بها لمستحقيها.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: « خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى ابن بداء، فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم. فلما قدما بتركته، فقدوا جامًا من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ، بالله تعالى: ما كتمتما ولا اطلعتما. ثم وجد الجام بمكة. فقيل اشتريناه من تميم وعدى. فقام رجلان من أولياء السهمى، فحلفا بالله، لشهادتنا أحق من شهادتهما. وإن الجام لصاحبهم.

وفيهم نزلت : يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ[٣٦].

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثنان ذَوَاتِ عَدْلٍ... الآية .

اعلم الله سبحانه المؤمنين : أن الشهادة المشروعة بينهم – حين الوصية – هى شهادة اثنين من أصحاب العدالة والتقوى : يشهدهما الموصى على وصيته، فيتحملان هذه الشهادة، لأدائها عند الحاجة .

(مِنكُمْ) : أى من المؤمنين، وقيل: من أقارب الموصى .

أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ.

أى : من غير المسلمين فكأنه قال: أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين .

إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ .

أى : إن أنتم سافرتم فى الأرض، ونزلت بكم مصيبة الموت، وأردتم الإيصاء. فأشهدوا عَدْلَيْن من أقارب الموصى أو من المؤمنين أو آخرَين من أهل الذمة. أى فأشهدوا عدلين منكم معشر المؤمنين. وقيل عَدْلَيْن من أقارب الموصى. وذلك إذا تَيسر وجودهما. فإن لم يتيسر وجودهما – بسبب السفر مثلا – فيجوز اختيار اثنين من أهل الذمة. وقيل من غير أقارب الموصى له .

تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ .

تمنعونهما من الانصراف للتحليف بعد الصلاة. والمراد بالصلاة التى يُحْبَسَان بعدها، صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس؛ ولأنَّ الحُكَّام كانوا يجلسون للقضاء فى هذا الوقت بين الخصوم.

وقيل: بعد أى صلاة كانت؛ لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق، وناهية عن الكذب لقوله تعالى: «... إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ...». (العنكبوت : ٤٥) .

والمأثور عن النبى ﷺ، أنه حلف عديا وتميما الدارى بعد العصر .

وقد جرى العمل على هذا بين المسلمين .

فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ .

فيقسمان عند ارتياب الورثة وشكِّهم، فإذا لم تكن ريبة. فَيُصَدَّق الشاهدان، لأمانتهما وعدم الارتياب فيهما.

لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى .

أى : لانستبدل بالقَسَمِ بالله عرضًا زائلاً من الدنيا. فلا نحلف بالله كاذبين، ولو كان القسم يحقق مصلحة لبعض الأقارب، طمعًا فى عرض الدنيا.

ولاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ. أى ويقول الحالفان – فى يمينهما – ولا نكتم الشهادة التى أمر الله تعالى بإقامتها. كما قال تعالى: وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ... الآية . (الطلاق : ٢) وكقوله سبحانه:

وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ... الآية . (البقرة : ٢٨٣) .

إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ .

أى: أننا إذا اشترينا بالقسَم ثمنًا. أو راعينا فيه قرابة. بأن كذبنا فى الشهادة – ابتغاء المنفعة لأنفسنا أو لقرابتنا أو كتمنا الشهادة كلها أو بعضها – كنا من الواقعين فى الإثم، المستحقين للعقوبة من الله عليه.

١٠٧ – فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ.

فإن اطلع – بعد القسم – على أن الشاهدين الحالفين استحقا إثما، بسبب الكذب أو الكتمان فى الشهادة، أو الخيانة فى شىء من التركة: التى تحت أيديهما – فعدلان آخران من أقرباء الميت: الذين وجب عليهم أداء الشهادة والقسم.. وهذان الشاهدان هما: الأوليان بالشهادة والقسم. من سائر أقرباء الميت، لقوة قرابتهما من الميت واستحقاقهما فى وصيته. فيحلفان بالله قائلين. لشهادتنا أحق وأولى بالقبول من شهادة الشاهدين الآثمين السابقين. وما تجاوزنا الحق فيما شهدنا به، وأقسمنا عليه .

إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ .

أى : إنا - إذا اعتدينا عليهما، ونسبنا إليهما الباطل، وأقسمنا زورًا وبهتانًا - لنكون حينئذ، من الظالمين لهما بالكذب عليهما، ولأنفسنا بتعريضها لسخط الله وعقابه.

١٠٨ - ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ... الآية .

بيان للحكمة فى مشروعية الشهادة وهذه الأيْمَان.

والمعنى: أن ذلك التشريع الحكيم، الذى شرعناه، أقرب إلى أن يؤدى المؤتمن على الوصية . الشهادة على وجه الحق والعدل، بلا تغيير ولا تبديل، مراقبة لجانب الله، وخوفًا من عقابه .

فإن فى أداء الشاهدين للقَسَم - على مَلإ من الناس بعد الصلاة - ما يبعث الرهبة من الله والخوف من عذابه، والرغبة فى مثوبته وعظيم أجره .

والذى لا يرتقى إلى هذه المرتبة - من مخافة الله ومراقبته - فإنه - قطعًا - يخاف الافتضاح والتشهير به، برد اليمين على الورثة الأقربين، حيث يقوم بالشهادة والحلف الأوليان، والأحقَّان بوصية الموصى .

وفى ذلك من الخزى والفضيحة ، ما فيه .

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا .

أى : واتقوا الله تعالى - وراقبوه واسمعوا، وأَطيعوا، واحذروا أن تحلفوا كاذبين فى أيمانكم، أو أن تخونوا فى الأمانات التى تحت أيديكم . فإن لم تتقوا - ولم تسمعوا ما أمرتم به، وما نهيتم عنه - كنتم الفاسقين الخارجين عن طاعة الله .

وَاللَّهُ لاَيَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . إلى سبيل الرشاد .

★ ★ ★

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ
(١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ
كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) ﴾

المفردات :

بـروح القـدس : هو مَلَكُ الوَحْيِ، جبريل عليه السلام.

الكتـاب : الكتب السماوية، أو الكتابة.

والحكمة : العلم الصحيح الذى يبعث الإنسان على إصابة الحق؛ فى الرأى والقول والعمل.

والتوراة : الكتاب الذى أنزله الله على موسى، أساسًا لشريعته. ولا يسمى به إلا الذى كان قبل التحريف. فما يتداوله اليهود الآن، يحرم تسميته التوراة.

والإنجيل : الكتاب الذى أنزله الله على عيسى: أساسًا لشريعته. وينطبق عليه ما انطبق على التوراة فى التسمية.

تخلق : تُصَوِّر.

الأكمه : من ولد أعمى.

والأبرص : المريض ببياض الجلد. والبرص: مرض جلدى يُغَيِّر لون البشرة إلى البياض.

سحر مبين : السحر؛ تمويه وتخييل. به يرى الإنسان الشىء على غير حقيقته.

التفسير:

١٠٩ – يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ... الآية .

تمهيد:

ذكر الله تعالى فيما سبق الدعوة إلى إقامة الشهادة على وجهها، وحذر من شهادة الزور، وأمر بتقوى الله ثم عقب على ذلك بذكر أهوال القيامة

قال الفخر الرازى : اعلم أن عادة الله – تعالى – جارية فى هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعًا كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام، أتبعها إمّا بالإلهيات، وإما بشرح أحوال الأنبياء أو بشرح أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكدًا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع، وهنا لما ذكر فيما سبق أنواعًا كثيرة من الشرائع أتبعها بذكر أحوال القيامة.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ... الآية .

بمعنى: اذكر أيها المكلف ذلك اليوم الهائل الشديد، يوم يجمع الله الرسل الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام، فى شتى الأمكنة والأزمان، فيقول لهم: ماذا أجبتم من أقوامكم ؟

أى : ما الإجابة التى أجابكم بها أقوامكم ؟

أهى إجابة قبول ؟ أم إجابة رفض وإباء.

وبما أن الله تعالى يعلم جواب الأمم لرسلهم فالمقصود من السؤال توبيخ قومهم، كما كان سؤال الموءودة توبيخًا للوائد .

قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ علاَّمُ الْغُيُوبِ.

أى لا علم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكلّ شىء، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به أقوامنا. إلا أن علمنا لايتعدى الظواهر، أما علمك أنت يا ربنا فشامل للظواهر والبواطن.

وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم.

(وقيل معناه: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة[٣٧])

١١٠ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... الآية .

يستمر هذا الدرس فى بيان حقيقة الألوهية، ويستعرض ذلك فى مشهد من مشاهد القيامة ويذكر عيسى هنا حيث أن الناس قد أسرفوا فى القول حوله.

قال صاحب الظلال:

يلتفت الخطاب إلى عيسى ابن مريم على الملإ ممن ألهوه وعبدوه وصاغوا حوله وحول أمه مريم التهاويل يلتفت إليه يذكِّره نعمة الله عليه، وعلى والدته، ويستعرض المعجزات التى آتاه الله إياها، ليصدق الناس برسالته (٣٨) .

وقال ابن كثير قوله : اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ. أى فى خلقى إياك من أمٍّ بلا ذكر، وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى . وَعَلَى والِدَتِكَ. حيث جعلتك لها برهانًا على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة . إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ. وهو جبريل، وجعلتك نبيًا داعيًا إلى الله فى صغرك، وكبرك، فأنطقتك فى المهد صغيرًا فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لى بالعبودية.

تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً. أى تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك، وضمن تكلم معنى تدعو، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب (٣٩) .

وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده فى المهد بالنطق السليم ويؤيده فى الكهولة بالتثبيت.

وقيل المراد بروح القدس روح عيسى حيث أيده سبحانه بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية وسيطرت.

وإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإِنجِيلَ .

يبين الحق سبحانه عددًا من النعم على عيسى فقد جاء إلى الأرض لا يعلم شيئًا فعلمه الكتابة، أى أن عيسى لم يكن أميًا، بل كان قارئًا وكاتبًا، وقيل المراد به ما سبقه من كتب النبيين كزبور داود وصحف إبراهيم، أى جنس الكتاب فيشمل الكتب السابقة لأنها جميعا متفقة فى أصول الشريعة.

وعلمتك . الْحِكْمَةَ. أى سداد الرأى، وإصابة الحق، وفهم أسرار العلوم.

والتَّوْرَاةَ. التى أنزلتها على موسى.

والإِنجِيلَ. الذى أنزلته عليك لتكتمل بهما رسالتك.

وخصهما بالذكر، لأنهما أهم الكتب التى أنزلها الله على أنبياء بنى إسرائيل، ومنهما تؤخذ شريعة عيسى . وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي.

وهذه معجزة خارقة للعادة لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله فكان عيسى عليه السلام يصوّر من الطين مثل صورة الطير بأمر الله وتيسيره، ثم ينفخ فى هذه الصورة فتكون طيرًا حقيقيًا بتيسير الله. ليكون ذلك آية تدل على صدقه.

وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي.

وتذكر يا عيسى نعمتى عليك، حين تبرئ الأكمة – وهو من ولد أعمى – فتمنحه الإبصار بإذن الله وتيسيره.

وتبرئ (الأبرص) وهو المريض بهذا المرض العضال . بِإِذْنِي. وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي.

واذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون.. وكل ذلك بإذنى ومشيئتى وإرادتى وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياء الموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه: يا حى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح [٤٠] .

وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ.

من الله على عيسى بالعديد من النعم، وهنا ذكّره بنعمته وقت أن صرف عنه أذى اليهود حين جاءهم بالمعجزات الواضحات سواء ما ذكر منها هنا، أم فى موضع آخر، كإخبارهم بما يأكلون وما يدّخرون فى بيوتهم، فقال الكافرون منهم، ما هذا الذى جئت به إلا سحر بين واضح.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

المفردات:

الحــــواريـــــين : واحدهم حوارى، وهو: من أخلص سرا وجهرا فى مودتك.

وحواريوا الأنبياء: المخلصون لهم.

التفسير:

١١١ - وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى ... الآية .

ذكر الله تعالى نعماءه على عيسى وأمه، وإن كانت معظم النعم خاصة بعيسى إلا أن الارتباط كامل بين الإبن وأمه فكل نعمة على الإبن هى نعمة على الأم.

والحواريون هم المخلصون فى العبادة أو الذين أخلصوا قلوبهم لله، والحور العين، خالصة البياض، والحوراء شديدة بياض العين، مع شدة سواد العين، وحوارى الرجل خلصاؤه ومنه قول النبى ﷺ فى الزبير بن العوام: لكل نبى حوارىّ وحوارىّ الزبير.

والمراد بالوحى هنا الإلهام أى ألهمو ذلك فامتثلوا ما ألهموا أو أمرتهم بذلك فى الإنجيل على لسانك .

والمعنى: اذكر نعمتى عليك - يا عيسى - حين أوحيت إلى الحواريين بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك وقلت لهم:



أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى.

أى آمنوا بأنى أنا الواحد المستحق للعبادة وبرسولى عيسى بأنه مرسل من جهتى قالوا آمنا بالله وبرسوله وأشهد بأننا مخلصون وقد عدد الله على عيسى سبعًا من النعم «إذ أيدتك.. وإذ علمتك.. وإذ تخلق.. وإذ تبرئ.. وإذ تخرج الموتى.. وإذ كففت.. وإذ أوحيت»[٤١]

وإنما ذكر الله تعالى قوله: وَإِذْ أَوْحَيْتُ. فى معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبولاً عند الناس محبوبًا فى قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان.

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا
وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى
ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً
مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ
أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات:

هل يستطيع ربك: هل يستجيب ربك.

مائدة: المائدة: الخوان الذى عليه الطعام، أو الطعام نفسه.

تكون لنا عيدا: العيد: السرور، أو موسم السرور.

وآية منك: أى علامة على صدقى فى دعوتى ونبوّتى.

التفسير:

١١٢ – **إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ ... الآية .**

المعنى: واذكر أيها المتأمل، حين قال الحواريون: يا عيسى ابن مريم، هل يستجيب لك ربك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء.

وقد اختلفت التأويلات فى قولهم **هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**.؟

فقيل إن الاستفهام هنا على المجاز لأن الحواريين كانوا مؤمنين، ولا يعقل من مؤمن أن يشك فى قدرة الله .

فقيل: إن معنى **يَسْتَطِيع** يطيع، والسين زائدة كاستجاب بمعنى أجاب.

أى أن معنى الجملة الكريمة: هل يطيعك – ربك يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء، وقيل إن المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، ويؤيد ذلك قراءة

هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّك. بالتاء ويفتح الباء فى ربك قال معاذ: أقرأنا النبى ﷺ هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّك. وقال معاذ أيضاً: وسمعت النبى ﷺ مرارًا يقرأ بالتاء(٤٢).

قَالَ اتَّقُواْ اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. أى اتقوا الله وقفوا عند حدوده، واملئوا قلوبكم خشية وهيبة منه، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فإن المؤمن الصادق فى إيمانه يبتعد عن طلب الخوارق، ولا يقترح على الله.

١١٣ - قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ.

شرح الحواريون أسباب طلبهم للمائدة، فهم لم يسألوا ذلك تعنتًا. ولا شكًا فى قدرة الله أو نبوّة عيسى.

وإنما طلبوا نزول المائدة لأربعة أسباب:

١ - الأكل منها فتنالهم بركة السماء حين يأكلون من طعام فريد لانظير له عند أهل الأرض.

٢ - زيادة اليقين والاطمئنان حين يرون هذه الخارقة أمامهم ويذكرنا ذلك بدعاء إبراهيم لربه أن يشاهد كيفية إحياء الموتى حتى يطمئن قلبه، قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... الآية . (البقرة : ٢٦٠) .

٣ - العلم بأن عيسى قد صدقهم فى دعوى النبوّة والرسالة.

٤ - ليكونوا شهودًا لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة.

١١٤ - قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

والمعنى : تضرع عيسى إلى الله ربه وخالقه أن ينزل عليهم مائدة من السماء فيها طعام يكفيهم جميعًا من أولهم إلى آخرهم، ويكون أيضًا يوم نزولها عيدًا وسرورًا وبهجة لمن سيأتى بعدنا ممن لم يشاهدها.

وآيَةً مِّنك : واجعلها علامة من لدنك، ترشد القوم إلى صحة نبوءتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك.

وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. وهذا تذييل بمثابة التعليل لما قبله، أى أنزلها علينا يا ربنا وارزقنا من عندك رزقًا هنيئًا رغدًا، فإنك خير الرازقين وخير المعطين، وكل عطاء من غيرك لا يغنى ولا يشبع.

١١٥ – قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ.

استجاب الحق سبحانه وتعالى لدعاء عيسى عليه السلام، ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة، واستجاب الله تعالى على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابًا شديدًا بالغًا فى شدته لا يعذبه أحدًا من العالمين فقد مضت سنة الله تعالى من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة، حيث لا عذر لمن يرى الآيات تترى فى الرسول ثم يطلب معجزة على النحو الذى اقترحه، فيجاب لها، ثم بعد ذلك يكفر، ونحن نثق بأن الأمر كان معجزة فى حد ذاتها فنزلت مائدة من السماء عليها طعام كثير يكفى جميع الموجودين.

أما صفة المائدة، وأنواع طعامها، فلم يجئ فيها دليل يعول عليه .

قال ابن جرير الطبرى : «وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون هذا المأكول سمكًا وخبزًا، وجائز أن يكون من ثمار الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تَالِيَ الآية بظاهر ما احتمله التنزيل[٤٣].

وهذه القصة لم ترد فى الأناجيل الموجودة فى أيدينا، والقرآن الكريم قد بين كثيرًا مما أخفاه أهل الكتاب، أو ضاع منهم علمه بسبب ما، والقرآن مهيمن على هذه الكتب السابقة ومتمم لها. وبعض القصص ورد فى القرآن ولم يرد فى التوراة أو الأناجيل، لأن التحريف قد دخل فى التوراة والأناجيل ولم يدخل فى القرآن الكريم .

قال تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . (المائدة : ١٥) .

وقد ورد فى كتب التفسير وصف للمائدة وأنواع الطعام التى نزلت، مثل ما روى أن الملائكة نزلت بالمائدة عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم[٤٤].

قال ابن كثير : وهذه أخبار أسانيدها ضعيفة ولاتخلو عن غرابة ونكارة[٤٥].

هل نزلت المائدة بالفعل ؟

تفيد الآيات القرآنية أن الحواريين قد طلبوا من عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأن عيسى قد دعا ربّه فعلاً أن ينزلها.

لكن هل نزلت المائدة بالفعل ؟

يرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل، فقد روى ابن جرير بسنده عن قتادة قال: كان الحسن يقول:

لما قيل لهم: فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُم قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل.

والجمهور يرون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك فى قوله إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ.

وروح الآيات القرآنية تؤيد رأى الجمهور وكذلك الآثار التى وردت ترجح رأى الجمهور.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

المفردات:

سبحانك: أى تنزيها لك عما لا يليق بك .

وكنت عليهم شهيدا: أى رقيبا، أو شاهدًا لأحوالهم من كفر وإيمان .

فلما توفيتنى: التوفى؛ أخذ الشىء وافيا كاملا، ومنه الموت؛ لأن الميت استوفى أجله .

الرقيب: المطلع على أحوالهم .

التفسير:

١١٦ – وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ... الآية .

يعنى : اذكر يا محمد يوم القيامة، يوم يقول الله تعالى هذا القول لعيسى ابن مريم : وقيل بل هذا قولٌ قاله الله لعيسى عند رفعه إلى السماء، لمَّا قالت النصارى فيه ما قالت .

وإنما يسأله الله تعالى عن هذا القول وهو يعلم أنه لم يقله، توبيخًا للنصارى وقطعًا لحجتهم، وقيل : يقوله أيضًا لقصد تعريف المسيح عليه السلام بأن قومه قد غيَّروا بعده وقالوا عليه ما لم يقُلْهُ، من اتخاذه ربًّا من دون الله، وعبادته وأمّه من دون الله ، مع أن الله سبحانه ما بعثه إليهم إلا ليعبدوا الله وحده .

وقد نعى الله على الذين اتخذوا المسيح إلهًا فى مواضع عدّة من هذه السورة .

وعبادة أمّه كانت معروفة فى الكنائس الشرقية والغربية وسمى الذين عبدوها (المَرْيميُّون)... وهذه العبادة منها :

ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود.

ومنها : ما هو استغاثة، واستشفاع.

ومنها : ما هو صيام ينسب إليها، ويسمى صيام العذراء.

وكل ذلك يقترن بخضوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها، وأنَّها تنفع وتضرّ فى الدنيا والآخرة، إمّا بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمّونها: (والدة الإله).

قَالَ سُبْحَانَكَ. أى أنزهك تنزيهًا عن أن يكون معك إله آخر.

مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ . أى ما ينبغى لى أن أدَّعى لنفسى ما ليس من حقها، فأنا مربوب ولست برب، وعابد ولست بمعبود، ثم ردّ العلم كلّه إلى الله حيث قال: إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . أى : إن كنت قلت هذا القول وهو: اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ . فأنت تعلمه ولا يخفى عليك منه شيء، لأنك أنت – يا إلهى – تعلم ما فى نفسى أى ما فى ذاتى ولا أعلم ما فى ذاتك .

والمراد : تعلم ما أعلم، ولا أعلم ما تعلم، وتعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك، وتعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وتفعل .

إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ . أى إنك أنت المحيط بجميع الغيوب لا يخفى عليك شيء منها، فى الأرض ولا فى السماء ومن كان كذلك، فلا تخفى عليه براءتى .

١١٧ – مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ. أى ما أمرتهم إلاّ بما أمرتنى أن أبلغهم إياه وهو عبادتك وحدك لا شريك لك فأنت ربِّى وربهم، وأنت الذى خلقتنى وخلقتهم، فيجب أن ندين لك جميعًا بالعبادة والخضوع والطاعة .

وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ . أى : وكنت مراقبًا لأحوالهم، مرشدا لهم مدة بقائى بينهم .

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ . أى فلما رفعتنى إليك حيًا إلى السماء بعد أن توفيتنى من حياة الأرض، كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم .

وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيدٌ. لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك .

ومذهب الجمهور : هو أن عيسى ابن مريم رفع إلى السماء حيًا وهو باق على الحياة التى كان عليها فى الدنيا حتى ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان .

وقال صاحب الظلال : وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه، قد توفى عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه وبعض الآثار تفيد أنه حى عند الله، وليس هنالك – فيما أرى – أى تعارض يثير أى استشكال بيد أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حيًا عنده، فالشهداء كذلك يموتون فى الأرض وهم أحياء عند الله، أمّا صورة حياتهم عنده فنحن لا ندرى لها كيفًا، وكذلك صورة حياة عيسى – عليه السلام – وهو هنا يقول لربه: إننى لا أدرى ماذا كان منهم بعد وفاتى.

ومن الباحثين من يرى أن معنى: فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي. أى: أمتنى وزعموا أنَ رفعه إلى السماء كان بعد موته.

وذهب غيرهم إلى معنى: فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي. أى وفيتنى أجرى كاملاً أو أخذتنى وافيا بالرفع إلى السماء حيا، إنجاء لى مما دبروه من قتلى من التوفى وهو أخذ الشىء وافيا أى كاملاً، وقد جاء التوفى بهذا المعنى فى قوله تعالى: يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ. «ولا يصح أن يحمل التوفى على الإماتة، لأن إماتة عيسى فى وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها، ورفعه إلى السماء جثة هامدة، سخف من القول، وقد نزه الله السماء أن تكون قبورًا لجثث الموتى، وإن كان الرفع بالروح فقط، فأىّ مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة، فالحق أنه – عليه السلام – رفع إلى السماء حيا بجسده وروحه وقد جعله الله آية والله على كل شىء قدير» [٤٦].

وقد دلت الآية الكريمة على أن الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوى، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم وقد روى البخارى عن ابن عباس قال :

خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا – أى غير مختونين – ثم قرأ : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ. ثم قال: ألا وإن أوّل الخلائق يكسى

يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح، وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ. فيقال لى: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[٤٧].

١١٨ - إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. فوض عيسى عليه السلام الأمر إلى الله فى هذا الموقف الرهيب، أى إن تعذب يا إلهى قومى فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم بقدرتك. وإن تَغْفِرْ لَهُمْ. أى وإن تغفر لمن أقلع منهم وآمن، فذلك تفضل منك، وأنت فى مغفرتك لهم عزيز لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم فى جميع أفعالك.

وهذا القول من عيسى قاله على سبيل الاستعطاف، وفى هذا القول تبرؤ من القدرة على الحكم فى أمته يوم القيامة، بل الحكم فيهم إلى الله وحده.

قال ابن الأنبارى: معنى الكلام: لا ينبغى لأحد أن يعترض عليك، فإن عذبتهم، فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم - ولست فاعلا إذا ماتوا على الكفر - فلا اعتراض عليك وقال غيره: العفو لا ينقص عزّك، ولا يخرج عن حكمك[٤٨].

★ ★ ★

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾

التفسير:

١١٩ - قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. فى هذا الموقف العظيم يتبرأ عيسى ممن اتخذه إلها، ويفوّض الأمر إلى الله تعالى.

وفى هذا المشهد نجد قول الحق سبحانه إن هذا اليوم يوم الجزاء يوم يأخذ الصادق فى الدنيا جزاء صدقه بنعيم لا يحد فى جنة تجرى من تحتها الأنهار. هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُم. إنها كلمة رب العالمين فى ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين وهى الكلمة الأخيرة فى المشهد.

جاء فى التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى:

والمراد باليوم فى قوله: هَٰذَا يَوْمُ ... يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت، وقد قرأ الجمهور برفع يَوْمُ من غير تنوين على أنه خبر لاسم الإشارة، أى قال الله تعالى، إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينتفع الصادقون فيه بصدقهم فى إيمانهم وأعمالهم، لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدّموا من خيرات فى ديناهم.

أى إن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة [٤٩].

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أى إن لهم هذا النعيم الجثمانى فى الجنات، وما يتبعها من عيشة هنية، ولهم نعيم روحانى متمثل فى تكريم الله لهم ورضاه عنهم ورضاهم عنه بما جازاهم به مما لم يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم.

ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أى ذلك الانتفاع الحسىّ والمعنوى هو الظفر بالمطلوب على أتمِّ الأحوال.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب، وحقيقة الثواب: أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ. إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله: خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا. إشارة إلى الدوام واعتبر هذه الدقيقة: فإنه أينما ذكر الثواب قال: خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا . وأينما ذكر العقاب للفسَّاق من أهل الإيمان، ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأبيد، وأمّا قوله: رضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ . فتحته أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها، جعلنا الله من أهلها [٥٠].

١٢٠ - لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ. يأتى ختام هذه السورة متناسقًا مع موضوعاتها معلقًا على تلك القضية الكبرى التى زعمت لله ولدًا ومع ذلك المشهد العظيم الذى يتفرد الله فيه بالعمل ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل ويفوضون إليه الأمر كله، ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم.

جاء فى فتح القدير للإمام الشوكانى:

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . دون عيسى وأمّه وسائر من ادُّعيت لهم الربوبية، ودون سائر مخلوقات الله تعالى .

وَمَا فِيهِن. أى من جميع الخلائق كلهم ملك لله تعالى، فليس له ولد ولا والد.

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أي فلن يحتاج منهم إلى نصير ينصره.

وهذه الآية مسك الختام لهذه السورة الكريمة التى اشتملت على كثير من التشريعات التى تتعلق بالحلال والحرام، وبالعبادات والحدود والقصاص والأيمان، كما اشتملت على أمور تتعلق بأهل الكتاب، فذكرت حكم أطعمتهم وحكم زواج المحصنات من نسائهم، كما ذكرت أقوالهم الباطلة فى شأن عيسى وأمّه وردت على مزاعمهم وفندت أقوالهم بالحجة البالغة ولا عجب فالقرآن كتاب: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. (فصلت ٤٢).

تم تفسير سورة المائدة، ويتبعه تفسير سورة الأنعام إن شاء الله تعالى.

(اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)،

اللهم وفق وأعن وتقبل، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الخميس ٩ رمضان ١٤١٠ هـ الموافق ٥ / ٤ / ١٩٩٠ م

بسلطنة عمان بجامعة السلطان قابوس.

★ ★ ★


تفسير سورة الأنعام

دروس من سورة الأنعام

١ - كيف أنزلت ؟

سورة الأنعام سورة مكية وهى أول سورة مكية فى ترتيب المصحف فسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة كلها سور مدنية أما سورة الأنعام فهى أول سورة مكية، توضع فى السبع الطوال من سور القرآن الكريم.

وقد جاءت عدة روايات تذكر فضل سورة الأنعام وتبين أنها نزلت جملة واحدة مشيعة بالملائكة.

قال الإمام الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب» :

«إن هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة . أحدهما : أنه نزلت دفعة واحدة والثانى : أنها شيعها ألفا من الملائكة والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين».

ويقول القرطبى:

قال العلماء: هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين.

وعدد آيات سورة الأنعام (١٦٥) آية وعدد كلمتها (٣٠٥٣) كلمة.

٢ - لم سميت بسورة الأنعام :

سميت هذه السورة بسورة الأنعام، والأنعام ذوات الخف والظلف: وهى الإبل والبقر والغنم بجيمع أنواعها، لأنها هى السورة التى عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد فى غيرها من السور، فقد ورد ذكر الأنعام فى مواضع كثيرة من القرآن عرضا، أما سورة الأنعام، فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام، استغرق خمس عشرة آية، من أول الآية ١٣٦ إلى آخر الآية ١٥٠. وقد تناول الحديث عن الأنعام فى هذه الآيات من السورة جوانب متعددة، تتصل بعقائد المشركين فبينت السورة ما فى عقائدهم من الخلل والفساد، إذ كانوا يحرمون بعض الأنعام على أنفسهم، ويجعلون قسمًا من الأنعام لآلهتم وأصنامهم: وقسمًا لله، ثم يجورون على القسم الذى جعلوه لله فيأخذون منه لأصنامهم.

٣ - تاريخ نزول السورة :

نزلت سورة الأنعام فى السنة الرابعة من البعثة المحمدية، أى عقب أمر النبى ﷺ أن يصدع بالدعوة ويعلنها للناس بعد أن أسر بها ثلاث سنين.

وتميزت الفترة التى نزلت فيها سورة الأنعام بقسوة المشركين وعنفهم فى مقاومة الدعوة الإسلامية وإنكارها، فقد بدأت الدعوة سرا ثم جهر النبى بدعوته فى مكة، ونزلت سورة الأنعام بعد الجهر بالدعوة بسنة واحدة، فاستعرضت الأدلة على توحيد الله وقدرته ثم ساقت أدلة المشركين وشبههم فأبطلتها وفندتها .

وقد أخذ المشركون بالنجاح الذى صارت عليه دعوة الإسلام حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء، وأن تتحدى فى صوت عال ونداء جهير، بعد أن كان المؤمنون بها يلجئون إلى الشعاب والأماكن البعيدة ليؤدّوا صلاتهم، ورأى المشركون أن محمدا ماض فى إعلان دعوته وتلاوة ما أنزل عليه من الكتاب، وفيه إنذار لهم وتفنيد لمعتقداتهم وتسفيه لآرائهم، وإنكار لآلهتم، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية، فكان منهم من يستمع للقرآن متأثرًا بقوته أو متذوقا لبلاغته، ومنهم من يبعد عنه خوفًا منه . يومئذ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدية، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين، يشعرون فى أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم، ويترقبون يومًا قريبًا لانتصارها وانهزامهم، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة، وبادعائهم كذب الرسول، وبزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئا لأنزل إليهم الملائكة، وأنكر كفار مكة البعث والدار الآخرة، واستماتوا فى الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم، ونسوا أن محمدًا عاش فيهم عمرًا طويلاً لم يقل فيهم يوما قولة كاذبة، ولم يخن فيهم يوما أمانة اؤتمن عليها، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

ولكنهم فكروا فقط فى أن الدعوة الجديدة يجب أن تموت فى مهدها، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب.

ووجهت الدعوة الإسلامية بهذا النضال وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله، وكانت سورة الأنعام مثالا لتحقيق هذه الدعوة الإسلامية فى هذه الفترة. فقد جمعت كل العقائد الصحيحة، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شبه الملحدين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتركيز مبادئ الأخلاق الفاضلة.

٤ - مميزات الملكى والمدنى :

وضع العلماء ضوابط تميز السور المكية من المدنية، واستنبطوا خصائص الأسلوب والموضوعات التى تناولتها كل مجموعة منها.

فمن خصائص السور المكية ما يأتى :

١ – الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة وإثبات البعث والجزاء وذكر القيامة وهولها والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية.

٢ – وضع الأسس العامة للفضائل الأخلاقية التى يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء. وأكل أموال اليتامى ظلمًا، ووأد البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣ – ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجرًا للكافرين حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن على الانتصار عليهم.

٤ – قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يُصِخُّ الآذان ويشتد قرعه على المسامع، وينبه القلوب ويحرك الأفئدة.

ومن خصائص السور المدنية ما يأتى :

١ – بيان العبادات والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب وقواعد الحكم ومسائل التشريع.

٢ – مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى السلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنِّيهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم.

٣ – الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤ – طول المقاطع والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها.

٥ - خصائص السور المكية واضحة فى سورة الأنعام :

«سورة الأنعام مثل كامل للخصائص المكية، إنها حشد من الصور الفنية العجيبة واللمسات الوجدانية الموحية، والمنطق الطبيعى الحى .. وهى كلها من أولها إلى آخرها تنبض بإيقاع واحد، وتترقرق بماء واحد وتفيض بينبوع زاخر متدفق»[٥١].

«إن موضوعها الذى تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة، بكل مقوماتها وبكل مكوناتها، وهى تأخذ بمجامع النفس البشرية وتطوف بها فى الوجود كله، وراء ينابيع الحقيقة وموحياتها المستترة والظاهرة فى هذا الوجود الكبير ... إنها تطوف بالنفس البشرية فى ملكوت السماوات والأرض، تلحظ الظلمات فيها والنور، وترقب الشمس والنجوم، وتسرح فى الجنات المعروشة وغير المعروشة، والحياة الباطلة والجارية، وتقف على مصارع الأمم الخالية، وآثارها البائدة والباقية، ثم تسبح مع ظلمات البحر والبر وأسرار الغيب والنفس، والحى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى ومع الحبة المستكنة فى ظلام الأرض، والنطفة المستكنة فى ظلام الرحم. ثم تموج بالجن والأنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين والأحياء والأموات، والحفظة من الملائكة على النفس بالليل والنهار.

إنه الحشد الكونى الذى يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس، وأقطار اللمس وأقطار الخيال.. ثم إنها اللسمات المبدعة المحببة، التى تنتفض المشاهد بعدها والمعانى أحياء تمرح فى النفس والخيال. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض كأنما تتلقاه النفس أول مرة، ولم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان. إلا أنها القدرة المبدعة تتبدى فى صورة من صورها الكثيرة فما يقدر على بث الحياة هكذا فى الصور والمشاعر والمعانى إلا الله الذى بث فى الوجود الحياة»[٥٢].

٦ - الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام :

إن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها هذه السورة الكريمة هى تركيز العقائد الأساسية الثلاث التى كان المشركون يومئذ يتنازعون فيها، وهذه العقائدة الأساسية هى :

أولاً : توحيد الله. ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهية، بلفت النظر إلى آثار الربوبية، وإلى صفات الله الخالق المتصرف، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك، وشبهات المشركين، وتقرير أن العبادة والتوجه والتحريم والتحليل، إنما ترجع إلى الله.

ثانيًا : الإيمان برسوله الذى أرسل، وكتابه الذى أنزل، وبيان وظيفة هذا الرسول ورد الشبهات التى تثار حول الوحى والرسالة.

ثالثًا : الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب وعقاب وجزاء.

وسوف نتناول كل غرض من هذه الأغراض بالتوضيح :

(أ) وحدة الألوهية :

لقد بدأت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين وعلى لسان كل رسول، تلك الحقيقة التى تؤمن بها الفطر السليمة ويدل عليها العالم بأرضه وسمائه. وما فيه من مخلوقات ناطقة

وصامته ظاهرة وخفية، وما فيه من تحولات وتقلبات ونور وظلمات؛ وهذه الحقيقة هى أن الإله الذى له (الحمد) المطلق والتنزيه الذى لا يحد هو الله، لأنه هو الذى «خلق» وهو الذى «جعل»؛ فالخلق إنشاء وإبداع، والجعل تصريف وتقليب، والعالم أجمع فى دائرتيهما؛ فلا ينفك شىء منه عن كلا هذين المظهرين: «خلق» و«جعل» ومقتضى ذلك أن المخلوق المجهول، لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيعبد كما يعبد؛ ويقصد كما يقصد؛ ذلك هو مطلع السورة (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون). وكل ما جاء فى هذه السورة إنما هو بيان وتفصيل؛ أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة أحيانا بصفة مباشرة، وأحيانًا بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا هو المعنى الذى يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد الألوهية استدلالاً بوحدانية الربوبية، وذلك فى القرآن كثير فأول فاتحة الكتاب:

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمِينَ.

وأول الكهف :

الحَمْدُ لِلَّهِ الذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ.

وأول فاطر :

الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَواتِ والأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً.

ولو ذهبنا نتتبع هذا المعنى فأوغلنا فى التتبع، ورأينا الكثير من الآيات فإن هذا هو أصل الأديان كلها وهو الحقيقة الأولى كما تجلى ذلك فى سورة الأنعام. وقد ساقت السورة عددًا من الأدلة على توحيد الله، فهى تلفت النظر إلى مظاهر الملك التام، والسلطان القاهر فى الخلق والتصرف الكامل، والعلم المحيط فتقول :

قُل لِمَنْ مَا فِى السَّمَاواتِ والأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ. (الأنعام ١٢).

وَلهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ والنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ. (الأنعام ١٣).

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى البَرِّ وَالبَحْرِ. (الأنعام ٥٩).

وَهُوَ الذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَا جَرَحتُمْ بالنَّهَارِ. (الأنعام ٦٠).

وهى تلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شىء، لأن هذا النظر لابد أن يثمر الإيمان بالله .

بل تلفت نظر الإنسان إلى نفسه، ليتفكر فى داخله كيف خلق؟ وكيف يفكر وكيف يعيش وكيف يموت ؟

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذى عقل سليم وفطرة صافية وإخلاص فى تطلب الحقيقة من دلائلها المبثوثة فى آفاق السماوات والأرض ولذلك يقول جل شأنه:

سَنُرِيهِم آيَاتِنا فِى الآفَاقِ وفِى أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لهُمْ أَنَّهُ الحَق أَوَ لم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ كُلِّ شىءٍ شَهِيدٌ. (فصلت ٥١)

(ب) قضية الوحى والرسالة:

كما تحدثت سورة الأنعام عن الألوهية والربوبية، ولفتت الناس إلى مظاهرهما فى الخلق والتصرف والتدبير المحكم، تحدثت عن حقيقة ثانية تنبنى على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى: ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدى عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم وتقوم عليه سعادتهم فى دنياهم وأخراهم.

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب لهداية الناس من الضلالة إلى الهدى وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد عنيت سورة الأنعام بهذه الحقيقة، فتحدثت فى كثير من أياتها عن الوحى والرسالة من جوانب شتى، بعضها يتصل بإثبات الوحى وبيان حكمته والرد على منكريه، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفته، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الإلهية، وبعضها يتعلق الآداب التى رسمها الله للرسول وما ينبغى أن يكون عليه سلوكه مع مخالفيه وموافقيه. قال تعالى:

وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا القُرآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ. (الأنعام ١٩).

وَهُوَ الذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً والذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ منْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ. (الأنعام ١١٤) .

تكذيب المرسلين:

عرضت السورة لموقف المكذبين من الرسالة وبينت أن التكذيب سنة قديمة. فعلى الرسول أن يصبر ويصابر حتى لا يضيق صدره بتكذيبهم إياه؛ ولا ييأس من هدايتهم. وبينت السورة حسن عاقبة المرسلين. وسوء عاقبة المكذبين قال تعالى :

قَدْ نَعلَمُ إِنَّهُ لَيحْزُنكَ الذِى يَقُولونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالمينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَلقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ المُرْسَلينَ. (الأنعام ٣٣، ٣٤) .

وَلقَد اسْتُهْزِىءِ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. (الأنعام ١٠) .

نبوة محمد ﷺ :

أثبت القرآن الوحى والرسالة؛ ثم أثبت نبوة محمد ﷺ بالدليل القاطع والحجة البالغة. فقد نشأ هذا النبى يتيمًا فقيرًا أميًا فى بيئة مشركة جاهلة؛ فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذى اشتمل على مبادىء الإصلاح العالمى كلها؟ والذى لم يستطع العلم فى أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التى جاء بها.

إن القرآن قد تحدى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا عن الإتيان بمثله أو بعشر سور منه؛ أو بسورة واحدة .

وقد تحدى القرآن الزمان كله بخلوده وصحته؛ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَىءٍ. (الأنعام ٩١).

(جـ) قضية البعث والجزاء :

نزلت سورة الأنعام فى السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة وأن يعلن عن العقيدة الإلهية ويقرر حقيقة البعث والجزاء علناً أمام المشركين.

وقد سلكت سورة الأنعام طرقًا شتى فى الاستدلال على قضية البعث فقد استدلت عليه بخلق السموات والأرض فى مقدمتها العنوانية:

الحَمْدُ لِلَّهِ الذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلونَ. (الأنعام ١) .

فمن خلق السماوات والأرض بقدرته، فهو قادر على إحياء الموتى وإعادة خلق الإنسان فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وكررت هذه الحقيقة وأكدت فى أياتها بصور شتى فذكرت أن البعث حق، وأن الله بيده الخلق والأمر والبدء والإعادة والحساب والجزاء قال تعالى:

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فيه. (الأنعام ١٢) .

وقال سبحانه :

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. (الأنعام ١٦٤) .

وقد لون القرآن فى قضية البعث والجزاء واستدل عليها بعديد من الأدلة، منها: أن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته حتى يطهر المسيء من دنس النفس ويكون أهلا لرحمة الله الكاملة، وهذان شأنان هامان إذ كثيرًا ما يرتحل الناس عن الدنيا دون أن يسهل طريق النقاء لمن دسى نفسه، ودون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه وإذن فلا بد من دار أخرى يلقى الإنسان فيها الجزاء أمام حاكم عادل عليم خبير بكل ما قدم الإنسان .

وقد تعرض أحد القضاة الفرنسيين لتاريخ القضاء فى فرنسا وأصدر كتابا ذكر فيه عديدا من الحالات حكم فيها بالإعدام أو الإدانة على متهمين ثم برأتهم الأيام والحقائق، وأحصى عديدًا من الحالات برأ القضاء فيها متهمين ثم أثبتت الأيام وحقائق الأحداث أنهم مدانون .

ثم عقب القاضى بقوله: إنه لابد من جزاء وحساب أمام قاض آخر لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه حادثة فى دار أخرى ليعوض الناس عن أخطاء القضاء فى الدنيا وليكون حكمه فيصلا ومنصفاً للمظلومين ورادعا للمجرمين.

وفى القرآن الكريم آيات عدة تؤكد هذا المعنى، قال تعالى :

لِيَجْزِيَ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ بالْقِسْطِ والذِينَ كفَرُوا لهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيم وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ. (الأنعام ٧٠) .

أَم حَسِبَ الذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتَ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالذِينَ آمَنُوا وعملُوا الصَّالحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. (الجاثية ٢١) .

وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ ولَهْوٌ وللدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ. (الأنعام ٣٢) .

وقد لون القرآن ونوع فى أدلته على إثبات البعث، وعرض مشاهد القيامة واضحة للعيان. وعرضت سورة الأنعام لشأن البعث باعتباره أمرًا كائنا ليس موضع إنكار، ولا محلا لريب وصورت فيه مواقف المشركين وما سيكونون عليه فى ذلك اليوم كأنهم حاضرون معروضون أمام الناس يتأملهم الإنسان ويرى فعلهم وقولهم : قال تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثم نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَم تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. (الأنعام ٢٢ – ٢٤) .

وقال سبحانه :

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُم وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وما نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُم مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ. (الأنعام٩٤) .

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العينى لمظاهر البعث الذى يأخذ القلب وينير الوجدان .

٧ - قصة إبراهيم الخليل :

حفلت سورة الأنعام بذكر طرف من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، فإبراهيم أبو الأنبياء، والرسول الذى دافع عن التوحيد وتحدى عباد الأصنام، وأخذ يتأمل بفكره فى ملكوت السماوات والأرض، ليرشد قومه عن طريق الحوار إلى فساد اعتقادهم ودليل خطئهم فى تأليه الكواكب والقمر والشمس وغيرها. جن عليه الليل وستره الظلام فرأى كوكبا مما يعبدون وهو بين جماعة منهم يتحدثون ويسمرون فجاراهم فى زعمهم وحكى قولهم فقال هذا ربى فلما أفل هذا الكوكب. وغاب هذا النجم تحت الأفق تفقده فلم يجده وبحث عنه فلم يره فقال لا أحب الآلهة المتغيرة من حال إلى حال.

ولما رأى القمر بازغا وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب وأكبر منه حجما وأكثر نفعا قال:

هَٰذَا رَبِّى. استدراجًا لهم واستهواء لقلوبهم، فلما أفل هذا أيضا واحتجب، واختفى نوره واستتر قال: لَئِن لمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ منَ القَوْمِ الضَّالِّين. (الأنعام ٧٧) .

بين لهم أن الله مصدر الهداية، ومانح التوفيق عند الشك والحيرة. ثم رأى إبراهيم الشمس بازغة يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الدنيا جمالا وملأت الأرض حياة وبهاء، وأرجاء الكون نورًا وضياء، فقال: هذا ربى، هذا أكبر من كل الكواكب، وأكثر نفعاً وأجل شأنا، فلما أفلت كغيرها، وغابت عن عبادها، رماهم بالشرك وقال:

إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . فهذه الكواكب التى تنتقل من مكان إلى مكان وتتحول من حال إلى حال لابد لها من خالق يدبرها ويحركها وإله ينظمها ويسيرها، فهى لا تستحق عبادة ولا تعظيمًا.

وبعد أن أعلن إبراهيم انصرافه عن آلهتهم، وبراءته من معبوداتهم أفاض الحديث عن إخلاصه لله بعبادته وخضوعه فقال:

إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذى فَطَرَ السَّمَوات والأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكينَ. (الأنعام ٧٩) .

ولقد كان إبراهيم جريئًا فى إعلان إيمانه، وإخلاصه لربه، ومجادلة قومه وإفهامهم أن غير الله لا ينفع ولا يضر. وإن الله وحده هو النافع الضار، والمعطى المانع، وهو على كل شىء قدير. وقد ناقش إبراهيم أباه، وأوضح له طريق الهدى، وأخلص الدعاء لأبيه أن يلهمه الله طريق الهداية والرشاد، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه. وهكذا كان إبراهيم عمليًا فى دعوته، عمليًا فى هجرته وعزلته .

وقد ظهرت قدرة إبراهيم وإخلاصه وتضحيته، حين حطم الأصنام، ولام قومه على عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وظهرت بطولة إبراهيم حين امتحنه الله بذبح ولده إسماعيل، فامتثل إبراهيم لأمر ربه وخاطب ابنه قائلا :

يَابُنَىَّ إِنِّى أَرَى فى الْمَنَام أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى قَالَ يا أَبَتِ افْعَل مَا تُؤْمَرُ سَيْجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. (الصافات ١٠٢) .

وصدق الأب فى طاعة ربه، وصدق الإبن فى الوفاء والامتثال، وعزم الأب على ذبح ابنه وأخلص النية ، فلما رأى الله منه صدق النية فدى إسماعيل بكبش عظيم وأصبحت الأضحية سنة فى كل عام، يذبحها الغنى المقتدر ويوزع من لحمها على الفقراء وعلى الأصدقاء، ذكرى للتضحية والفداء. واقتداء بإبراهيم الخليل، وكم لإبراهيم من مواقف جليلة عظيمة فى مصر، وفى فلسطين، وفى جوار بيت الله الحرام، وفى بناء الكعبة وهو يخلص الدعاء لله فى كل عمل. وقد مدحه القرآن ووصفه بأحسن الصفات إذ يقول جل جلاله :

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (النحل ١٢٠) .

٨ - الوصايا العشر :

افتتح الربع الأخير من سور الأنعام بالدعوة إلى عشر وصايا هى النهى عن الإشراك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين ، والنهى عن قتل الأولاد مخافة الحاجة، والنهى عن مقاربة الفاحشة فى السر أو العلن، والنهى عن قتل النفس التى حرم الله قتلها. ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم وإتمام الكيل والميزان، كما أمرت بالعدل فى كل شىء وأمرت بالوفاء بالعهد والاستقامة على الصراط القويم .

الوصية الأولى: من هذه الوصايا العشر التى وردت بسورة الأنعام هى قوله تعالى:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. (الأنعام ١٥١) .

وهى الأساس الذى يصلح عليه أمر الناس، فإن المجتمع الذى يقوم على إيثار الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالى السعيد، أما المجتمع الذى يشرك بالله أحدًا أو يشرك بالله شيئًا، فإنه مجتمع منحل، تسيره المادة الصماء التى لا روح فيها ولا صلاح ولا قرار معها.

والوصية الثانية: وَبِالوالِديْنِ إِحْسَانًا . (الأنعام ١٥١).

فالوالدان سبب فى حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما خصوصًا فى حالة الكبر والشيخوخة.

والوصية الثالثة: وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مّنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِياهُمْ. (الأنعام ١٥٣).

إن قتل الإنسان لابنه اعتلال فى الطبع أو خلل فى العقل، فإن الولد بضعة من الوالد، والشأن حتى فى الحيوان أن يضحى الوالد من أجل أولاده ويحميهم ويتحمل الصعاب فى سبيلهم، وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» [٥٣]، إذ أن الله يبسط الرزق لمن يشاء: وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا . (هود : ٦) .

الوصية الرابعة: وَلا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَر مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. (الأنعام ١٥١).

والفواحش هى كل فعل تنكره العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والمجتمع الذى يؤمن بأن هناك (فواحش) يجب أن تجتنب و(محاسن) يجب أن تلتمس هو المجتمع السليم الجدير بالنمو والارتقاء.

الوصية الخامسة: ولاَ تَقْتُلُوا النّفْس الّتى حَرَّمَ اللّهُ إلاّ بالحَقّ ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِه لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ. (الأنعام ١٥١).

فالإنسان بنيان الله، ومن هدم بنيان الله ملعون، وبذلك يقرر الإسلام عصمة الدم الإنسانى إلا بالحق، ويعتبر من يعتدى على نفس واحدة بغير حق كأنه اعتدى على الإنسانية كلها. وهو المبدأ الذى يعتبر أن الجريمة اعتداء على المجتمع كله.

والوصية السادسة: وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالّتِى هِيَ أَحْسَنُ. (الأنعام ١٥٢).

فاليتيم عارض يعرض فى كل مجتمع، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى وأن تحافظ على صلاحهم فى أنفسهم وفى أموالهم. وعلى الوصى أن يعامل اليتيم كما لو كان إبنا من أبنائه فيحسن توجيهه وتأديبه ورعايته وكفالته حتى ينشأ اليتيم مواطنًا صالحًا وعضوًا نافعًا.

والوصية السابعة: وَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ بالقِسْطِ. (الأنعام ١٥٢).

فالمؤمن عادل فى بيعه وشرائه يضبط الكيل ويعطى الحق ويأخذ الحق.

والوصية الثامنة: وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا . (الأنعام ١٥٢).

والعدل هو أساس الحكم السليم، العدل فى القول، والعدل فى الحكم، والعدل فى الشهادة، والعدل فى كل فعل وعمل.

والوصية التاسعة: وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا. (الأنعام ١٥٢).

والوفاء خلة حميدة، وصفة طيبة من الصفات التى يتحقق بها الخير والصلاح وتستقر عليها أمور الناس.

والوصية العاشرة: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سبيله. (الأنعام ١٥٣).

وهذه الوصية الأخيرة هى الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق فهى تدعو إلى السير على طريق الله وشرعة الله وأوامر الله، والابتعاد عن طرق الشيطان، فطريق الله سبيل النجاح فى الدنيا والآخرة، وفى سورة الفاتحة: اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ
أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ
مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

المفردات :

ثم الذين كفروا بربهم يعدلون : أي يُسوُّون به غيرَه، تعالى الله عن ذلك .

ثم قضى أجلا : هو أجل الموت .

وأجل مسمى عنده : أجل القيامة .

تمترون : تشكُّون، يقال امترى في الأمر يمترى امتراء شك فيه، والمرية الشك .

وجهركم : أي وعلنكم، يقال جهر بقراءته يجهر بها جهرًا أي أعلنها .

التفسير:

١ - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... الآية. الثناء الجميل والحمد كله مستحق لله تعالى، الذى أنشأ بقدرته هذه العوالم العلوية والسفلية وأوجد ما فيها من مخلوقات ناطقة وصامتة، وظاهرة وخافية وأحدث ما يتعاقب عليها من تحولات وتقلبات ونور وظلمات .

وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. أى جعل الله ظلام الليل ليكون سكنًا. وجعل نور النهار ليكون مجال نشاط الناس وسر الحياة لزروعهم وحيواناتهم .

ثُمَّ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. أى بعد هذا الخلق الكبير في خلق السماء وما أظلت، وخلق الأرضين وما أقلت، وتسخير الليل والنهار، فإن الذين كفروا يشركون بالله، ويعدلون به ويساوون به ما لا يقدر على شيء وهذا نهاية الحمق .

وقد بدئت خمس سور بالحمد لله. هي: سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف وسورة سبأ، وسورة فاطر.

فأول سورة الفاتحة: الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالِمِينَ .

وأول سورة الأنعام: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ.

وأول سورة الكهف: الحَمْدُ لِلَّهِ الذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا.

وأول سورة سبأ: الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِى الأَخِرةِ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ.

وأول سورة فاطر: الحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ جَاعِلِ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُوْلِى أَجْنِحَةٍ مثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِى الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ.

٢ - هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ... الآية.

هو الذى خلق آدم عليه السلام من الطين، ثم تناسل منه أبناؤه من نطفة ثم علقة ثم مضغة، وكل فرد قد قدّر عليه وهو فى بطن أمه رزقه وأجله وشقى أو سعيد .

فمعنى ثُمَّ قَضَى أَجَلاً : عينى حكم بالموت على الإنسان عند نهاية عمره.

وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ : يعنى القيامة والبعث، وقيل الأجل الأوّل ما بين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت والأجل الثانى ما بين أن يموت إلى أن يبعث.

ومن شأن القرآن أن يقابل بين الظلمات والنور، والكفر والإيمان، وهنا قابل بين الأجل الأول وهو الحياة ونهايتها الموت والأجل الثانى من الموت إلى البعث.

وكل هذه الأمور من شأنها أن تبعث فى النفس اليقين بوجود الإله الخالق الرازق.

ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُون. ثم إنكم بعد كل هذه الأدلة على وحدانية الله، وعلى أن يوم القيامة حق، تشكون فى ذلك، وتجادلون المؤمنين فيما تشكون فيه بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير.

قال الشوكانى فى فتح القدير: «أى كيف تشكون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من الابتداء والانتهاء ما يذهب بذلك، فإن من خلقكم من طين، وصيركم أحياءً تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم ، فصرتم أمواتا، وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم، ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويردّ إليها الأرواح .

٣ - وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ. وهو الله المالك المتصرف المعبود فى السماوات وفى الأرض .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ . (الزخرف : ٨٤) .

يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ. يعلم ما انطوت عليه قلوبكم ، وما تفعلون بجوارحكم علانية .

وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُون . من الخير والشر، فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم .

وتتوالى الآيات كلها تبين عظمة القدرة الخالقة لهذا الكون الموجودة للإنسان ، لتنبه الجاحد وتوقظ الحس والمشاعر، وتدعو الغافل والمستخف بشرائع الله، أن يعود إلى الله، وأن يخشاه، ويقى محارمه، لأن الله يطلع على كلّ ما ظهر وما بطن.

★ ★ ★

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات:

من آيات ربهم : المراد بالآيات؛ القرآن، أو ما يعمه، من الآيات الكونية.

معرضين : الإعراض؛ الانصراف عن الشيء.

من قرن : القرن؛ مدة من الزمان يعيش فيها أهل عصر. وقد يطلق على أهله، وهو المراد هنا، وأشهر الأقوال أن القرن مائة سنة.

مكناهم فى الأرض : أى جعلنا لهم فيها مكانا.

وأرسلنا السماء عليهم مدرارا : أى وأرسلنا المطر أو السحاب عليهم كثير الدر بالمطر.

التفسير:

٤ - وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وما تأتيهم من حجة من حجج ربهم. دالة على وحدانية الله وصدق رسوله - سواء أكانت قرآنية أم كونية - إلا قابلوها بالإعراض، واستقبلوها بالنبذ والاستخفاف.

والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان كفرهم بآيات الله، وإعراضهم عنها بالكلية، بعد بيان كفرهم بالله - تعالى - وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد، وامترائهم فى البعث وإعراضهم عن أدلته [٥٤].

٥ - فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ... الآية. أى فقد زادوا - على إعراضهم - تكذيبهم بالحق لما جاءهم على لسان محمد ﷺ، من غير تريث ولا تفكر والآية السابقة بينت إعراضهم عن التأمل فى الدلائل والبينات وهذه الآية بينت تكذيبهم بالآيات ثم استهزاءهم بها.

فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أى فسوف تأتيهم العقوبات التى توعدهم الله بها، جزاء تكذيبهم بالحق وإصرارهم على هذا التكذيب.

قال الزمخشرى فى الكشاف :

فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء. الشىء الذى كانوا يستهزئون وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأى شىء استهزءوا وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو فى يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

٦ - أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ... الآية. أعموا عن الحق وأعرضوا عن دلائله ولم يروا بتدبر وتفكر، كم أهلكنا من قبلهم من أقوام كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً. حيث منحناهم الغنى والسعة والاقتدار على التعميد فعمروا الأرض وبنوا الحصون والقصور.

وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ . عدد الله النعم على هؤلاء السابقين حيث أرسل المطر متتابعا وجعله نافعًا بغزارة وكثرة، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها.

وصفهم القرآن هنا بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون، فيبنون مساكنهم على ضفافها، ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة .

وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ. أى صيرنا الأنهار تجرى من تحت مساكنهم. وبين مزارعهم فيمتعون بحسن مرآها، وجمال جريانها، ولا يجدون صعوبة فى الانتفاع بها .

فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. أى فكفروا بنعمة الله وجحدوا فضل الله عليهم، فأهلكناهم بسبب ذنوبهم إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم .

والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران :

أحدهما : أن الذنوب ذاتها تهلك الأمم، إذ تشيع فيها الترف والغرور والفساد فى الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل وتذهب قوتها.

والمظهر الثاني: إهلاك الله تعالى لها عقاباً على أوزارها»[٥٥].

جاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب :

وتفيد الآيات أن الذنوب والفساد سبيل إلى هلاك الأمة والأفراد، إما بقارعة من الله عاجله كما كان يحدث فى التاريخ القديم، مثل غرق قوم نوح، وهلاك عاد وثمود ومدين وقوم لوط .

وإما بالانحلال البطيء الفطرى الطبيعى الذى يسرى فى كيان الأمم مع الزمن وهى توغل فى متاهة الذنوب !

«وأمامنا فى التاريخ القريب – نسبيًا – الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقى، والدعارة الفاشية، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة، والتلهى بالنعيم، أمامنا الشواهد الكافية من فعل هذا كله، فى انهيار الإغريق والرومان – وقد أصبحوا أحاديث – وفى الانهيار الذى تتجلى أوائله وتلوح نهايته فى الأفق فى أمم معاصرة، كفرنسا وانجلترا كذلك – على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض»[٥٦].

وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. من سنن الله إهلاك المفسدين إما بقارعة وإما بتسليط بعضهم على بعض حتى يهلك الفاسد، ويتولى الملك قوة جديدة امتحانًا وابتلاء لها وقد تكون صالحة أو طالحة، فالظالم سوط الله فى الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه قال تعالى: وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ. (البقرة ٢٥١) .

وهلاك المفسد وعقوبة الظالم لا ينقصان من ملك الله تعالى شيئا، فهو سبحانه كلَّما أهلك أمة أنشأ من بعدها أخرى وفى الحديث القدسى:

«يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص

ذلك من ملكى شيئًا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كلا مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله وفى وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه[٥٧].

ويقول الله تعالى : وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم. (محمد ٣٨).

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧
وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ
مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

المفردات :

فـى قـرطـاس : القرطاس ؛ – بتثليث القاف ، والكسر أشهر – ما يكتب فيه .

فلمسوه بأيديهم : اللمس ؛ كالمس ؛ إدراك الشيء بظاهر البشر . وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه . والمراد هنا : الأول .

إن هـذا إلا سحـر : أى خداع وتمويه .

لـقضـى الأمـر : أى لَتَمَّ أمرُ إهلاكهم .

ثـم لا يـنـظـرون : أي لا يمهلون طرفة عين .

ولـلـبسـنـا : أى خلطنا .

التفسير :

٧ – وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ... الآية. لقد بلغ الحزن والأسف من الرسول ﷺ كل مبلغ لإصرار قومه على الكفر مع وضوح الدليل والحجة على صدقه فبين القرآن له هنا فسادهم وجحودهم وعنادهم حتى لو ظهر الدليل على صدقه واضحًا للعيان ملموسًا باليد.

ومعنى الآية :

إننا لو نزلنا عليك كتابًا من السماء فى قرطاس – كما اقترحوا – فشاهدوه بأعينهم وهو نازل عليك ولمسوه بأيديهم منذ وصوله إلى الأرض، وباشروه بعد ذلك بجميع حواسِّهم بحيث يرتفع عنهم

كلّ ارتياب، ويزول كُل إشكال ... لو أننا فعلنا ذلك استجابة لمقترحاتهم المتعنتة، لقالوا بلغة العناد والجحود ما هذا الذى أبصرناه ولمسناه إلاَّ سحر مبين.

والقرطاس بكسر القاف وقد تفتح وتضم، ما يكتب عليه من رق أو ورق أو من غيرهما، ولا يطلق على ما يكتب فيه قرطاس إلا إذا كان مكتوبا.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى :

وَجَحَدُواْ بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُم ظُلْمًا وعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل ١٤) .

وقوله سبحانه: فَإِنَّهُم لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُون . (الأنعام ٣٣) .

وقوله تعالى: وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ. (الحجر ١٤، ١٥) .

٨ – وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ. يحكى القرآن لونـًا آخر من اقتراحات المشركين التى تؤيد تعنتهم وجحودهم للحق، فالرسول أمامهم عرف بينهم بالصدق والأمانة وحسن الخلق، والقرآن أمامهم يلمسون إعجازه وتفوقه وسلاسته وسلامته من كل عيب، ويدركون أنّه فوق مستوى البشر ومع كل ذلك يقترحون ألوانا من الاقتراحات ومنها ما حكاه القرآن الكريم فى عدد من السور، وكمثال لذلك ما ورد فى سورة الإسراء وهو يتضمن مثل هذا الاقتراح بمجيء ملك أو ملائكة تصدّق الرسول فى دعواه الرسالة واقتراحات عدّة تدل على التعنت. وتدل على الجهل بكثير من الحقائق الكونية، وكثير من القيم الحقيقية.

قال تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً . (الإسراء ٨٩ – ٩٥).

فقد اقترحوا فى هذه الأيات تفجير ينابيع الأرض فى مكة حتى تنبت الجنان والبساتين، أو نزول عذاب من السماء أو مجئ الله والملائكة يصدقون رسالته أو أن يملك محمد بيتـًا من الذهب، أو يصعد فى السماء شريطة : أن يأتى بكتاب معه من السماء يؤيد صدقه .

وكان جواب القرآن إننى بشر يوحى إلىّ برسالة تخاطب العقل والفطرة وتقدم الأدلة العقلية على صدقها .

وقد كذبت أمم السابقين بسبب استكثارهم أن يختار الله بشرًا ثم يوحى إليه بالرسالة، مع أن هذا لا غرابة فيه فالرسول ينبغى أن يكون بلسان قومه ليبين لهم، ولو كانت الأرض فيها ملائكة تمشى فى منطقة منها لأرسل الله إليهم ملكًا مثلهم يحمل رسالة الله إليهم .

وقد كان تصور عرب الجاهلية عن الملائكة تصورًا فجًا فيه الكثير من الأخطاء فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن الله قد اختار زوجة من الجن لتنجب له الملائكة، وسمُّوا بعض الآلهة بأسماء الملائكة، وقد صحح القرآن ضلالاتهم فى سورة النجم وفى غيرها من السور .

وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ. روى ابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن محمد بن إسحاق فى سبب نزول هذه الآية قال :

«عاد رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلّمهم فأبلغ، فقال زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث وأُبىّ بن خلف، والعاص بن وائل بن هشام: لو جُعل معك يا محمد ملك يُحدث عنك الناس، ويُرى معك فأنزل الله فى ذلك قوله: وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ...».

أى قال الكافرون للنبى ﷺ هلا كان معك يا محمد ملك لكى يشهد بصدقك، ونسمع كلامه ونرى هيئته، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك.

وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ. لقد جرت سنّة الله فى إنزال الملائكة أن يرسلهم لإهلاك المكذبين. كما أرسلهم إلى قوم لوط، أو جرت سنته فى أن من طلب آية أو معجزة ثم تحقق إرسال الآية ولم يؤمن أن يهلكه الله ولا ينظره فقد أعطى ثمود الناقة آية فعقروها: فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلاَيَخَافُ عُقْبَاهَا. (الشمس ١٤، ١٥). أو أن الله لو أرسل ملكا فى صورته الحقيقية وشاهدوه بأعينهم، لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون من غير تأخير أو انتظار.

ومن أجل هذا لم يستجب لأهل مكة حتى لا ينزل بهم عذاب الاستئصال تكريمًا للنبى ﷺ وتحقيقا لوعده: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. (الأنفال ٣٣) .

٩ - وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ. أى لو استجبنا لهم فى إنزال ملك لمثّلناه رجلا ليَقْوَوْا على مشاهدته وسماع كلامه، لعدم استطاعتهم رؤية الملك على صورته الأصلية.

ومن أجل هذا كانت الملائكة تأتى الرسل على هيئة البشر أحيانا، وكان جبريل يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية الكلبى، وقد رآه النبى ﷺ على صورته الأصلية مرتين وذكر ذلك فى أول سورة النجم.

ولو جعل الله الملاك بشرا ليأنسوا به لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته التى تمثّل بها وحينئذ، يقعون فى نفس اللبس والاشتباه.

قال الإمام القرطبى:

قوله تعالى: وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا «لأن كل جنس يأتى بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربته، ولما أنسوا به، ولداخلهم من الرعب من كلامه، والاتقاء له، ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله فلا تعمّ المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم ليأنسوا به وليسكنوا إليه لقالوا لست ملكاً، وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم»[٥٨].

والخلاصة أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الرسول بشرا من جنس وقومه وأن يؤيده الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به فى قوله وفعله وسلوكه.

قال تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... الآية. (إبراهيم ٤) .

وقال تعالى : لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الأَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا. (الأحزاب ٢١) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات:

فـــــحـــــاق: حاق به الأمر: أحاط به. ولا يكاد يستعمل إلا فى الشر.

التفسير:

١٠- وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ. سخر الكفار من رسل الله واستهزءوا بهم، فحاق بالكافرين الخسف والزلازل والطاعون والغرق، قال تعالى: وَيَصْنَعُ

الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ. (هود ٣٨، ٣٩) .

لقد وقف الكفار موقف العناد من رسل الله وهددوهم بالطرد والأذى والتنكيل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. (ابراهيم ١٣) .

وتأتى هذه الآية لبيان مسلك الكفار فى إيذاء الرسل والسخرية بهم كما جاء فى قوله تعالى: وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. (الحجر ١١) .

وقد أنزل الله بالمستهزئين بالرسل ما يستحقونه من العذاب فأغرق الله قوم نوح .

وأغرق فرعون وقومه وأهلك هامان وجنوده .

وفى الآية ما يأتى :

١ – تعليم النبى ﷺ سنن الله مع الأمم.

٢ – تسلية للرسول ﷺ وعزاء له مما يلقى من المشركين من عناد، وتثبيت قلبه.

٣ – بشارة له بحسن العاقبة، وما سيكون له من نصر وتأييد، حيث أهلك سبحانه المستهزئين به قال تعالى : إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. (الحجر ٩٥) .

والخلاصة :

لا تحزن يا محمد من إيذاء الكفار لك فهذا شأن الدعاة والرسل، ولقد أوذى من سبقك من الرسل الكرام وسخر الساخرون منهم فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا وجاءهم فى النهاية نصر الله الذى وعدهم، أما أعداء الرسل فقد نزل بهم من العذاب والنكال ما يستحقونه جزاء استهزائهم، قال تعالى: الَّذِينَ طَغَوْاْ فِي الْبِلاَدِ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ. (الفجر ١١ : ١٤) .

١١ – قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. كانت للعرب رحلة إلى الشام ورحلة إلى اليمن بحثًا عن طلب المعاش، فأمرهم الله أن يسيروا فى الأرض وطلب منهم التأمل والاعتبار. بما أصاب الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها وخرجتَ على منهج الله .

إن هذا التفسير التربوى للتاريخ جزء من منهج القرآن الكريم حيث فتح العيون والأبصار للتأمل والاعتبار وحيث بينً القرآن أن سنن الله باقية خالدة ومن هذه السنن مكافأة العاملين ومعاقبة الظالمين .

إن هذه الآية دعوة إلى الرحلة والسياحة والتأمل والاعتبار فمن قوانين الله مكافأة العاملين حيث قال تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. (الأنبياء ١٠٥)، ومن قوانين الله إهلاك المكذبين. قال تعالى: ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ. (سبأ ١٧).

والسعيد من اتعظ بغيره، وقد كان ﷺ يتحيَّن الفرصة لتحريك العظة والاعتبار في قلوب المؤمنين. وفي غزوة تبوك مرَّ على قرى قوم لوط، فاستحث راحلته، وحتى ظهره مشفقًا ضارعًا إلى الله، وقال ﷺ: «لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم»(٥١).

★ ★ ★

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)
وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)
مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾

المفردات:

كتب على نفسه الرحمة: أي أوجبها على نفسه، فضلاً منه وكرمًا.

وله ما سكن: سكن: من السُّكنى. والمعنى: ما اشتمل عليه الليل والنهار. وقيل: سكن هنا: من السكون والمعنى وله ما سكن في الليل والنهار وما تحرك. فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر. كما جاءَ في قوله تعالى: « ... سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ...» أي والبرد.

وليا: أي ناصرًا ومعينًا.

فاطر: أي خالق يقال فطر الله الإنسان يفطره. فطرة.أي خلقه.

وهو يطعم ولا يطعم: أي هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد.

من يُصرف عنه يومئذ : أى من يُبعد عنه العذاب يوم القيامة .

التفسير :

١٢ - **قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ...** الآية. أى قُل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين المعرضين عن دعوتك : لمن هذا الكون بكل ما فيه من يملك السماء وما فيها من شموس وأقمار وملائكة وأبراج وأفلاك ؟

ومن يملك الأرض وما فيها من نبات ، وإنسان وحيوان وحشرات وإنس وجن وغير ذلك من المخلوقات ؟

إن الإجابة الصحيحة التى يعترفون بها ولا يستطيعون إنكارها ، أن هذا الكون كله قد خلقه الله.

قال تعالى : **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**. (العنكبوت : ٦١) .

وإنما أمر الرسول ﷺ أن يتولى الإجابة عنهم لأن هذا الجواب معترف به منهم لا يسعهم إنكاره.

قال الإمام الرازى : وقوله : **قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**. سؤال ، وقوله: **قُل لِّلَّهِ**. جواب فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولاً ثم الجواب ثانيا، وهذا إنما يحسن فى الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ فى الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع، وهنا كذلك لأن القوم كانوا معترفين بأن العالم كله لله وتحت تصرفه وقهره وقدرته[٦٠] .

قال الزمخشرى :

والمقصود من السؤال هنا ، التبكيت والتوبيخ .

كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . أى أوجبها على نفسه لعباده فضلا منه ومنَّة فهو سبحانه خالق الكون ومبدعه على غير مثال سابق، وهو سبحانه يسمع النداء ويجيب الدعاء ، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وهو سبحانه قريب من عباده ، متحنن على خلقه ، وهو سبحانه قسَّم الرحمة مائة جزء أنزل جزءًا واحدًا فى الدنيا يتراحم به الناس وادَّخر ٩٩ جزءًا يرحم بها عباده يوم القيامة، وهو سبحانه ، يتلطف ويتحنن على عباده فيفتح بابه بالليل ليتوب مسىء النهار ويفتح بابه بالنهار ليتوب مسىء الليل، وفى الحديث الصحيح: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى يا عبادى : هل من داع فأستجب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من طالب حاجة فأقضيها له حتى يطلع الفجر[٦١] .

ومن رحمة الله بعباده أنه يجمعهم للجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة ، وبذلك يثق المؤمن أن وراء هذه الدنيا دارًا أخرى هى دار الجزاء العادل ، والفاجر يرتدع وينزجر ولا يتمادى فى فجوره، ومن رحمة الله أن جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها وجعل جزاء السيئة سيئة مثلها ، وفى الصحيحين، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «إن الله لما خلق الخلق كتب كتابًا عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى» (٦٢) .

وقد أفاض الأستاذ سيد قطب عند تفسير هذا المقطع من الآية فى بيان فضل الله ورحمته وكرمه ولطفه وإنعامه على عباده .

ثم نقل طائفة كثيرة من الأحاديث النبوية الشريفة فى بيان رحمة الله وفضله ، ثم نقل جانبًا من سعة رحمة النبى ﷺ وتربيته لأصحابه على معانى الرحمة حيث بين لهم أن امرأة بغيًا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أخرج لسانه من العطش فنزعت خفها فسقته به فغفر الله لها (٦٣) وفى رواية عند مالك والشيخين أن رجلا سقى كلبًا فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرًا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر.(٦٤) .

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ . وهذا الجمع من سعة فضل الله ورحمته وعدله بين عباده فقد جمعهم لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء، وقد أكد هذا المعنى بلام القسم وبنون التأكيد الثقيلة ، وبقوله سبحانه لا ريب فيه. أى أنه يوم لا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه لوضوح أدلته .

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ستكون خسارتهم شديدة يوم القيامة ، هؤلاء الذين عطلوا أماكن الإدراك فى أنفسهم ، فعموا أعينهم عن الحق ، وصموا آذانهم عن سماع النصح ، وأغلقوا قلوبهم عن التفتح لنداء الإيمان ، وأهدروا قواهم العقلية وعطلوها عن النظر فى آيات الله .

لقد خسروا أنفسهم فلم تعد لهم نفس تؤمن ، إن هؤلاء لم يخسروا شيئًا ويربحوا شيئا، إن خسارتهم كاملة فقد خسروا أنفسهم وخسروا بواعث الإيمان وخسارتهم أكبر الخسائر فى الدنيا وعند البعث والجزاء .

قال الآلوسى : فى تفسيره روح المعانى :

الفاء فى قوله: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسرانهم ، فإن إبطال العقل والانهماك فى التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر و الامتناع عن الإيمان .

١٣ - وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قيل المراد ما سكن فى الليل والنهار ، وما تحرك فيهما .

قال القرطبى: سكن معناه هدأ واستقر والمراد ماسكن وماتحرك فحذف لعلم السامع، وقيل: خصَّ السكان بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة .

وقال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير :

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أى كل شىء فإن الأشياء منها ما هو ساكن كل الوقت وهو الجمادات، ومنها ما يسكن فى الليل وهو أغلب الحيوانات ، ومنها ما يسكن فى النهار ككثير من الطيور والحشرات والسباع .

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . المطلع على كل شىء المجازى على الفتيل والقطمير ، فهو يسمع دبيب النمل فى الليلة الظلماء تحت الصخرة الملساء. يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور. (غافر: ١٩) .

ومن كان كذلك فلا يغيب عنه إيمان مؤمن ، ولا كفر كافر ولا دعوة داع، ولا حاجة محتاج .

١٤ - قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ ولاَ يُطْعَم ... الآية. أى: قل لهم يا محمد - موبخًا وزاجرًا - بأىِّ عقل أبحتم لأنفسكم الإشراك بالله ، واتخذتم من دونه معبودًا سواه مع أنه باعترافكم هو الخالق لكم وللسماوات والأرض ، ولكل شىء ؟

وهو سبحانه الرازق يرزق غيره ولا يرزقه غيره، فهو الذى يرزق الكائنات الحية ويطعمها ، ويمدّها بما يحفظ وجودها وبقاءها وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه .

وكيف يصح أن يكون مصدر العطاء محتاجًا إلى عطاء ؟

وكيف يتخذ المضلون من البشر أولياء مع الغنىّ الحميد الفعال لما يريد .

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . أى قل أيها الرسول بعد إيراد هذه الآيات والحجج الدالة على وحدانية الله ، إنى أمرت من خالقى أن أكون أوّل من يسلم له وجهه ويخصه بالعبادة، كما أنى نهيت عن أن أكون من المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى . «وصح عطف الجملة الثانية الإنشائية على الأولى الخبرية لأن الأولى خبرية فى اللفظ، ولكنها إنشائية فى المعنى فكانت فى قوة الجملة الطلبية والتقدير:

كن أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [٦٥] .

١٥- قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . أى قل يا محمد لهؤلاء ، الذى دعوك إلى مشاركتهم فى عبادة آلهتهم ، إنى أخاف عذاب يوم تشيب فيه الولدان . «وهذه الآية جملة مزلزلة على قلوب المشركين فى ذلك الزمان ، وقلوب المشركين بالله فى كل زمان .

جملة مزلزلة تصوّر العذاب فى ذلك اليوم العظيم يطلب الفريسة، ويحلّق عليها ويهجم ليأخذها، فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التى تأخذ بخطامه فتلويه عنها» . [٦٦]

١٦- مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . تصوّر الآية هول هذا العذاب فمن نجاه الله منه وصرف عنه هذا العذاب فى اليوم الآخر فقد شملته الرحمة الإلهية ، وهذا هو الفوز الأكبر ، قال تعالى: فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ .

وفى الآيات الخمس ١٢-١٦ من سورة الأنعام .

نجد القرآن قد أمر النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: قل خمس مرات وهو أسلوب إنذارى تلقينى كثر استعماله فى هذه السورة ، لأنه يلقن النبى ﷺ الحجج التى تزلزل كيان المشركين ، وتأتى على بنيانهم من القواعد .

وفضلا عن ذلك فهو لون من التفنن فى أسلوب الدعوة إلى الله يحتاج إليه المرشدون والدعاة .

لأن التزام أسلوب واحد فى إقامة الحجة على الخصم يفضى إلى السآمة والملل ، ومن هنا فقد لون القرآن فى أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها . قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣) .

★ ★ ★

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ
شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ
ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات:

وإن يمسسك: المس؛ الإصابة. يُقال: مَسَّهُ السُّوءُ والكبر والعذاب والتعب أي أصابه ولحق به.

بضر: أي ببلية كمرض أو فقر.

لأنذركم به: الإنذار إخبار فيه تخويف بخلاف التبشير فإنه إخبار فيه سرور.

ومن بلغ: معطوف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر.

التفسير:

١٧ – وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ ...

بينت الآيات السابقة أن الله سبحانه هو المتصرف فى اليوم الآخر، وبينت هذه الآية أن الله سبحانه هو المتصرف فى شئون الدنيا.

والخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى منه الخطاب.

والمعنى وإن يصبك أيها الإنسان ضرٌّ كمرض وفقر وحزن وغير ذلك من البلايا التى يختبر الله بها عباده، فلا يرجى لكشف هذا الضرّ غيره، إذ لا رادّ لقضائه ولا معقب لأمره إلا ما كان من لطفه ورحمته بعبده حتى يستقبل القضاء برضا ويحتمله بصبر.

وإن يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو وحده قادر على حفظه عليك وإدامته لك، كما قدر على إعطائك إياه، فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ. ومن جملة ذلك المسّ بالضرّ والخير.

والآية أصل فى سلامة العقيدة وحسن اليقين، وصدق الإيمان والثقة: بأن الله هو النافع وهو الضارّ فلا يجوز أن يلجأ الإنسان إلى الشفعاء والوسطاء والمتكهنة والأولياء، بل يسأل الله تعالى وحده ويخلص فى الدعاء، ويأخذ فى الأسباب التى تعين على دفع الضرّ وجلب الخير.

روى الترمذى وقال حديث حسن صحيح عن ابن عباس قال: «كنت رديف النبى ﷺ على بغلته فقال: يا غلام ، إنى أعلمك كلمات :

احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك إلا بشىءٍ قد كتبه الله تعالى لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفّت الصحف» (٦٧) .

ومن دعاء الرسول ﷺ «اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» (٦٨).

وفى معنى الآية قوله تعالى : مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (فاطر : ٢) .

١٨- وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ . قال ابن كثير : « هو الذى خضعت له الرقاب ، وذلت له الجباه، وعنت له الوجوه، وقهر كل شىء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه الأشياء، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه» .

وهو الحكيم فى تدبير مراده ، الخبير بمواضع نعمه ونقمه .

١٩- قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرءَانُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ... الآية. أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذى يخاصمونك فيما تدعو إليه: أى شىء فى هذا الوجود شهادته أكبر شهادة، وأعظمها بحيث تقبلونها عن تسليم وإذعان؟

ثم أمره أن يجيب على هذا السؤال ، بأن شهادة الله هى أكبر شهادة وأقواها وأزكاها ، لأنها شهادة من يستحيل عليه الكذب أو الخطأ .

إنه الله رب العالمين، هو الشهيد بينى وبينكم .

وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَذَا الْقُرءَانُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ . لقد أنزل الله الوحى بهذا القرآن لأجل أن أنذركم به. «وأنذر من بلغ إليه من الناس جميعا .. بجميع شعوبهم . وأصنافهم ، من موجود ومعدوم سيوجد فى الأزمنة المستقبلة، فأحكام القرآن شاملة للبشر والجن جميعًا ممن كان منهم موجودًا يوم الرسالة أو يوجد بعدها إذا بلغتهم دعوة الإسلام وسمعوا بهذا القرآن ، وهو نذير لهم بأنهم مسؤولون عن استجابتهم لدعوة الله وعن أعمالهم فى الدنيا عند لقاء الله » (٦٩) .

قُل لَّا أَشْهَدُ . فأنا لا أشهد معكم بأن مع الله آلهة أخرى لكون هذه الشهادة من أبطل الباطل .

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ . أى أشهد بوحدانية الله وأتبرؤ من الأوثان وعابديها ، ولا أقدم ولائى ولا يقينى ولا ثقتى ولا رجائى إلا لهذا الإله الواحد الأحد الفرد الصمد .

وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة أو من إشراككم بالله وقد أشارت الآية إلى ما يأتى :

١ - وجوب تبليغ رسالة الرسول ﷺ وفى الصحيح «بلغوا عنى ولو آية» الحديث .

٢ - شهادة الله لرسوله تتجلى فيما يأتى :

(أ) قوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا».

(ب) شهادة كتب الله السابقة به ، وبشارة الرسل السابقين به .

(جـ) تأييد الرسول بالآيات الكثيرة التى من أعظمها القرآن فهو المعجزة الخالدة الدائمة .

٣ - شهادة الرسول لله بالوحدانية ، وتتجلى فى هذه الآية الكريمة .

أى أن الآية مشتملة على شهادة الله لرسوله بالرسالة وشهادة الرسول لله تعالى بالوحدانية والألوهية وأن الرسول برىء من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين .

★ ★ ★

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن
فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

التفسير :

٢٠- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ ... الآية. إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون صدق ما جاء به محمد ﷺ معرفة تماثل معرفتهم لأبنائهم الذين هم من

أصلابهم ، فهى معرفة بلغت حد اليقين ، وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار والأنباء من الرسل المتقدمين ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه وصفته وبلده ومهاجره ، وصفة أمته .

ويجوز أن يكون المعنى:

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ . يعرفون صدق القرآن ، وإعجازه وقوَّته وأنه كتاب الله ، كما يعرفون أبناءهم معرفة حقيقية ، لكنهم يعرضون عن الاعتراف بالحق .

الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . أى أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم ، وإعراضهم ، وتمردهم هم الذين لا يؤمنون بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الزمخشرى: الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ . من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ . به.

وهذه الآية مكية . لأن سورة الأنعام كلها مكية والسياق يؤكد أنها مكية، وذهب بعض العلماء إلى أنها مدنية وهو قول ضعيف .

قال الشيخ محمد المدنى فى تفسير سورة الأنعام :

«ويظهر أن القائلين بأن الآية مدنية . لمّا وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب . ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (البقرة : ١٤٦) .

ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة . وفى المدينة دون مكة ، لمّا وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية، فالمسألة ليست إلا اجتهادًا حسب رواية مسندة وهو اجتهاد غير صحيح [٧٠] .

وقد رجح الأستاذ سيد قطب وغيره من العلماء: أن الآية مكية ، واستنبط من الآية ما يشير إلى أن طائفة من اليهود والمستشرقين يعرفون أهمية القرآن وقوة الإسلام ، ويجهدون أنفسهم فى دراسات استشراقية يحاولون فيها تقديم هذا الدين بعيدا عن منابع قوته .

فقد ألفوا أن الحملات الصليبية والغزو الفكرى يستثير الهمم عند المسلمين للدفاع عن هذا الدين.

فلجأوا إلى حيلة أخرى هى مدح هذا الدين ومن خلال هذا المدح يقدّمون الإسلام المستأنس ، المتفرغ للعبادة والإيمان البعيد عن الحكم والسياسية ومصادر القوة وشئون الحياة ، والقرآن بهذه الآية يلفت أنظار المسلمين حتى لا يفتروا بثناء المستشرقين على الإسلام ثم يدسّون السم فى العسل وينبغى أن تأخذ كلام المستشرقين عن الإسلام بتحفظ [٧١] .

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين: روى أن النبىّ ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر: الله أنزل على نبيه بمكة: الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ .

فكيف هذه المعرفة ؟ قال عبد الله بن سلام يا عمر ، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ، ولأنا أشد معرفة بمحمد منى بابنى !! قال عمر : كيف ذلك ؟

فقال أشهد أنه رسول حقا، ولا أدرى ما تصنع النساء[٧٢] .

٢١ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ... الآية. أى لا أحد أظلم ممن اختلف على الله الكذب، فنسب إلى التوراة أو الإنجيل أو القرآن ما لم يكن فيها .

أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ . من المعجزة الواضحة البينة ، أو من آيات القرآن العظيم ، فجمع بين كونه كاذبًا على الله، ومكذبًا بما أمره الله بالإيمان به .

إِنَّه لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . إن هؤلاء الذين سقطوا فى أقصى درجات الكذب لن يفوزوا ولن يفلحوا «فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، فى الأمد القريب، فلاحًا ونجاحًا ... فهذا من الاستدراج المؤدى إلى الخسار والبوار ، ومن أصدق من الله حديثا ؟ » [٧٣] .

٢٢ - وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ . أى أذكر لهم خبر يوم القيامة يوم يجمع الله عنده بين العابدين وبين المعبودين من دون الله .

ثم نسأل الذين أشركوا ، أين الشركاء ؟

الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم أولياؤكم من دون الله وأنهم يقربونكم إليه زلفى، ويشفعون لكم عنده والسؤال هنا سؤال تقريع وتشهير . أى أين هى لتنفعكم ؟

قال القرطبى: وهو سؤال إفضاح لا إيضاح . وقد ويخهم الله بقوله: أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ . مع أنهم محشورون معهم ، لأنه لا نفع يرجى من وجودهم معهم ، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب، وجعل

وجودهم لعدم نفعه كعدم وجودهم . كما تقول لمن جعل أحدًا ظهيرًا بعينه فى الشدائد ، إذا لم يعنه وقد وقع فى ورطة بحضرته، أين فلان؟ فتجعله لعدم نفعه ، وإن كان حاضراً كالغائب[٧٤] .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ . (الأنعام : ٩٤) .

٢٣- ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . يتلفت القوم إلى الشركاء فلا يجدون لهم أثرًا، ويخيل إليهم من ضلالهم أن فتنتهم وكفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به قد اختفى، وأنهم لن يؤخذوا بهذا الجرم الذى لا يقوم شاهد على وجوده، فيقولون كذبًا وبهتانا : وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

أو أنهم حين كشف الحجاب ورأوا البعث والحشر والحساب والجزاء وأن المُلك فى ذلك اليوم لله وحده أعلنوا إيمانهم بالله، وتبرءوا من الشرك فى وقت لا ينفع فيه ذلك وقريب منه رجاء المشركين أن يعودوا إلى الدنيا ليؤمنوا حيث يقولون: لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ١٠٢) .

قال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جدًا ، وذلك أنه تعالى بيّن كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين فى حبّه، فذكر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه ، وافتخروا به ، وقالوا إنه دين آبائنا ، لم يكن حين رأوا الحقائق إلا أن تبرءوا من الشرك ، وأقسموا على عدم التدين به .

ونظير هذا فى اللغة ، أن ترى إنسانًا يحب شخصًا مذموم الطريقة ، فإذا وقع فى محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له: ما كانت عاقبة محبتك لفلان : إلا أن تبرأت منه وتركته .

وجاء فى تفسير القرطبى ما يأتى:

قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم ، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ، ولا يغفر الشرك، فتعالوا نقل: إنا كنا أهل ذنوب، ولم نكن مشركين.

فقال الله تعالى: أما إذْ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم فيختم على أفواههم ، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك ، يعرف المشركون : أن الله لا يُكْتَمُ حديثًا، فذلك قوله:
يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا . (النساء : ٤٢) .

٢٤– انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ... الآية. أى انظر وتأمل وتعجب أيها العاقل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم حين قالوا:وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. فأنكروا ما وقع منهم فى الدنيا من الشرك.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ . أى زال وذهب افتراؤهم ، وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من أن الشركاء يقربونهم إلى الله، وفارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله، فلم يغن عنهم شيئًا .

قال الزمخشرى :

فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما خبرة ودهشًا: ألا تراهم يقولون رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكُّوا فيه، وَنَادَوْاْ يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ .. وقد علموا أنه لا يقضى عليهم[٧٥] .

★ ★ ★

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾
وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

المفردات:

أكنة : الأكِنَّة؛ الأغطية. جمع كنان .

وقرا : الوقر بالفتح؛ الثِّقَل في السمع، يقال: وَقِرَتْ أُذنُه من باب تَعِب ووعد: صَمَّتْ وثَقُل سمعها.

يجادلونك : يخاصمونك وينازعونك .

أساطير : أباطيل .

وينأون عنه : أى: يبعدون عنه .

التفسير:

٢٥– وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ... أى ومن هؤلاء المشركين والمكذبين من يستمع إليك استماع استعلاء وانتقاد فلا تتفتح قلوبهم للحق ولا تستجيب للهدى، فقد جعل الله عليها أغطية معنوية، من التكبر والعناد فلا يفقهون القرآن ولا يستجيبون لداعى الرحمن .

جاء فى كتب التفسير[٧٦] روى عن ابن عباس قال:

حضر عند النبى ﷺ، أبو سفيان، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، والحارث بن عامر، وأبو جهل، فى جمع كثير، واستمعوا إلى النبى ﷺ، وهو يقرأ القرآن، فقالوا للنضر يا أبا قتيلة، ما يقول محمد؟ فقال والذى جعل الكعبة بيته، ما أدرى ما يقول، إلاَّ أنى أراه يحرك شفتيه، ويتكلم بأساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية - وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، يحدث قريشًا بما يستمْلِحُونه، قال أبو سفيان: إنى لأرى بعض ما يقول محمد حقًّا، فقال أبو جهل: كلاَّ ... فأنزل الله الآية: وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا.

قال السيد رشيد رضا: وجعل الأكنة على القلوب، والوقر فى الآذان فى الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية، فإن القلب الذى لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الكنّ أو الكنان، وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شىء، والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبّر كالآذان المصابة بالثقل أو الصمم، لأن سمعها وعدمه سواء.[٧٧]

وقال الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة:

«وهنا يسأل سائل: إذا كان منع الهداية من الله تعالى بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها، وبالوقر فى آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر، فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابًا عسيرًا بالعذاب الآليم؟

والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى، يسير الأمور وفق حكمته العليا، فمن يسلك سبيل الهداية يرشده وينير طريقه ويثبته، ومن يقصد إلى الغواية ويسير فى طريقها تجيئه النُّذر تباعًا إنذارًا بعد إنذار، فإن أيقظت النذر ضميره، وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر، ومن لم تُجْدِ فيه النذر المتتابعة، ولم توقظ له ضميرًا، ولم تبصره من عمى، فقد وضع الله تعالى على قلبه غشاوة وفى آذانه وقرًا[٧٨].

وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ... الآية.

لقد عطلوا منافذ الإدراك فى قلوبهم ونفوسهم فإذا شاهدوا الآيات الدالة على صحة نبوة النبى محمد ﷺ أعرضوا عنها عنادًا واستكبارًا مع وضوح حجتها وظهور الحق فيها.

لأن قلوبهم وأسماعهم مستغرقة فى أنانيتهم وعنجهيتهم، فلا تستجيب للإيمان ولا تتقبل الهدى.

حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ . والمعنى أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاءوك محاولين منكرين للحق لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان ، بل يبحثون عن أسباب الردّ والتكذيب، ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة فيصفون القرآن بأنه يحكى أساطير الأولين، حين يحكى عن أخبار الأمم الغابرة من باب التمحّل والتماس أوهى الأسباب .

ورد أن مالك بن النضر كان يحفظ أساطير فارسيه عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس وكان يجلس مجلسًا قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلوا القرآن ، فيقول للناس: إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين، فعندى أحسن منها ، ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير فيصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم .

٢٦- وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ... الآية. النهى : الزجر ، والنأى : البُعْد . والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يكتفون بمحاربة الحق، بل يزجرون الناس عن اتباعه، ويبعدون أنفسهم عن الاستماع إليه والإنصات إلى صوت القرآن وجمال الوحى وقريب منه قوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَواْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصّلت : ٢٦) .

وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . إنهم حين يحاربون الإيمان فى أنفسهم، ويمنعون غيرهم عن الإيمان، لا يلهكون أحدًا بهذا التصرف الأحمق إلا أنفسهم . وما يشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم، حيث عرضوها لسخط الله فى الدنيا وعقابه فى الآخرة .

وقيل إن هذه الآية نزلت فى أبى طالب حيث كان ينهى الكفار عن إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم أو التعرض له بسوء ، ولكنه فى الوقت نفسه يبتعد عن دعوته فلا يؤمن بها . مع اعترافه بأن الإسلام هو الدين الحق، ومما روى عنه فى هذا المعنى قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسّد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر بذاك وقرّ منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنّك ناصحى	فلقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت دينًا قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتنى سمحًا بذاك يقينا

وإذا تأملنا السياق وجدنا أنه فى الحديث عن المشركين منهم الذين كانوا يحرّضون الناس على إيذاء النبى ﷺ وعلى الابتعاد عنه .

وهذا يرجح أن الآية لم تنزل فى أبى طالب ، وإنما نزلت فى مشركى مكة .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات:

ولو ترى إذ وقفوا على النار : حُبسوا عليها يوم القيامة ، ومن معانى الوقف الحبس .

يا ليتنا نرد : أى إلى الدنيا

بل بدا لهم ما كانوا يخفون : أى ما كانوا يخفون من نفاقهم وقبح فعالهم .

التفسير:

٢٧- وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِين . من أسلوب القرآن التنويع وتصريف القول .

وقد كان يحكى عن الكافرين إعراضهم عن الإيمان ومنعهم الناس منه، وهنا يعرض مشهدًا رهيبًا ، تذهب النفس فيه كل مذهب .

لَوْ . شرطية حذف جوابها لتذهب النفس فى تصوّره كل مذهب وذلك أبلغ من ذكره .

والمعنى : لو ترى يا محمد أو أيها السامع ، ما يحل بهؤلاء الكفار المعاندين من الفزع حين حُبسوا بقرب النار، معاينين لها ، لرأيت شيئًا مخيفًا لا يحيط به الوصف ، وهولاً مفزعًا لا تدركه العبارة .

وحين يعاينون هذه الأهوال يتمنون الرجوع إلى الدنيا ، والإيمان بما كذبوا به فى حياتهم .

وفى التعبير بقوله تعالى عَلَى النَّارِ . مما يشعر بأنّهم سيسقطون فيها وتبتلعهم ، وأنه لا مفر من ذلك .

فَقَالُواْ يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . أى يقول هؤلاء المشركون حين يرون النار ويحبسون عليها ، ليتنا نردّ إلى الدنيا حتى نتوب ونعمل صالحًا، ولا نكذب بآيات الله وحججه التى نصبها على وحدانيته وصدق رسله ، بل نكون من المصدقين بالله ورسله والمتبعين لأمره ونهيه .

وفى تمنيهم الردّ إلى الدنيا ، دليل على أنهم يلجأون حتى إلى المستحيل ، وهو عودتهم إلى الدنيا ، لشدة الضيق والحرج الذى هم فيه .

٢٨ – بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ... الآية. والمعنى ليس الأمر كما يوهمه كلامهم فى التمنى من أنهم يريدون العودة إلى الدنيا للهداية والإيمان ، بل ظهر لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر وسىء الأعمال، وعرفوا أنهم هالكون بشركهم فعدلوا إلى التمنى والمواعيد الكاذبة .

ويحتمل أن المراد: ظهر لهم حقيقة ما كانوا يخفونه فى قلوبهم من صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى أخباره ، وإن ادعوا فى مجامعهم تكذيبهم له.

وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ .. ولو ردّوا إلى الدنيا حسبما تمنوا لعادوا لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك .

وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . فى وعدهم بأن يكونوا مؤمنين، وإنما يقولون ذلك لمجرد الخلاص مما هم فيه.

كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وافتراء ، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم – على سبيل الفرض والتقدير– لما تخلفوا عن كفرهم، واتباع شهواتهم، ومحاربتهم للأنبياء والمصلحين .

٢٩ – وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . أى قال هؤلاء المشركون ليس هناك حياة سوى الحياة الدنيا ، ننعم فيها بكل ما نشتهى، ونتمتع بما استطعنا من متع وليس هناك بعث ولا حشر ولا جزاء .

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية تتمة للآية السابقة لها من حيث المعنى .

والتقدير . ولو ردّوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسىء الأعمال .

وقالوا ما الحياة إلا حياتنا الدنيا . ويكون قوله تعالى وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . جملة اعتراضية .

وفى تفسير هذه الآية تكلم صاحب الظلال كلامًا طويلاً عن حكمة الإيمان بالحياة الآخرة، فهى تجعل المؤمن غير محصور فى هذه الدنيا، بل يمتد إيمانه عبر الزمان والمكان، فيؤمن بدار آخرة فيها جنان عرضها السماوات والأرض، ومن هذا الإيمان يقوى يقينه حين يجاهد لإصلاح هذه الدنيا وإخفاق الحق ومحاربة الباطل .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟
يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾
وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات:

جاءتهم الساعة : الساعة : القيامة .

بغتة : فجأة .

ياحسرتنا : الحسرة: الندم الشديد على ما فات .

على ما فرطنا : التفريط : التقصير .

أوزارهم : آثامهم الكبيرة .

لعب ولهو : اللعب واللهو كلاهما ، الاشتغال بما لا يفيد العاقل ولا يهمه .

التفسير:

٣٠- وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ... الآية .

تتوالى مشاهد القيامة على هؤلاء المكذّبين، فمن مشهد الحشر والمحاكمة، إلى مشهد الوقوف على النار وهنا مشهد الوقوف على أمر ربهم فيهم . فهو المالك المتصرف فى ذلك اليوم .

والمعنى: ولو ترى - أيها المتأمل - هؤلاء المعاندين المكذبين ، وقد حبسوا على ما يكون من قضاء ربهم فيهم، لهالك أمرهم ولرأيت مالا يحيط به نطاق الكلام .

وجعلهم موقوفين على ربهم ، لأن من تقفهم الملائكة، وتحبسهم فى موقف الحساب امتثالاً

لأمر الله فيهم كما قال تعالى: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (الصافات : ٢٤) . يكون أمرهم مقصورًا على الله ، حيث لا سلطان فيه لغيره عز وجل : يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ. (الانفطار : ١٩) .

فهم وقد انتهى بهم الموقف إلى ما هم فيه من بلاء ، لا يقتصر أمرهم على ذلك ، بل يُسألون سؤال تأنيب وتبكيت :أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ . أى أليس هذا البعث الذى تنكرونه كائنا موجودًا ، وهذا الجزاء الذى تجدونه حاضرًا ؟

قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا . قالوا بلى: أى ما نحن فيه من الشدائد والأهوال حق نستحقه ولا شك فيه، وهكذا اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم .

قَالَ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . أى فباشروا العذاب ، وانغمسوا فى آلامه وأهواله بسبب كفركم الذى كنتم مصرّين عليه دائبين فيه .

والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه .

٣١– قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاءِ اللَّهِ ... الآية. لقد خسروا فى الدنيا حين ضحُوا بالحق والعدل والإيمان وأقبلوا على الشهوات وغرَّهم حطام الدنيا عن الآخرة، وخسروا فى الآخرة حين رأوا ما أعد الله للمؤمنين ، كما خسروا العزاء الروحى ، الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله .

حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً . أى وما زال هؤلاء على التكذيب حتى فاجأتهم الساعة بغتة بغير انتظار .

قَالُواْ يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا . أى قالوا متحسرين بأسلوب النداء ، للإشارة إلى شدة وقع المفاجأة عليهم ولذلك نادوا الحسرة نداء تفجع وقالوا: يا حسرتنا أقبلى فهذا أوانك، فإننا لم نستعد لهذا اليوم بل أهملناه ولم نلتفت إليه .

وعلى ذلك يكون المراد بالساعة يوم القيامة ، وقيل المراد بالساعة وقت مقدمات الموت . فلما كان الموت من مبادئ الساعة سمى باسمها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من مات فقد قامت قيامته» [٧٩].

وسمِّيت القيامة ساعة ، لسرعة الحساب فيها ، ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة ، فانية ، وأخرى باقية .

وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ. أى يحملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم .

والمعنى: أنها لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها كأنها على الظهور .

وقيل إن الكلام على حقيقته ، وأنهم سيحملون ذنوبهم على ظهوهم فعلاً حيث إن الذنوب والأعمال ستجسم يوم القيامة ، وبهذا الرأى قال كثير من أهل السنة .

أَلاَ ساءَ مَا يَزِرُونَ. أى بئس ما يحملون . أى يحشرون وما أثموا به على ظهورهم بغية تعذيبهم به.

قال الأستاذ سيد قطب: ومشهدهم كالدوابّ الموترة بالأحمال وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ.

بل الدواب أحسن حالاً ، فهى تحمل أوزاراً من الأثقال ولكن هؤلاء يحملون أوزارًا من الآثام ، والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح ، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجيحم، مشيعين بالتأثيم .

٣٢- وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... الآية. أى أن هذه الحياة التى نعتها الكفار بأنها لا حياة سواها وما هى إلا لهو ولعب لمن يطلبها بأنانية وشره ، من غير استعداد لما يكون وراءها من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء وفيها النعيم الذى لا ينتهى .

فالحياة الدنيا لعب ولهو لمن اتخذوها فرصة للتكاثر والتفاخر وجمع الأموال من حلال وحرام، ولم يقيموا وزنا للأعمال الصالحة التى كلفهم الله تعالى بها .

أما بالنسبة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فإن الحياة الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضا الله الذى يظفرون به يوم القيامة .

وَلَلدَّارُ الآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . أى وللحياة الآخرة، أكثر نفعًا وأعظم أجرًا للذين اتقوا ربهم وأطاعوا أمره واجتنبوا نواهيه، فكانوا فى الدنيا عاملين للخير ، سابقين لأهل الدنيا فى الدنيا وسابقين لهم فى الآخرة .

أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . أى أفلا تعقلون عما فى الآخرة من ثواب ونعيم ، فلا تعقلون أن الانصراف إلى الدنيا مهلك، وأن العمل للآخرة والإقبال عليها ، هو السعادة والنجاة ؟

والاستفهام فى قوله تعالى: أَفَلاَ تَعْقِلُونَ . للحث على التدبر والتفكر والموازنة بين اللذات العاجلة الفانية فى الدنيا وبين النعيم الدائم الذى يكون فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

أى أنتم لقصر نظركم تفضلون الدنيا لأنها أمام عيونكم الفانية ، والآخرة أطول نعيمًا وأبقى خلودًا ولو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لوجب إيثار ما يبقى على ما يفنى فكيف والحال إن الدنيا من خزف يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى :

إنما الدنيا كبيت		نسجته العنكبوت

كل ما فيها لعمرى		عن قريب سيموت

إنما يكفيك منها		أيها الراغب قوت

★ ★ ★

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ
إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) ﴾

المفردات:

ليحزنك : الحُزْنُ: الشعور بالألم عند وقوع مكروه .

يجحدون : الجحود والجحد ؛ نفى ما فى القلب إثباته أو إثبات ما فى القلب نفيه .

لكلمات الله : المراد من كلمات الله ؛ وعده للمؤمنين، ووعيده للكافرين .

نبأ : النبأ: الخبر ذو الشأن العظيم .

كبر عليك : شق عليك .

نفقا : الطريق النافذ، والسرب في الأرض النافذ فيها، وله مدخل ومخرج .

أوسلمًا : السلَّم الدرج، مشتق من السلامة لأنه يسلمك إلي الوضع الذى تريده .

الجاهلين : الجهل هنا ضدّ العلم، والمراد منه الجهل بما ينبغى العلم به .

التفسير:

٣٣- قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . كان صلى الله عليه وسلم حريصًا على هداية قومه، وكان يشق عليه تكذيبهم لهم ، وهنا يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

قد أحاط علمنا بحزنك مما يقوله هؤلاء المعاندون، وأنك مشفق عليهم من لجاجهم وشططهم ، ونحن معك أيها الحزين الآسف على كفر قومه .

إنهم لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر .

ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم لقد كانت فيها طبقات من الأغنياء والمترفين وهم أعرف الناس بصدق محمد وصدق رسالته ولكن الحرص على منافع الدنيا ، وقوة الجحود والإعراض عن الحق دفعتهم إلى المكابرة والعناد وعدم الدخول فى الإسلام .

وقد وردت روايات متعددة تدل على اعترافهم بصدق الرسول ، ولكن الحسد والغيرة والدوافع الشخصية والأنانية تحركت فى صدورهم فمنعتهم من الاستجابة للحق .

قال سفيان الثورى عن على قال: قال أبو جهل للنبى ﷺ : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله : فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .

وقد أورد صاحب الظلال طائفة من الروايات والأحاديث تؤيد اعتراف القوم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

من ذلك ما رواه ابن إسحاق قال: حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى: أنه حدّث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى من الليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسًا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائهم لأوقعتم فى نفسه شيئًا ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه وفعلوا مثل ذلك فى الليلة الثالثة، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك .

والقصة طويلة وهى تؤكد تصديق باطنهم للنبى ثم مكابرة عقولهم ، ورفضهم الإذعان حرصًا على مصالحهم الدنيوية .

وعن أبى يزيد المدنى أن النبى ﷺ لقى أبا جهل فصافحه فقال رجل لأبى جهل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ ؟

فقال والله إنى لأعلم أنه لنبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعًا ؟ وتلا أبو يزيد: فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .

فالآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبى ﷺ عما كان يصيبه من المشركين.

وفى معنى هذه الآية جاءت أيات كثيرة منها قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِم إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

ومنها قوله تعالى: فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ بِمَا يَصْنَعُونَ. (فاطر : ٨) .

ومنها قوله تعالى: فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ. (يس : ٧٦) .

ومن ذلك قوله تعالى: فى شأن قوم فرعون وتكذيبهم بمعجزات موسى: وَجَحدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل ١٤) .

٣٤– وَلَقَدَ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ... الآية. هذه الآية من جملة التسلية لرسول الله ﷺ ببيان ما عاناه الرسل السابقون بالدعوة ، حتى جاءهم نصر الله .

أى فاقتد بالرسل الذين من قبلك ، ولا تحزن ، واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأوذوا ، حتى يأتيك نصرنا ، كما أتاهم ، وأنت منصور على المكذبين ، ظاهر عليهم، وقد كان ذلك والحمد لله .

وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . أى لا مغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ، فسنة الله مستمرة وقوانينه باقية وأحكامه لا تنقض ، ووعده لا يتخلف .

بيد أن الله لا يعجل لعجلة العباد ويمهل ولا يهمل ومن قوانينه أن يبارك المجاهدين ، وأن ينصر المرسلين .

قال تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلى إِنَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقال سبحانه: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . (الصافات : ١٧١ : ١٧٣) .

وقال تعالى: إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . (غافر: ٥١) .

وبعض العلماء المحققين يرى أن المراد بكلمات الله شرائعه وصفاته وأحكامه وسننه فى كونه، ويدخل فيها دخولاً أو ليًا ما وعد الله به أنبياءه وأولياءه من النصر والظفر ، وهذا الرأى أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل .

وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ الْمُرسَلِينَ . أى ولقد قصصنا عليك من أخبار الرسل ما يثبت فؤادك ويطمئن نفسك ويبين كيفية إنجاء الله لهم ومن معهم من المؤمنين، وكيف أهلك الله المكذبين .

قال تعالى: وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . (هود: ١٢٠)

٣٥- وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ... الآية.
كان النبى ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ، ويتعاظمه ويحزن له ، وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يعطى الإنسان الفعل والإرادة والاختيار ، والتنوع فى الاستعدادات، والتنوع فى استقبال دلائل الهدى وموجبات الإيمان ، والتنوع فى الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات، قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود: ١١٨، ١١٩) .

ومعنى الآية :

وإن كان يا محمد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان ، وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سببًا فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلكًا عميقًا فى جوف الأرض، أو درجًا ترتقى عليه إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل، فإن ذلك لن يفيد شيئًا لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك عنادًا وجحودًا .

وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى. أى ولو شاء الله هداية الناس جميعًا، لجمعهم على ذلك، ولكن لم يرد ذلك ، حتى يتحقق معنى التكليف والاختبار والابتلاء والامتحان ، ويكافأ الإنسان أو يعاقب حسب اختياره بدون قسر أو إجبار، ولله الحكمة البالغة وهو الحكيم العليم .

فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . بحكمة الله فى خلقه وبسننه التى اقتضاها علمه .

قال الإمام الشوكانى: فإن شدة الحرص ، والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة ، قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ، ولست منهم .

وقال الأستاذ سيد قطب : من عدل الله تنوع الجزاء على الهدى والضلال لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكوينى ولكنه أمرهم بالهدى ، وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية، وتلقى الجزاء العادل فى نهاية المطاف ، فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلونه .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ .. يا لهول الكلمة ! ويا لحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذى يقتضى هول الكلمة وحسم التوجيه.

وفى القرآن الكريم: إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاء ... (القصص : ٥٦)

★ ★ ★

﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

المفردات:

إنما يستجيب : الاستجابة، هي الإجابة المقارنة للقبول .

والموتى : الكفار . تشبيها لهم بالموتى .

التفسير:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . بين الله فى آيات سابقة إعراض المشركين عن سماع دعوة الإسلام والاستجابة لها ، بسبب تعطيل مواهبهم عن التلقى والقبول . فقد أعرضوا بقلوبهم عن الاستجابة للحق فختم عليها جزاء عنادهم وكفرهم .

وفى هذه الآية يوضح الحق سبحانه للنبى ﷺ أهل الإيمان والاستجابة ، ومعنى الآية .

ما يجيبك يا محمد إلى الهدى، ويقبل منك شريعة الإسلام إلا الأحياء بقلوبهم الذين يسمعون سماع تفهم حسبما تقضيه العقول وتوجبه الأفهام .

وهؤلاء المشركون الذين لم يجيبوك ، ولم يهتدوا بهديك يشبهون الموتى ، لفقدهم ما يميز الأحياء عن الأموات ، من السماع والتدبر .

وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ . الواو للاستئناف وجوبًا ولزم الوقف قبلها .

والمعنى: والموتى يحييهم الله يوم القيامة .

ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . للحساب والجزاء ، فلا يشق عليك إعراضهم وأمرهم إلى الله الذى سيتولى عقابهم حين يبعثهم .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى
ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات:

لـــــــولا: حرف يدل على الحثّ والتّحضيض مِثل: هلاً .

نـــــــزل: المقصود من التنزيل ؛ الإظهار .

آيـــــــة: الآية، العلامة ، والمراد بها هنا : معجزة كونية تلجئهم إلى الإيمان .
كجعل الصفا ذهبا .. وسنوضح ذلك .

دابـــــــة: الدابة: ما يدب على الأرض ، أى يمشى على هيئته .

أمـــــــم: جمع أمة بمعنى ؛ جماعة .

التفسير:

٣٧- وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ . تذكر هذه الآية جانبا من تعنت المشركين، فقد أنزل الله القرآن على رسوله، وهو خطاب الله الأخير اشتمل على فنون الإعجاز فهو معجز بنصه وروحه ولفظه ومحتواه تحدّى به العرب والإنس والجن وسيظل آية باقية محفوظة إلى يوم القيامة .

بيد أن المشركين لم تكفهم هذه الآية العقلية بل طلبوا آية مادية تضطرهم إلى الإيمان كنزول الملائكة بمرأى ومسمع منهم، أو نتق الجبل أو تحويل الصفا ذهبًا ، أو تفجير أرض مكة ينابيع وبساتين وزحزحة الجبال من قلب مكة إلى ما حولها ، أو يكون للنبى ﷺ بيت من ذهب ، إلى غير ذلك من الآيات الملموسة التى اقترحوها فى سورة الإسراء فى الآيات ٩٠ : ٩٣ .

والمتأمل فى هذه الآيات المادية يرى أن الباعث عليها هو التعنت والعناد .

فلو كانوا طلاب حق لكفاهم ما أيد الله به رسوله من القرآن كما أيده الله ببعض المعجزات المادية التى وردت فى السنة الصحيحة ومنها .

انشقاق القمر ، ونزول المطر بدعاء النبى ﷺ ورفعه بدعائه أيضا، وتكثير الماء والطعام وحنين الجذع ، وغير ذلك .

وقد بيَّن الحق سبحانه الحكمة فى عدم الاستجابة لمطالب المشركين فقال: قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . لقد مضت سنة الله فى إنزال الآيات المادية أن يهلك المكذبين إذا لم يؤمنوا بعد نزولها ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بالآيات بعد وقوعها كما وقع من الأقوام قبلهم .

فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن ، فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى إمهالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم الذى لا يعلمون جرائره قال تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالأَيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا . (الإسراء : ٥٩) .

وقل عز شأنه: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّه مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

٣٨- وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ... الآية.

لفت القرآن نظر المخاطبين فى هذه الآية إلى بديع خلق الله وجميل صنعه .

فكلّ ما يدب على وجه الأرض من حيوان وحشرات وهوام وزواحف وفقّاريّات .

وكل ما يطير بجناحيه فى الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة أو غير ذلك من الكائنات الطائرة - ما من خلق حى فى هذه الأرض كلها إلا وهو ينتظم فى أمة ذات خصائص واحدة، وذات طريقة فى الحياة واحدة كذلك ، شأنها فى ذلك شأن أمة الناس .

والمقصود من قوله: إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . بيان أن حيوانات الأرض والبحر ، وطيور الجو ، إنما هى جماعات وطوائف لها مثل ما لنا من الخصائص فى الجملة .

فالنمل مثلا أمة أرضية لها تدبيرها فى السعى على رزقها ، وجمعه فى أجحارها ، استعدادًا لفصل الشتاء ، لتقتات به وهى مختبأة فيها طول الفصل . كما أن لها أميرة منها توجهها ، وتنظم مصالها ، ولها لغة تتفاهم بها .

كما يدل على ذلك قوله تعالى : حَتَّى إِذَا أَتَوْاْ عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَت نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلواْ مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ . (النمل : ١٨) .

وقد فهم سليمان عليه السلام لغتها قال تعالى : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ . (النمل : ١٩).

كما فهم سليمان صوت الهدهد ، وتبيَّن أن للهدهد رسالة فاضلة حيث اكتشف وجود مملكة سبأ وحمَّله سليمان رسالة إلى بلقيس ، وتمت القصة بإسلام بلقيس ودخولها فى طاعة الله رب العالمين، وكذلك للنحل لغة ومملكة ورئيسة يطلق عليها لغة «اليعسوب» وهذه الأميرة توجِّه أمتها من النحر وتدبِّر أمرها ، ولها نظام فى السعى على الرزق وبناء بيوت هندسية دقيقة تجمع فيها العسل ، وتحتضن البيض إلى غير ذلك من شئونها المختلفة .

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ... الآية. (النحل : ٦٨ : ٦٩) .

وهكذا شأن سائر الحيوانات الأرضية والبحرية والطيور الجوية ، فالآية فتحت آفاقا من العلم عن أمم أخرى : لها خصائص تقرب من خصائصنا ، ظلت مجهولة حتى عرفها الباحثون أخيرًا عن طريق التجربة .

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ .

﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ . ما ضيعنا أو ما أهملنا

﴿الْكِتَابِ﴾ . اللوح المحفوظ، أو كتاب الكون ، أو القرآن الكريم .

والمعنى:

١ – لقد أثبتنا فى اللوح المحفوظ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

٢ – أو أن هذا الكون منظم بديع قد أتقن الله صنعه ويسر لجميع المخلوقات أرزاقها وحياتها ومعايشها . كما يسَّر حركة الكون بما فيه من سماء وفضاء وأرض وأفلاك وأملاك .

٣ – أو ما تركنا فى القرآن شيئًا من الأشياء الهامة فى الدنيا والدين ، ومن جملتها بيان أنه تعالى مراع لصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغى .

قال الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن :

إن هذه الآية القصيرة ، لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل أو التدبير الواسع، والعلم المحيط والقدرة القادرة لله ذى الجلال .

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ. تحشر جميع الأمم من أول آدم إلى يوم القيامة وتقف أمام الله للحساب والجزاء.

وقيل المراد من الحشر المذكور حشر الكفار والمراد بالحشر لازمه وهو الحساب والجزاء .

وقيل المراد من الحشر حشر دوابٍّ الأرض وطيور الجو كما يحشر الناس، فينصف الله بعضهم من بعض روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

«لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (٨٠) .

والشاة الجلحاء : التى ليس لها قرن .

وهذه الحيوانات وإن كان القلم لا يجرى عليها فى الأحكام ولكنها تؤَاخذ فيما بينها .

والحديث مقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه، أنه لا بد لكل أحد منه .

وقد صحح هذا الوجه الإمام القرطبى فى تفسيره للآية .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلت ما الغرض من ذكر هذه الآية ، قلت الدلالة على عظم قدرة الله وسعة سلطانه ، وتدبير الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف وهو حافظ لما لها ، وما عليها ، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن وأن المكلفين ليسوا مخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الأمم...

وفى ختام الآية . ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ . ويرى بعض العلماء أن المراد بحشر البهائم موتها، ويرى آخرون أن المراد بعثها يوم القيامة لقوله تعالى وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ .

★ ★ ★

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٩) ﴾

المفردات:

صُـــــمٌّ: جمع أصم، وهو: من ثَقُل سمعه .

وبـــكـــم: جمع أبكم وهو من لا يستطيع الكلام خلقة فِعله بكم يبكم بكما .

صـــراط: طريق جمعه صُرُط ، وأصله السراط بالسين .

التفسير:

٣٩- وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ... الآية. بينت الآية السابقة أن الكون كله منظم مهيأ للمعاش ، يدلُّ دلالة واضحة على أن يدًا حكيمة ترعاه وتمسك توازنه ونظامه بيد أن بعض الأشقياء يعرض عن رؤية هذه الدلالات ببصيرته ، أو يعرض عن استماع آيات القرآن استماع تفهم أو استجابة ، هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله القرآنية أو الكونية ولم يهتدوا بهداها ، مثلهم كمثل الصم الذين لا يسمعون، البكم الذين لا يتكلمون ، الذين احتوتهم الظلمات فلا يبصرون ، فكيف يهتدى هؤلاء إلى سواء السبيل وهم بهذه الهيئة ؟

مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . هذه الجملة مقررة لما سبق من حالهم ، مقيدة أنهم مقيمون على الضلال فلا يستغرب تكذيبهم.

والمعنى : مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ . لفساد طويته واختياره الضلالة على الهدى وَمَن يَشَأْ . هدايته – لحسن اختياره – يجعله على طريق مستقيم فى العقيدة والأخلاق ويوفقه لصالح الأعمال .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) ﴾

المفردات:

أرأيـــتـــكـــم: أخبرونى .

السَّـــاعـــة: هى القيامة. وسميت بذلك لأنها تَفْجَأُ الناس فى ساعة علمها عند الله . والمراد بها أهوالها.

وتـــنســـــون : وتتركون .

التفسير :

٤٠ - ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ . أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، تبكيتًا لهم على عبادة الله تعالى ، أخبرونى عن حالكم عندما يداهمكم عذاب الله الدنيوى كزلزال مدمّر . أو ريح صرصر عاتية ، أو تفاجئكم الساعة بأهوالها وشدائدها، ألستم فى هذه الأحوال تلتجئون إلى الله وحده ، وتنسون ألهتكم الباطلة لأن الفطرة حينئذ هى التى تنطق على ألسنتكم بدون شعور منكم؟ وما دام الأمر كذلك فلماذا تشركون مع الله آلهة أخرى ؟

إن أحوالكم هذه لتدعو إلى الدهشة والغرابة ، لأنكم تلجئون إليه وحده عند الشدائد والكروب ، ومع ذلك تعبدون غيره ، ومن لا يملك ضرًا ولا نفعاً .

ثم أكد سبحانه أنهم عند الشدائد يلجئون إلى الله تعالى، فقال :

٤١ - ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ . أى ليس غير الله تدعون ، بل تخصونه - وحده - بالدعاء دون آلهتكم ، فيكشف ما تلتمسون كشفه إن شاء ذلك ، لأنه هو القادر على كل شيء، ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ . أى تغيب عن ذاكرتكم عند الشدائد والأهوال تلك الأصنام الزائفة والمعبودات الباطلة .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

المفردات :

بـــالـــبـــأســـاء : بالداهية والشدة .

والضـــــــــراء : والضُّر .

لعلهم يتضرعون : لكي يدعوا الله في تذليل وخضوع .

فـــــــلـــــــولا : بمعنى هَلاَّ . وهى هنا ؛ للتوبيخ والتنديم وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

التفسير:

٤٢- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾. هذا كلام مستأنف لتسلية الرسول ﷺ بذكر ما حدث لإخوانه المرسلين من إعراض أقوامهم وعدم تأثرهم بالزواجر، فإن البلوى إذا عمّت هانت.

والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أقوامهم، فكان هؤلاء الأقوام أعتى من قومك فى الشرك والجحود، فعاقبناهم بالفقر الشديد، والبلاء المؤلم. لعلهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشركهم.

فالآية الكريمة تصوّر لونًا من ألوان العلاج النفسى الذى عالج الله به الأمم التى تكفر بأنعمه وتكذب أنبياءه ورسله، إذ أن الآلام والشدائد علاج للنفوس المغرورة بزخارف الدنيا ومتعها، إن كانت صالحة للعلاج.

ثم بين سبحانه أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها فى شدائد فقال سبحانه.

٤٣- ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. ولولا هنا للنفى، أى أنهم ما خشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا.

وقيل إنها للحث والتحضيض، بمعنى هلاً، أى فهلاً تضرعوا تائبين إلينا وقت أن جاءهم بأسنا.

والمعنى: فهلاً حين جاءهم بأسنا وشدتنا ابتهلوا إلينا خاضعين مستغفرين، ولكنهم استمروا فى غيّهم وقد حال بينهم وبين الالتجاء إلى الله أمران:

الأول: قسوة قلوبهم أى أنها غلظت وجمدت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة.

الثانى: تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة بأن يوحى إليهم بأن ماهم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب، وأن ما أتاهم به أنبياؤهم ليس خيرًا لأنه يتنافى مع ما كان عليه آباؤهم.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات:

نسوا ما ذكروا به : تركوا الاتعاظ بما خُوِّفوا به ، وهو: البأساء والضراء .

بغتة : فجأة .

مبلسون : متحيرون، آيسون من النجاة .

فقطع دابر القوم : فأهلك آخرهم . من دَبَرَهُ ؛ إذا كان خلفه، وقَطْع دابرهم: كناية عن إهلاكهم حتى آخرهم وهذا يستلزم – قبل ذلك – إهلاك أولهم بالضرورة.

التفسير:

٤٤ – فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ .

والمعنى: فلما أعرضوا عن النذر والعظات التى وجهها إليهم الرسل، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق وأسباب القوة والجاه ، حتى إذا اغتروا وبطروا بما أوتوا من ذلك أخذناهم بالعقاب فجأة فإذا هم متحيرون يائسون .

والتعبير بقوله تعالى: فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . يرسم صورة بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها ، وبكلّ قوتها وإغرائها ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضرّاء.

وكان الأخذ بغتة وفجأة ليكون أشد وقعا وأفظع هولاً ، أى أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم، أو حال كونهم مبغوتين فقد فاجأهم العذاب على غرّة بدون إمهال .

وإذا فى قوله تعالى: فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ . فجائية ، والمبلس الباهت الحزين اليائس من الخير الذى لا يحير جوابًا لشدة ما نزل به من سوء الحال .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيت الله يُعطى العبد من الدنيا – على معاصيه – ما يحبّ، فإنما هو استدراج ، ثم تلا رسول الله ﷺ : فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ . (٨١) .

٤٥ – فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أى فأهلك الله تعالى أولئك الأقوام عن آخرهم بسبب ظلمهم وفجورهم ، والحمد لله رب العالمين الذى نصر رسله وأولياءه على أعدائهم .

وقد ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . تعليم لنا إذ أن زوال الظالمين نعمة تستوجب الحمد والثناء على الله تعالى.

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ
ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات:

وختم على قلوبهم : أى غطاها فأصبحت لا تعقل .

نُصرِّف الآيات : الصرف ردّ الشىء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، ومعنى نصرف الآيات هنا، أى نكررها على وجوه شتى .

جهرة : أى علنا: يقال جهر بصلاته يجهر جهرًا . أعلنها .

التفسير:

٤٦ – قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ . أى قل أيها الرسول لقومك : أخبرونى – إن أذهب الله سمعكم وأبصاركم، وغطّى على قلوبكم ، فصرتم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون – أىُّ هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه يأتيكم بما أخذه منكم .

قال الأستاذ سيد قطب:

وهذا مشهد تصويرى يجسّم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور له حقيقة ما يشركون به من دون الله من جانب ، ولكن هذا المشهد يهزّهم من الأعماق ، ليدركوا أن الله قادر على أن يفعل بهم هذا ، قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار وأن يختم على القلوب، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدّى وظائفها . وأنه سبحانه إن فعل ذلك ، فليس هناك من إله غيره يرد بأسه .

ثم التفت القرآن عنهم إلى التعجب من حالهم فقال :

انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ . أى انظر وتعجب يا محمد كيف نبين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب : ما بين حجج عقلية، وتوجيه إلى آيات كونية، وترغيب وترهيب وتنبيه وتذكير ثم بعد ذلك كله يعرضون عن الحق .

٤٧ – قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ .

والمعنى: قل لهم أيها الرسول الكريم أخبرونى عن مصيركم إن أتاكم عذاب الله مباغتًا ومفاجئًا لكم من غير ترقب ولا انتظار ، أو أتاكم ظاهرًا واضحًا بحيث ترون مقدماته ومبادئه ، هل يهلك به إلا القوم الظالمون؟

والاستفهام فى قوله تعالى: هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ . للتقرير .

أى هل يهلك – انتقامًا بهذا العذاب أو ذاك – سواكم أيها القوم الظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصى .

وقد صحت مقابلة البغتة بالجهرة، لأن البغتة ما كانت مقدماتها خفية ، فقوبلت بالجهرة الظاهرة التى تسبقها علامات .

وقيل عذاب البغتة ما كان ليلاً لأن الغالب فيه ذلك وعذاب الجهرة ما كان نهارًا . قال تعالى: قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . (يونس : ٥٠) .

★ ★ ★

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات:

مبشرين ومنذرين: التبشير: الإخبار بما يسر، والإنذار: التخويف مما يضر.

يمسهم العذاب: أى يصيبهم.

يفسقون: يخرجون عن طاعة الله بالكفر والمعاصى

التفسير:

٤٨- وَمَا نُرْسِلُ الْمُرسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ .

قال القاضى أبو السعود: هذا كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق وتحقيق ما فى عهدة الرسل عليهم السلام، وإظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه – عليه السلام – ليس مما يتعلق بالرسالة أصلاً، وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية[٨٢].

ومعنى الآية: وما نبعث المرسلين إلا مبشرين للمؤمنين الصالحين بحسن الثواب، ومنذرين للمكذبين الفاسقين بسوء العقاب، لا ليقترح عليهم غير ما جاءوا به من الآيات، فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح فى عمله فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذى يحلّ بالمكذبين، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم.

٤٩- وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بَآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

هذه الآية كشف للوجه الآخر من دعوة الرسل، وأنه إذا آمن بهم كثير من الناس فقد كفر بهم كثير من الناس أيضًا ولكلٍ من المؤمنين والكافرين حسابه وجزاؤه ..[٨٣]

يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ . والفسوق هو الخروج، يقال فسق الفرخ من البيضة إذا خرج منها والفاسق هو من يخرج عن حدود الله. قال تعالى: إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . (الكهف: ٥٠)

وفى قوله تعالى: يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ. إشارة إلى أن عذاب الله شديد لا يطاق وأن مسّة من هذا العذاب تحيل حياة من تصيبه إلى شقاء دائم وبلاء متصل. نعوذ بالله من عذاب الله.[٨٤]

★ ★ ★

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

المفردات:

خزائن الله: المراد بها؛ خزائن مقدوراته؛ كما قال الجبائى.

الأعمى والبصير: المراد بهما؛ الضال والمهتدى.

التفسير:

٥٠ – قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ.. الآية. هذه الآية الكريمة تردّ على المشركين فى ما اقترحوه على الرسول ﷺ من معجزات أو آيات.

وتبيّن أنّ وظيفة الرسول هى تبليغ الرسالة التى كلف بها فهو لا ينشىء الرسالة ولكن يبلّغ ما كلّف به من الله تعالى.

والنبى لا يملك للناس سعة من الرزق، لأنه يُرزق مثلهم، ولا يرزق غيره، قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ. فخرائن الله لله يُعطى منها ما يشاء لمن يشاء.

والنبى لا يعلم الغيب، ولا يدرى ما يطلع به يومه أو غده فعالم الغيب والشهاة هو الله.

والنبى بشر من البشر وإنسان من الناس، هو مثلهم مقيد بقيود هذا الجسد البشرى، وليس هو ملك من ملائكة الرحمن، يستطيع أن يفعل مالا يفعله الإنسان من خوارق ومعجزات.

وكان المشركون قد طلبوا من النبى أن يقلب الجبال ذهبًا، وأن يفجر ينابيع الأرض ليزرعوا على مياهها الصحراء، واقترحوا عليه أن يرقى فى السماء كما تفعل الملائكة، واستكثروا عليه أن يأكل الطعام أو أن يمشى فى الأسواق كما يفعل سائر الناس.

إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ. أى ما أفعل إلا اتباع ما يوحى

إلىّ، من غير أن يكون لدى مدخل مًا فى الوحى أو فى الموحى به بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلاً .

إن الرسل بشر يوحى إليهم برسالة ليبلغوها للناس ولا يتطلعون إلى صفات تزيد عن صفات البشر كعلم الغيب ، أو ملك خزائن الله ، أو تملك صفات الملائكة .

إنما الرسل عباد الله يتبعون تعاليم الوحى فى تبليغ الوحى للناس والعمل بمقتضاه ليكون الرسول قدوة عملية أمام قومه .

قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .

من أجل هذا كان الرسول بشرًا ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويتزوج النساء ويولد له الأولاد ، ويموت بعض أولاده ، ويحزن عليهم ويتعرض للبلاء فى غزوة أحد وغيرها من المعارك حتى تتم القدوة والأسوة العملية فى حياة الناس .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ . أى لا يمكن أن يستوى الضالّ الشبيه بالأعمى – فى عدم تبيّن الحقائق – بالمهتدى الشبيه بالمبصر فى استجلاء الأمور .

أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ . استفهام إنكارى للحث على التفكير والتأمل ليستقبلوا آيات . النور والهدى. إن أرادوا لأنفسهم النجاة والخير .

★ ★ ★

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات:

وأنـــــذر : الإنذار ، التخويف .

ولـــــى : ناصر .

شـــفـــيـــع : الشفيع ؛ من يرجو رفع ضُر ، أو جلب خير لغيره .

التفسير:

٥١– وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

والمعنى: اتجه يا محمد بهذا الكتاب إلى الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وأنذر به الذين يخافون سوء الحساب يوم القيامة ، حالة أن ليس لهم من دونه ولى ينصرهم، ولا شفيع يخلّصهم، ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه .

فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم ، الذى ليس فيه – من دون الله – ولى ولا شفيع، أحقّ بالإنذار وأسمع له، وأكثر انتفاعًا به ... لعلهم أن يتوقوا فى حياتهم الدنيا، ما يعرضهم لعذاب الله فى الآخرة .

فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح ، بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقّى والحذر ، فلا يقعون فيما نهوا عنه بعد ما تبين لهم .

قال الإمام الشوكانى فى فتح القدير :

وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ . لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف من الله، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له ، فإنه لا يؤثر فيه ذلك .

فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين ، وأهل الذمة وبعض المشركين، وإن لم يكن مصدقًا به فى الأصل لكنه يخاف أن يصحّ ما أخبر به النبى ﷺ ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع .

لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ . لا ولىّ لهم يواليهم ، ولا نصير يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم عند الله لينجيهم من عذابه .

وفيه رد على من ز عم من أهل الكتاب أن آباءهم يشفعون لهم وعلى من زعم من الكفار أن أصنامهم تشفع لهم .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات:

بالغداة والعشى : الغداة والغدوة أوّل النهار ، والعشىّ جمع عشية ، وهي آخر النهار .

فتنا : ابتلينا، يقال فتنه يفتنه فتنة ، أى ابتلاه وأضلّه وأحرقه واختبره .

التفسير:

٥٢ - وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ . أى لا تبعد أيها الرسول عن مجالسك هؤلاء المؤمنين الفقراء الذى يدعون ربّهم صباح مساء ، ويريدون بعملهم وعبادتهم وجه الله وحده، بل اجعلهم جلساءك وأخصّاءك فهم أفضل عند الله من الأغنياء والمتغطرسين ، والأقوياء الجاهلين.

جاء فى تفسير ابن كثير ، فى سبب نزول الآية، ما رواه الإمام أحمد وغيره، ونقله الأستاذ سيد قطب بأسلوبه فقال:

إن جماعة من أشراف العرب ، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام ، لأن محمدًا ﷺ يؤوى إليه الفقراء والضعاف ، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخبَّاب وسلمان وابن مسعود ومن إليهم وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق ، لفقرهم ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش فى مجلس واحد ، فطلب هؤلاء الكبراء إلى الرسول ﷺ أن يطردهم عنه .. فأبى .. فاقترحوا أن يخصص لهم مجلسًا ، ويخصص للأشراف مجلسًا آخر ، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف ، كى يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم فى المجتمع الجاهلى ! فَهَمَّ صلى الله عليه وسلم رغبةً فى إسلامهم أن يستجيب لهم فى هذه ، فجاء أمر الله تعالى: وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .

وروى مسلم عن سعد بن أبى وقاص، قال: كنَّا مع النبى ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء عنا لا يتجترئون علينا ! فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل الآية [٨٥] .

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ .

إن الله تعالى هو الذى سيتولّى حسابهم وجزاءهم ولن يعود عليك من حسابهم شىء ، كما أنه لا يعود عليهم من حسابك شىء فهم مجزيون بأعمالهم، كما أنك مجزى لعملك .

وكان الأغنياء قد طعنوا وعابوا على النبىّ مجالسة الفقراء ، وطعنوا فى هؤلاء الفقراء وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف، وما يسببه وجودهم فى مجلس النبى ﷺ من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام .

فبين الحق سبحانه أن الله لا ينظر إلى صور الناس ولا إلى أموالهم ، وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم .

وهؤلاء الفقراء، الراغبون فى الإسلام ، لا يعيبهم فقرهم ما دامت قلوبهم غنية بالإيمان والرغبة فيما عند الله .

قال الإمام الشوكانى :

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ . أى حساب هؤلاء هو على أنفسهم، ما عليك منه شىء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شىء ، فعلام تطردهم ؟

أى فأقبل عليهم ، وجالِسْهم ، ولا تطردهم .

فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . أى إن طردتهم كنت من الظالمين . وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون من الظالمين.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلت: أما كفى قوله: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ . حتى ضم إليه: وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ.؟ قلت كيف جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة ، وقصد بهما مؤدى واحد ، وهو المعنى فى قوله: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعًا ، كأنّه قيل لا تؤاخذْ أنت ولا هم بحساب صَاحِبِهْ .

وجاء فى تفسير الآية للدكتور محمد سيد طنطاوى .

وهنا تخريج آخر لقوله:

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ . بأن المعنى : ما عليك شىء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء ، وما من حسابك فى الفقر والغنى عليهم من شىء .

أى أنت مبشر ومنذر ومبلغ للناس جميعًا، سواء منهم الفقير والغنى ، فكيف تطرد فقيرًا لفقره، وتقرب غنيًا لغناه؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك .(٨٦) .

وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام لا يميّز بين الناس بالمال والرياسة ، بل بالإيمان والعمل الصالح، وإن كانوا فقراء معدمين، وعلى أن الأمراء مطالبون بإعطاء الفقراء حقهم من مجالس العلم ودوره، وألا يمنعوهم عن مجالسة الأغنياء فيها .

٥٣– وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ . شاءت إرادة الله تعالى، أن يختبر بعض الناس بالغنى والجاه وأن يمنح بعض الناس الهداية والعلم مع فقرهم .

ومن الناس من لم يدرك هذه الحكمة السامية فى توزيع أرزاق العباد ، فالمال رزق والهداية رزق والتقوى رزق والله أعلم حيث يوزع أرزاقه ومواهبه .

وقال الدكتور سيد طنطاوى:

ومعنى الآية: ومثل ذلك الفَتْن ، أى الابتلاء والاختبار ، جعلنا بعض البشر فتنة لبعض ليترتب على هذا الفَتْن أن يقول المفتونون الأقوياء فى شأن الضعفاء: أهؤلاء الصعاليك خصّهم الله بالإيمان من بيننا ! وقد ردّ عليهم بقوله: أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ . أى أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم (٨٧) .

وقد ذكر القرآن أن هذا المعنى فى كثير من آياته ، مثل: وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ . (الأحقاف :١١) .

وفى قصص الأنبياء السابقين ، نجد الأغنياء يقولون لنوح عليه السلام: وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ . (هود : ٢٧) .

وفى سورة الكهف يقول الله تعالى: وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا * وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . (الكهف : ٢٨ : ٢٩) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات:

بجهالة : بِسَفَهٍ وسوء رأى .

ولتستبين : ولتتضح .

سبيل المجرمين : طريق أهل الذنوب .

التفسير:

٥٤ - وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ذهب بعض المفسرين إلى أنَّ هذه الآية تخص السابقين إلى الإسلام الذين سخر منهم الكبراء والأشراف ، فقد أُمر الرسول ﷺ أن يبدأهم بالسلام ، وأن يبشرهم بما لزم الله به نفسه من رحمة عباده وقبول توبتهم ، متى تابوا وأصلحوا .

قال الإمام الشوكانى فى فتح القدير:

وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا : هم الذين نهاه الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ . تطييبًا لخواطرهم وإكرامًا لهم، وقد كان النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم بالسلام.

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . أى أوجب ذلك على نفسه إيجاب فضل وإحسان، وقيل: كتب ذلك فى اللوح المحفوظ ، وقيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه. بإبلاغه إلى أولئك تبشيرًا بسعة مغفرة الله وعظيم رحمته .

ويرى بعض المفسرين : أن هذه الآية الكريمة ليست خاصة بالمنهىِّ عن طردهم من ضعفاء المؤمنين .

بل هى دستور عام لجميع المؤمنين المقصِّرين إذا ما تَابوا وأصلحوا .

والمعنى: وإذا جاءك – يا محمد – الذين آمنوا، وقد أصابوا بعض الذنوب ، فقل تبشيرًا لهم: سلام عليكم ، أى مسالمة من الله ربكم ، وتلك المسالمة هى أنه تعالى قضى على نفسه بالرحمة لعباده: تفضيلاً ، وذلك أنه من عمل منكم سوءًا أى ذنبا – بجهالة – أى سفهٍ وسوء رأى فشأنه تعالى: أنه غفار للذنوب رحيم بعباده فلا تقنطوا من رحمة الله(٨٨) .

ومن المعروف فى كتب علوم القرآن أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالآية عامة لجميع المؤمنين ، وما فيها من رحمة الله بعباده ، وتوبته على المذنبين ، ورحمته بالعصاة، ومغفرته للنادمين ، أمر قد ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

فالتوبة النصوح، إذا قرنت بالندم على فعل الذنوب ، وصدق الالتجاء إلى الله ، والانتقال من فعل الذنب، إلى فعل الصلاح وامتثال المأثورات واجتناب المنهيات هذه التوبة جديرة بالقبول إن شاء الله .

قال تعالى: إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوَلئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَّحِيمًا* وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى الله مَتَابًا . (الفرقان : ٧٠ : ٧١) .

وقال عز شأنه: نَبِّئ عِبَادِىَ أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ . (الحجر : ٤٩ : ٥٠) .

وقال سبحانه: غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ . (غافر : ٣) :

وقال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣) .

وقال تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . (آل عمران : ١٣٥ : ١٣٦) .

وقال تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . (النساء : ١٧) .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى يا عبادى هل من داعٍ فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له حتى يطلع الفجر(٨٩) .

وفى الحديث الشريف: «إن الله يمد يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويمد يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[٩٠].

وفى القرآن الكريم: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . (البقرة: ٢٢٢).

٥٥ - وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ . وضّح الحقُّ سبحانه قاعدة أساسية بالنسبة للدعاة والهداة فالناس جميعًا أمام الله سواء لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى، الناس يتفاضلون عند الله بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح.

وموازين الناس عند الله هى مدى اقترابهم من الحق والصدق والخير والمعروف.

وقد وضحت الآيات السابقة أن أبواب الدعوة يجب أن تظل مفتوحة أمام الجميع، وكذلك أبواب المساجد والمعاهد والمدارس، لا ينبغى أن يكون الفقر عائقا لصاحبه عن أن ينال حقه، وأن يأخذ نصيبه.

إن هذه المبادئ التى حملها وحى السماء إلى الناس فى بدء الإسلام قد أرست قيمًا، وبينت أسسًا من أسمى ما اهتدت إليها البشرية فى تاريخها.

وهذه الآية تعقيب على ما سبق من توضيح الحقائق أمام الأغنياء والفقراء فى وقت واحد ومكان واحد.

ومعنى الآية: ومثل ذلك التبيين الواضح فى صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام تبين سائر الآيات لما له من فوائد كثيرة، وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ . أى ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فعندئذ يحذرهم المسلمون ويتحاشونهم لأن طريق المجرمين غير طريق المؤمنين، ولأن معرفة الخير لا تكفى فى هذه الحياة، بل ينبغى أن نعرف الشرّ حتى نحذره، ونعرف طريق المجرمين وأعمالهم حتى نتجنب هذا الطريق.

وقد حذّر القرآن الكريم من الخمر والميسر والكفر والكبر والظلم وسائر الموبقات. كما حذّر من سلوك طريق المجرمين.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (النحل: ٩٠).

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ
إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي
مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ
عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات:

تدعون : تعبدون .

بينة : حجة .

يقص الحق : يتبع الحكمة .

التفسير:

٥٦ - **قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ قُل لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ.**

تستمر سورة الأنعام فى بيان حقيقة الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، فالإله واحد ، واحد فى ذاته، واحد فى صفاته، واحد فى أفعاله .

وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك .

«وقد كان المشركون يدعون رسول الله ﷺ أن يوافقهم على دينهم ، فيوافقوه على دينه ! وأن يسجد لآلهتهم فيسجدوا لإلهه ،! كأن ذلك يمكن أن يكون !

وكأنَّ الشرك والإسلام يجتمعان فى قلب ! وكأن العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه، وهو أمر لا يكون أبدًا»[٩١] .

ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك أن تركن إليهم إن الله نهانى وصرفنى بفضله ، وبما منحنى من عقل مفكر عن عبادة الآلهة التى تعبدونها من دون الله، وقل لهم بكل صراحة وإيجاز وحسم إنى لست متبعا لما تمليه عليكم أهواؤكم وشهواتكم من انقياد للأباطيل، ولو أنى ركنت إليكم لضللت عن الحق وكنت خارجًا عن طائفة المهتدين .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

«اعلم أنه تعالى – لما ذكر فى الآية المتقدمة ما يدل على أنَّه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين ، ذكر فى هذه الآية أنه تعالى نهى عن سلوك سبيلهم فقال :

إنِّى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد لا على سبيل الحجة والدليل، لأنها جمادات وأحجار وهى أخس مرتبة من الإنسان بكثير ، وكون الأشرف مشتغلاً بعبادة الأخسّ أمر يدفعه صريح العقل ، وأيضًا فالقوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها ، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه ، فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى ومضادة للدين» أ. هـ .

٥٧ – قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِ... الآية. والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذى يريدون منك اتباع أهوائهم كيف يتأتى لى ذلك وأنا على شريعة واضحة وملة صحيحة ، لا يعتريها شك ولا يخالطها زيغ لأنها كائنة من ربِّى الذى لا يضل ولا ينسى .

والتنوين فى كلمة بينَةٍ للتفخيم والتعظيم ، وهى صفة لموصوف محذوف ، أى على حجة بينةٍ واضحة محقة للحق ومبطلة للباطل فأنا لن أتزحزح عنها أبدًا .

وفى هذا تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، وإنما هم قد اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ . أى ليس فى مقدورى أن أنزل بكم ما تستعجلونه من العذاب ، وإنما ذلك مرجعه إلى الله وحده ، فهو وحده الذى يقص الحق ويخبر به، وهو وحده الذى يفصل فى قضايا خلقه، وهو خير الفاصلين فى شئون عباده، وهو يرى الحكمة فى إمهالكم فأمهلكم .

«وبذلك يجرد الرسول – ﷺ – نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل فى شأن القضاء الذى ينزله الله بعباده ، فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها ، وهو بشر يوحى إليه ليبلغ وينذر ، لا لينزل قضاء ويفصل ، وكما أن الله سبحانه هو الذى يقص الحق ويخبر به ، فهو كذلك الذى يقضى فى الأمر ويفصل فيه .. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله سبحانه وتعالى وخصائصه ، عن ذوات العبيد»[٩٢] .

٥٨- قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ . أى لو كان العذاب الذى تستعجلون به عندى وفى قبضتى لطلبت من ربّى أن يعجل به غضبًا لأجله بسبب كفركم .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

أى لأهلكتكم عاجلاً غضبًا لربّى ، وامتعاضًا من تكذيبكم به ولتخلصت منكم سريعًا . ا. هـ .

لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . بإنزال هذا العذاب بكم والتخلص من كفركم وشرككم .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ . فهو يمهلهم عن علم ، ويملى لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون ثم ينزل بهم العذاب الأليم .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات:

مفاتح : جمع مِفْتَح أو مِفتاح – بكسر الميم فيهما ، وهو أداة الفتح . والمراد بمفتاح الغيب: أسباب علمه .

فى كتاب مبين : الكتاب المبين هو علم الله .

التفسير:

٥٩- وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ... الآية. تصوّر هذه الآية علم الله تعالى الشامل المحيط لهذا الكون، فلا يندّ عن علم الله شىء فى الزمان ولا فى المكان ، فى الأرض ولا فى السماء ، فى البر ولا فى البحر، فى جوف الأرض ، ولا فى طبقات الجوّ ، من حى وميت ويابس ورطب .

أى أن الله سبحانه وتعالى استأثر بعلم الغيب فلا يعلمه أحد سواه ، إنه هو الذى خلق الإنسان، وكتب أجله ورزقه. وشقى أو سعيد، وهو المحيط علمًا بما فى البر والبحر وخصهما بالذكر لأنهما مشاهدان أمام الإنسان وهما رمز لإحاطة علم الله الشامل بكل ما فى الكون .

والمعنى: ويعلم ما في البر والبحر من أجزائهما ، وما ظهر أو خفى فيهما : من الإنسان والحيوان والنبات والسوائل، والجوامد ، والأدهنة والأبخرة ، وعناصرها وذراتها ، ومكونات هذه الذرات .

وقد صرح الحق سبحانه بشمول علمه لكل كلى وجزئى، ولكل صغير وكبير ، ولكل دقيق وجليل فقال سبحانه .

وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ، وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . أى وما تسقط ورقة ما من شجرة من الأشجار ، ولا حبة فى باطن الأرض وأجوافها ، ولا رطب ولا يابس من الثمار أو غيرها ، إلاّ ويعلمه علمًا تامًا شاملاً ، لأن ذلك مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهى الثابت .

ويمكن أن نضيف إلى تفسير هذه الآية ما يأتي:

قامت الشيوعية وأظهرت تبرمها بالأديان ، وادعت أن الإنسان يخطط لنفسه ويصنع مستقبله بعلمه وعمله وظن الناس أن التطور العلمى سيحدد مستقبل الإنسان ، وإذا بالعلماء يصرحون أن الإنسان كلما زاد علمه كلما زاد إدراكه بالجهل، واتساع دائرة ما لا يعلمه . أى أن زيادة العلم تشعر الإنسان بزيادة الجهل بحقائق كثيرة فى هذا الكون ، وبذلك تراجعت الفلسفة الشيوعية ، وانسحبت الشيوعية من أوربا الشرقية بعد مرور (٧٠) سبعين عامًا على نشأتها وعاد الإيمان إلى الناس ، وعادت ثقتهم فى الإيمان بالغيب .

الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر عاد الناس إلى الكنائس فى موسكو نفسها، وفى غيرها من البلدان التى كانت شيوعية ، ولم يكن الذاهبون إلى الكنائس من كبار السن فقط بل كان فيهم الشباب والفتيان والفتيات .

يتعلق بهذه الآية أيضًا: أن علم الغيب مقصور على الله تعالى، أما ظن الغيب بأمارات فإنه ممكن لمن يأخذ بأسباب هذه المعرفة كما يحدث عن الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر، حين يخبرون بهبوب الرياح بشدة أو باعتدالها ، وبكسوف الشمس يوم كذا ، وبخسوف القمر ليلة كذا ، وكما يحدث عن علماء الفلك حين يخبرون بزمن نزول المطر ، أو نزول درجة الحرارة أو صعودها .

أو نحو ذلك، فيقع الأمر كما قالوا .. وكما يفعله الأطباء بحكم العادة عندهم إذ يقولون : لمن حلمة ثديها الأيمن سوداء جنينك ذكر ، ولمن حلمة ثديها الأيسر كذلك جنينك أنثى فيقع الأمر كما قالوا . ونحو ذلك مما يخضع لقواعد علمية أو أمارات ظنية .

أما العرّافون الذين يدعون علم الغيب كقول أحدهم :

إنك ستكسب كذا ، أو تتزوج فلانه فهو آثم جاحد .

قال القرطبى فى تفسير الآية:

قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه فى غير ما آية من كتابه ، إلا من اصطفى من عباده ، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ .

ثم قال: وقد انقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان ولا سيما بالديار المصرية، فقد شاع فى رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم ، اتخاذ المنجمين ، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقر والدين فلجأوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب[٩٣] .

وقد ورد فى السنة الصحيحة النهى عن الذهاب إلى العرافين والمنجمين ، جاء فى صحيح مسلم: «من أتى عرَّافًا فسأله عن شيءٍ ، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»[٩٤].

وروى البخارى بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا إلا الله لا يعلم أحد ما يكون فى غدٍ إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يدرى أحد متى يجيء المطر[٩٥] .

وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . (لقمان : ٣٤) .

وهنا نجد بعض الناس يتساءلون عن توصلّ العلم إلى معرفة نوع الجنين ، والجواب أن علم الله بما فى الأرحام علم شامل يمتدّ إلى معرفة أجله ورزقه وسعادته أو شقاوته وهذه أمور لا يعلمها إلا الله تعالى .

ولا ينبغى أن نطاوع العامة فى محاولة معرفة المستقبل عند العرّافين فقد روى الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ «من أتَى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقه ، فقد كفر بما أنزل على محمد[٩٦] .

★ ★ ★

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ
أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ
عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ
لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات:

يتوفاكم بالليل : التوفى لغة: قبض الشيء بتمامه، وأكثر ما يستعمل فيه قبض الروح. والمراد منه هنا : الإنامة؛ أى يُنيمكم في الليل .

جرحتم : كسبتم .

يبعثكم : يوقظكم .

أجل مسمي : وقت محدد لكل واحد ينتهي إليه عمره .

القاهر : الغالب .

توفته : قَبَضَت رُوحَه .

التفسير :

٦٠ - وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِالَّيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . هذه الآية امتداد لسعة القدرة الإلهية فهو سبحانه عالم الغيب ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر والإيجاد والعدم والموت والحياة .

والإنسان له موتتان صغرى وكبرى فالصغرى النوم والكبرى الموت .

«والنعاس صورة من صور الوفاة ، بما يعترى الحواس من غفلة وما يعترى الحِسَّ من سهوة ، وما يعترى العقل من سكون ، وما يعترى الوعى من سبات - أى انقطاع - وهو السرّ الذى لا يعلم البشر كيف يحدث ، وإن عرفوا ظواهره وآثاره»[٩٧] .

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهارِ . فهو سبحانه مطلع على جميع حركاتكم وسكناتكم ويعلم ما كسبت جوارحكم من الخير والشر .

ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ . أى فى النهار يعنى اليقظة .

لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى . لأجل أن يقضى كل فرد أجله المسمَّى فى علم الله تعالى والمقدر له فى هذه الدنيا، فقد جعل سبحانه لأعماركم آجالاً محدودة لا بد من قضائها وإتمامها .

ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . أى: ثم إليه وحده يكون رجوعكم بعد انقضاء حياتكم فى هذه الدنيا فيحاسبكم على أعمالكم التى اكتسبتموها فيها، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر .

فالآية الكريمة تسوق للناس مظهرًا من مظاهر قدرة الله وتبرهن لهم على صحة البعث والحساب يوم القيامة ، لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى .

ومما يتعلق بهذه الآية ما يأتى:

١ - قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الزمر: ٤٢) .

تفيد هذه الآية أن هناك وفاتان ، وفاة صغرى بالنوم ووفاة كبرى بالموت ، وتجتمع أرواح النائمين وأرواح الميتين فى فترة نوم النائم، والله تعالى يمسك روح الميِّت عنده ويرسل روح النائم إلى أجل مسمى ، إلى وقت انقضاء أجله .

٢ - تخصيص الليل بالنوم والنهار بالكسب ، جريًا على المعتاد لأن الغالب أن يكون النوم ليلاً وأن يكون الكسب والعمل نهارًا قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . (النبأ: ١٠ ، ١١).

٦١- وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ.

تصوّر الآية قدرة الله وهى فوق جميع القدر.

فهو سبحانه صاحب السلطان القاهر، وهم تحت سيطرته وقهره، هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان لا قوة لهم ولا ناصر، هم عباد والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون .

وهذه هى العبودية المطلقة للألوهية القاهرة .

إن الله تعالى هو الغالب على عباده والمتصرِّف فيهم إيجادًا وإعدامًا وإحياءً وإماتة، وتعذيبًا وتنعيمًا إلى غير ذلك من شئون القهر والسلطان : لا يشركه فيها شريك ولا يردُّه عن مراده أحد .

وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً . أى: ويرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وتسجل ما تعملونه من خير أو شر .

قال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ . (الانفطار: ١٠ ، ١١) .

وقال سبحانه : مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . (ق : ١٨) .

وجاء فى كتاب الجوهرة ، وهى منظومة فنية فى علم التوحيد :

بكل عبد حافظون وكّلوا وكاتبون خيرة لن يهملوا

من أمره شيئًا ولو ذهل حتى الأنين فى المرض كما نُقِل

وتفيد الآية رقابة الحق سبحانه على كل نفس، وشعور النفس بأنّها غير منفردة لحظة واحدة، وغير متروكة: لذاتها لحظة واحدة، فهناك حفيظ عليها رقيب يحصى كل حركة .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

فإن قلت إن الله تعالى غنىٌ بعلمه عن كتابة الملائكة . فما فائدتها .

قلت فيها لطف للعباد لأنهم إذا علموا أنّ الله رقيب عليهم، والملائكة الذى هم أشرف خلقه، موكّلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم، ويكتبونها فى صحائف تعرض على رءوس الأشهاد فى مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء [٩٨] .

حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ . أى حتى إذا احتضر أحدكم ، وحان أجله قبضت روحه ملائكتنا الموكلون بذلك حال كونهم لا يتوانون ولا يتأخرون فى أداء مهمتهم .

نقل الدكتور محمد سيد طنطاوى عن حاشية الجمل ما يأتى :

قال الجمل : فإن قلت إن هناك آية تقول : اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . وثانية تقول: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

والآية التى معنا تقول تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .

فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟

فالجواب على ذلك أن المتوفِّى فى الحقيقة هو الله ، فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة ، فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت

إلى الحلقوم تولّى قبضها ملك الموت نفسه ، وقيل المراد من قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا . ملك الموت وحده ، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيمًا له(٩٩) .

٦٢–ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ . ثم رجع الجميع إلى الله تعالى، وأعيد جميع المتوفين – مكلفين وغيرهم – إلى الله مولاهم ومالكهم الحق ، الذى أنشأهم ، والذى أطلقهم للحياة ما شاء، ثم ردّهم إليه عند ما شاء ، ليقضى فيهم بحكمه بلا معقب .

أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ . فهو وحده يحكم ، وهو وحده يحاسب ، وهو لا يبطئ فى الحكم، ولا يمهل فى الجزاء ، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الفكر والرويَّة والتدبر .

وكيفية الحساب، لم يرد فى شأنها خبر عن المعصوم ﷺ ، ولا تحيط بها عقول البشر .

فلذا يجب الإيمان بحصول الحساب وتفويض الأمر فى كيفيته إلى علاّم الغيوب .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات:

ظلمات البر والبحر: شدائدهما .

تضرعا وخفية : إعلانًا وإسرارًا .

كــــرب : الكرب: هو الغم والحزن الذى يأخذ بالنفس – كالكُربة بضم الكاف .

التفسير:

٦٣– قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تدعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، من الذى ينجيكم من شدائد البر والبحر عندما تغشاكم بأهوالها المرعبة، وشدائدها المدهشة إنكم فى هذه الحالة تلجأون إلى الله وحده تدعونه إعلانًا وإسرارًا بذلّةٍ وخضوع وإخلاص قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الشدائد والدواهى المظلمة لنكونن من المستديمين لشكرك .

قال الزمخشرى فى الكشاف: وظلمات البر والبحر مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب ، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل .

٦٤– قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ . قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى ينجيكم من هذه المخاوف والأهوال ، ومن كل غم يتنزل بكم ، لا يشاركه فى إنجائكم من ذلك شريك كما تعرفون وتشهدون، ثم أنتم – بعد إنعامه عليكم وإجابة دعائكم – تشركون معه غيره مخلفين بذلك وعدكم ، حانثين فى أيمانكم .

فهل يليق بعاقل أن يشرك بالله آلهة تخلّت عنه وقت الشدّة، وهل يليق بعاقل أن يترك شكر الله الذى أسدى له النعمة .

وفى الآية كما نرى دليل من أدلة الإيمان هو دليل الفطرة ، فالإنسان عند الشدة واللّهفة والكوارث العظام لا يلجأ إلا إلى الله ، حتى إنّ أحد الملحدين الكافرين كانت له ابنة وحيدة اشتدَّ بها المرض وأصبحت على حافة الموت ، ولم ينفع معها علاج ولا دواء ، فجثا الملحد على ركبتيه أمام ابنته وتضرع إلى الله قائلا يا رب اشف ابنتى .

قال تعالى: حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . (يونس : ٢٢ : ٢٣) .

من تفسير الفخر الرازى:

جاء فى التفسير الكبير لفخر الدين الرازى :

«والمقصود من ذلك أنه عند اجتماع هذه الأساب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله، وهذا الرجوع يحصل ظاهرًا وباطنًا، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سواه وهو المراد من قوله : تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .

ثم يقول فى مكان آخر :

«ولفظ الآية يدل على أنه عند حصول الشدائد ، يأتى الإنسان بأمور أحدها الدعاء، وثانيها التّضرُّع، وثالثها الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله خفية ورابعها التزام الاشتغال بالشكر، ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ . وبالجملة فعادة أكثر الناس أنهم إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به[١٠٠] .

★ ★ ★

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا
وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ
وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المفردات:

أو يلبسكم شيعا : أو يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء، كل فرقة تشايع هوى .

بأس بعض : البأس، الشدة .

كيف نصرف الآيات: كيف نبين ونلوّن الحجج .

بوكيل : بحفيظ .

التفسير:

٦٥- قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . هذا كلام مستأنف لبيان قدرة الله تعالى على إيقاعهم فى المهالك وفيه وعيد ضمنى بعذابهم إن بقوا على شركهم .

والمعنى :

قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين : إن الله تعالى قادر على أن يرسل عليكم عذابا عظيما من فوقكم من جهة ا لعلوّ، كما أرسل على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل والحجارة ؛ أو من تحت أرجلكم أى من جهة السفل كالغرق وخسف الأرض ، كما حدث لفرعون وقارون ، أو أن يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء: تشايع كل فرقة رأيًا وتناصره، فتصبح الأمة فى بلاء وجدال وصراع ، وفى خصومة ونزاع ، فينشب القتال وتأكل الأمة بعضها بعضًا، ويذيق بعضها بأس بعض .

أنظر أيها الرسول الكريم – أو أيها العاقل ، كيف ننوع الآيات والعبر والعظات ، بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى لعلهم يفقهون الحق ويدركون حقيقة الأمر ، فينصرفوا عن الجحود والمكابرة، ويكفوا عن كفرهم وعنادهم .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُم جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا . (الإسراء : ٦٨، ٦٩) .

وعندما يجد الإنسان آثار الفيضانات المدمرة أو الزلازل والبراكين ، أو آثار القنابل المهلكة أو تسرب الغاز السام من المعامل ، أو إخفاق صاروخ في الانطلاق إلى مساره ، أو الحروب التي يذيق الناس بعضهم بأس بعض يتبين جانبًا من المعنى الإلهي في هذه الآية، وأن الإنسان سيظلُّ مربوبًا لقدرة الله القادرة .

والآية خطاب من الله تعالى للمشركين، لكن القرآن معناه عام ولا يحمل وعده أو وعيده على أناس بأعيانهم بل يشمل كل من يتأتى منه الخطاب إلى يوم القيامة .

وعن مجاهد إن الآية عامة في المسلمين والكفار .

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة . أن الله تعالى قد استجاب لدعاء نبينا محمد ﷺ فحفظ الأمة المحمدية من العذاب الإلهي من فوقها أو من تحتها .

لكنه تعالى ابتلاها باختلافها شيعًا ، وإذاقة بعضها بأس بعض عندما تستحق هذا الابتلاء

روى البخاري ، عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال:

«لما نزلت هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ . قال ﷺ «أعوذ بوجهك» ، أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ . قال: «أعوذ بوجهك» ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ . قال: «هذه أهون وأيسر» .

وروى مسلم بسنده عن النبي ﷺ قال: «سألت ربِّي ثلاثا: سألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم .. فمنعنيها» والمراد بالسنة القحط والجدب[١٠١] .

٦٦– وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ... الآية .

وكذّب قومك بالقرآن الذي اشتمل على تصريف الآيات المقتضية للتصديق، وهو الحق المطابق للواقع ، فكيف استهانوا بتكذيبه .

قل لهم يا محمد لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ . أي: لم يفوّض إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق ، فأنا لست بقيم عليكم ، وإنما منذر وقد بلغتكم رسالة ربِّي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين .

٦٧- لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . قال الراغب : النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة:

والمستقر: وقت الاستقرار .

والمعنى : لكل خبر من أخبار القرآن زمان استقرار ، يستقر ويقع فيه مدلوله، وسوف تعلمون حال خبركم فى الدنيا والآخرة ومبلغه من الصدق .

أى ستلمسون صدق القرآن عند تحقيق ما وعدكم به فى دنياكم وأخراكم . قال تعالى: وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات:

يخوضون : يندفعون .

فأعرض عنهم : فاتركهم .

وإما ينسينك الشيطان : إمَّا ، أصله: «إن» الشرطية المدغمة فى «ما» «وما» صلة للتأكيد أى وإن أنساك الشيطان.

بعد الذكرى : بعد التذكر .

ولكن ذكرى : ولكن تذكير ووعظ .

التفسير:

٦٨- وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ... الآية .

سبب النزول:

قال ابن جريج إن قريشا كانوا يستهزئون بالقرآن ويقولون فيه إنه سحر ، وشعر وأساطير الأولين ، وما حلا لهم من الأكاذيب .

فنزلت الآية: تأمر النبى ﷺ أن يعرض عنهم إعراض منكر عليهم إذا سمع ذلك منهم، ولا يجلس معهم ولا يجادلهم ، فجعل النبى ﷺ إذا استهزءوا قام ، فحذروا ، وقالوا لا تستهزئوا فيقوم .

والمعنى :

وإذا رأيت أيها النبى الكريم أو أيها المؤمن العاقل ، الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والطعن والاستهزاء ، فأعرض عنهم ، وانصرف عن مجالسهم ، وأرهم من نفسك التسامى عن مجالستهم، حتى يدخلوا فى حديث غيره، فلك حينئذ مجالستهم ، لأن آيات الله من حقها أن تعظم وأن تحترم لا أن تكون محل استهزاء .

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . أى: وإما ينسينك الشيطان ما أُمرت به من ترك مجالسة الخائفين على سبيل الفرض والتقدير فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم، والاستهزاء بها، وقد جاء الشرط الأول. بإذا لأن خوفهم فى الآيات محقق .

وجاء الشرط الثانى. بإن لأن إنساء الشيطان له قد يقع وقد لا يقع .

رأى العلماء فى نسيان الرسول

يرى بعض العلماء أن ما جاء فى الآية من نسيان الرسول إنما هو على سبيل الفرض ، إذ لم يقع منه نسيان لترك مجالستهم عندما يخوضون فى آيات القرآن .

ولهذا استعملت إن الشرطية فهى لمجرد الفرض لما ليس محقق الوقوع ، وذلك على حد قوله تعالى: **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** . (الزمر : ٦٥) .

ويرى بعض آخر من العلماء . أن الخطاب فى الآية للنبىّ ﷺ ، والمراد غيره من المؤمنين ولكن جهود العلماء على جواز النسيان على النبى ﷺ فى الأفعال .

فقد ورد فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ صلى بالمسلمين الظهر فسلم على رأس ركعتين ، وفى القوم رجل فى يديه طول يسمى ذو اليدين فقال أقَصُرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله ؟

فقال النبى ﷺ : كل ذلك لم يكن .

فقال ذو اليدين : بل بعض ذلك قد كان ، صليت بنا الظهر ركعتين .

فقال ﷺ لأصحابه : أحق ما يقوله ذو اليدين ؟

قالوا : نعم ، فأتم النبى الصلاة أربعا .

ثم قال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون . فإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحر الصواب فليتم عليه ، ثم ليسجد سجدتين[١٠٢] .

وفى الحديث الصحيح: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى» [١٠٣] .

ما يؤخذ من الآية :

أخذ العلماء من هذه الآية ما يأتى:

١ – وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله .

قال القرطبى : من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجر ، مؤمنا كان أو كافرًا .

روى الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت، قال رسول ﷺ : «من وقّر صاحب بدعة فقد أعانه على هدم الإسلام»[١٠٤] .

وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهى، أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم، فيه إقرار لهم على خوضهم ، وإغراء لهم بالتمادى فيه .

قال تعالى: وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . (النساء : ١٤٠) .

٢ – جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض ، لأنه إنما أُمرنا بالإعراض فى حالة الخوض، وأيضا فقد قال تعالى: حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

٣ – استُدلّ بهذه الآية على أن الناسِى غير مكلف .

وفى الحديث الشريف: «إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» [١٠٥] .

٦٩– وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

روى البغوى عن ابن عباس قال : لما نزلت وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم» ... إلخ .

قال المسلمون : كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدًا ؟

لئن كان علينا أن نخرج من الحرم كلما استهزءوا بالقرآن، لم نستطيع أن نستقر فى المسجد الحرام ونطوف ، فنزلت الآية وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ .

أي: وما على الذين يتقون الله شيء، من حساب الخائضين على ما ارتكبوا من جرائم وآثام ، ما داموا قد أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم مع ترك مجالستهم - أن يذكِّروهم ويعظوهم لعل أولئك الخائضين يجتنبون ذلك ويتقون الله فى أقوالهم وأفعالهم .

★ ★ ★

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات:

ذر : اترك .

غرتهم : خدعتهم .

تبسل نفس : الإبسال: المنع، ومنه أسد باسل، لأن فريسته لا تفلت منه . ومعنى تُبْسَلَ نَفْسٌ تَمْنَع من النجاة .

وإن تعدل كل عدل: تُفْدِ نفسها كل فداء .

حميم : ماء شديد الحرارة. وقد يطلق على الماء البارد. والمراد منه فى الآية المعنى الأول. لقوله تعالى : .. وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

التفسير:

٧٠ - وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّر بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ... الآية.

المعنى الإجمالى للآية من فتح القدير للشوكانى :

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الحق - الذى كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه - لعبًا ولهوًا ولا تقلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت ، وإن كنت مأمورًا . بإبلاغهم الحجة .

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . حتى آثروها على الآخرة ، وأنكروا البعث .

وَذَكِّر بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ . الإبسال تسليم المرء نفسه للهلاك .

فالمعنى : ذكّر بالقرآن لعل أحدًا يتذكّر فينجو بنفسه من العذاب قبل أن يحبط بها فلا تجد مخلصًا.

وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا . وإن بَذَلَتَ تلك النفس التى سُلِّمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك .

أُوْلَئِكَ . المتخذون دينهم لعبا ولهوا ، هم الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ . أى هؤلاء الذين سُلِّموا للهلاك بما كسبوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ. وهو الماء الحار ، يشربونه فيقطع أمعاءهم .

تمهيد :

حرص المشركون على إبطال دعوة الإسلام بكل سبيل وقد عرضوا على النبى ﷺ أن يترك مجالسة الفقراء ، أو يجعل لهم مجلسًا خاصًا بهم ، وقد رفض القرآن عرضهم ، فاتخذوا هدفًا آخر ، وهو السخرية والاستهزاء بالقرآن، يريدون بذلك صرف المسلمين عن دينهم، وعن كتاب ربّهم، فأمر الله رسوله ألا يبالى بهم ، وأن يمضى فى سبيله وتبليغ رسالة ربّه .

والآية ٧٠ من سورة الأنعام هذه تستعرض عنت المشركين وسوء فعالهم ، وتضع أمامهم أهوال عذاب يوم القيامة ليتصوروا هول ما هم قادمون عليه، علَّ هذا أن يسوق لهم العبرة والموعظة النافعة قبل فوات الأوان .

توضيح :

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . أى اترك يا محمد المشركين الذى جعلوا دينهم شيئًا يشبه اللعب واللهو ، حيث عبدوا الأوثان وجعلوها آلهة ، وأباحوا أكل الميتة ، وحرموا البحيرة والسائبة، وغير ذلك من الأمور .

وقيل المعنى: اترك يا محمد هؤلاء الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذى كلفوا به وهو الإسلام لعبًا ولهوًا حيث سخروا من تعاليمه واستهزءوا بها .

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . حيث اطمأنوا إليها ، واشتغلوا بلذاتها ، وزعموا أنه لا حياة بعدها .

قال الإمام الرازى ما ملخصه: «ومعنى ذرهم : أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ، ولا تقم لهم فى نظرك وزنًا ، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه قال له بعده وَذَكِّر بِهِ وإنما المراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم ، لا ترك إنذارهم وتخويفهم ...

وَذَكِّر بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَت لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ .

وحذّر بهذا القرآن أو بهذا الدين الناس مخافة أن تهلك نفوسهم بما كسبته من الكفر والمعاصى إذ ليس لها من غير الله نصير أو شفيع يدفع عنها السوء .

وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا . العدل عنها الفداء

والمعنى: ومهما قدمت من فداء فلن يؤخذ منها.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . (آل عمران : ٩١) .

قال الإمام الرازى ما معناه :

إن وجوه الخلاص فى الدينا ثلاثة :

١ – ولىّ يتولى الدفاع ودفع المحذور.

٢ – شفيع يشفع للمذنب .

٣ – فدية تقبل منه ليحصل الخلاص بسببها .

وهذه الثلاثة لا تفيد فى الآخرة البتة .

فليس أمام العصاة إلا الإبسال، الذى هو الارتهان والاستسلام .

وإذا تصور الإنسان كيفية العقاب على هذا الوجه ، يكاد يرعد إذا أقدم على معاصى الله [١٠٦]

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ . أى أولئك الذين حُبسوا للهلاك ومُنِعوا من النجاة بسبب كفرهم ومعاصيهم ، لهم فى جهنم شراب من ماء شديد الحرارة ، تتقطع به أمعاؤهم ، ولهم من فوق ذلك عذاب مؤلم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب استمرارهم وإصرارهم على كفرهم .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات:

ونرد علي أعقابنا : ونرجع إلى الوراء بالعودة إلى الشرك. وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

استهوته الشياطين: ذهبت بهواه وعقله .

يدعونه إلى الهدى: المراد بالهدى الطريق الهادى إلى المقصد، جعل نفس الهدى للمبالغة .

التفسير:

٧١- قُلْ أَندعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ... الآية. ثبت بالقرآن والسنة أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ المال والجاه والسلطان ، والملك، نظير أن يترك دعوة الإسلام ، فقال كلمته الخالدة لعمه أبى طالب : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

وقد عرض المشركون مثل هذه العروض على أبى بكر الصديق، وعلى غيره من المسلمين .

جاء فى تفسير ابن كثير ، قال السدّى: قال المشركون للمؤمنون اتبعوا سبيلنا . واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل :

قُلْ أَندعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَالاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا ... والمعنى: قُل يا محمد: للمشركين، أو قل أيها العاقل لهؤلاء المشركين، الذى يحاولون ردّ المسلمين عن الإسلام، قل لهم: أنَعْبد من دون الله مالا يقدر على نفعنا إن دعوناه ، ولا ضرنا إن تركناه ، ومن شأن الإله الحق أن ينفع ويضرّ ، فكيف يليق بنا أن نعبد آلهة خالية من النفع والضر ؟

وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ .. أى نرجع إلى الشرك الذى كنا فيه بعد أن هدانا الله إلى الإسلام، وأنقذنا من الكفر والضلال .

يقال لمن رُدَّ عن حاجته ولم يظفر بها: قَدْ ردّ على عقبيه .

قال العلامة أبو السعود: « والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالردّ على الأعقاب، لزيادة تقبيحه، بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح» ا. هـ.

وهو الرجوع إلى الوراء إدبارًا بغير رؤية موضع القدم.

كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الأَرْضِ. وهم الغيلان، أو مردة الجنّ، يدعونه باسمه واسم أبيه وأمه فيتبعها ويرى أنه فى شىء، فيصبح وقد ألقته فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشًا، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله[١٠٧].

حَيْرَانَ. أى أمسى حيران لا يدرى كيف ينجو من المهالك ويصل إلى غايته.

لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا. أى له رفاق لم يستجيبوا إلى استهواء الشياطين، بل ثبتوا على الطريق المستقيم، وجعلوا يدعونه إلى الطريق المستقيم قائلين له: ائتنا لكى تنجو من الهلاك، ولكنه لحيرته وضلاله لا يجيبهم ولا يأتيهم.

من تفسير ابن كثير:

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية: إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضلّ الطريق فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم، ويقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد - ﷺ - هو الذى يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام.

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. أى قل أيها الرسول لدعاة الضلال: إن هدى الله - هو الإسلام - هو الطريق الهادى إلى السلامة فى الدنيا والآخرة، وما عداه فهو الضلال والخذلان، وأمرنا لنسلم وجوهنا لله رب العالمين.

★ ★ ★

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

التفسير:

٧٢- وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ... وأمرنا بأن نقيم الصلاة ونؤديها فى أوقاتها مستوفية لأركانها وشروطها، وأن نتقى الله ونخشاه، فى أمرنا كله فلا نقصِّر فى طاعة ولا نلمّ بمعصية.

وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. أى: تحشرون إليه وحده، وله الحكم وحده يوم القيامة فى المحشر وما بعده، ولا ينفعكم يومئذ إلاّ ما قدمتموه من الأعمال الصالحة ورأسها الصلاة والتقوى.

٧٣- وَهُوَ الَّذى خَلَقَ السَّمَاوات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ... الآية.
أى هو الذى خلق السماوات والأرض وما فيهما - خلقًا مشتملاً على الحكمة الرفيعة، ومنها أن يُعرف بآياته فيها فيُعبد ويقصد، ولم يخلقها عبثًا وباطلا. وقضاؤه المتصف بالحق والصواب - دائما - نافذ، حين يقول لشىء من الأشياء كُن فَيَكُونُ. ذلك الشىء ويوجد بأمره فورًا، وفق تدبيره وإرادته.

وفى آية أخرى يقول سبحانه.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. (يس: ٨٢).

قَوْلُهُ الْحَقُّ. قوله سبحانه هو الحق الكامل، يأمر بالبعث والحشر فتطيعه الخلائق، أى فكيف ندعوا من دونه مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرتد على أعقابنا.

وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ. أى إن الملك لله تعالى وحده فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه.

والصُّور قَرن ينفخ فيه النفخة الأولى للفناء. والثانية للإنشاء.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ. (الزمر: ٦٨).

واعلم أن الملك دائما لله فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله أعطى بعض عباده الملك ظاهرًا وصورة فى الدنيا، ويوم القيامة لا يجدون لملكهم ظلاً ولا أثرًا ، وفى هذا المعنى قال تعالى: لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر: ١٦) . وقال سبحانه: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ... (الفرقان : ٢٦)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . الغيب ما غاب عن الناس فلم يدركوه ، والشهادة الزمور التى يشهدها الناس ويشاهدونها، ويتوصلون إلى علمها .

فالله هو العالم بما غاب وبما حضر من كل شىء .

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

– الحكيم – صاحب الحكمة فى جميع أفعاله .

– الخبير – المطلع على خفايا الأمور وظواهرها .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) ﴾

التفسير :

٧٤– و إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيه ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ .

بهذه الأية تبدأ قصة إبراهيم عليه السلام ، وقد ذكرت فى القرآن أكثر من مرَّة ، لكنها تركز فى كل مرة على جانب من جوانب القصة ، وقد كان إبراهيم عليه السلام أمّة وحده ، فيه أخلاق الرجال وفيه الوفاء والعزيمة ، وفيه جانب البحث والتأمل ومحاولة هداية قومه عن طريق الحوار ، وفيه صدق العزيمة ، ولو أردنا أن نسجّل عناوين لقصة إبراهيم فسنجدها كالآتى :

إبراهيم وآية البعث ، إبراهيم يتلطف فى دعوة أبيه .

إبراهيم يحطم الأصنام ، إبراهيم يلقى فى النار .

إبراهيم ونمرود ، إبراهيم يهدى قومه عن طريق الحوار .

إبراهيم فى مصر ، إبراهيم يؤمر بذبح إسماعيل .

إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة ، سلام على إبراهيم .

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً .. أى واذكر يا محمد وذكّر قومك ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال إبراهيم لأبيه آزر منكرًا عليه عبادة الأصنام .

أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . أى أتجعلها آلهة لك تعبدها من دون الله الذى خلقك فسواك فعَدلك .

وآزر أب لإبراهيم عليه السلام ، كما هو ظاهر النص القرآنى، وقيل إن اسم والد إبراهيم «تارخ» وقيل كان له اسمان آزر وتارخ (١٠٨) .

وكان آزر وقومه يعبدون الأصنام ، والشمس ، والقمر والكواكب .

إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . أى إنى أراك وقومك الذين يتبعونك فى عبادتها فى ضلال عن الحق، ظاهرين ... وفى هذا تبكيتٌ وتقريع لهم على هذا المسلك ، الذى يتنافى مع ما يقتضيه العقل السليم والفطرة الصحيحة .

وقد ذكر الألوسى فى تفسيره : أن آزر بزنة آدم علم أعجمى لأبى إبراهيم – عليه السلام – وكان من قرية من سواد الكوفة ، وقيل إن آزر لقب لأبى إبراهيم واسمه الحقيقى تارخ .

وذكر الشيخ القاسمى فى تفسيره :

أن الآية حجة على الشيعة فى زعمهم أنه لم يكن أحد من آباء الأنبياء كافرًا ، وأن آزَرْ عمٌّ إبراهيم لا أبوه ، وذلك لأن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ، ومثله لا يجزم به من غير نقل.

كما نقل الشيخ القاسمى أن ثمرة الآية الدلالة على وجوب النصيحة فى الدين لا سيما للأقارب فإن من كان أقرب فهو أهم ، ولهذا قال تعالى: وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ .

وقال تعالى: قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .

وقال ﷺ «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» (١٠٩) .

ولهذا بدأ النبى ﷺ بعلى وخديجة وزيد ثم بسائر قريش ثم بالعرب ثم بالموالى .

وبدأ إبراهيم بأبيه ثم بقومه، وتدل الآية على أن النصيحة فى الدين ليست من العقوق .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

يلقى إبراهم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصنى ؟ ، فيقول أبوه ، فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم يا رب أنت وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ، فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين . (١١٠) .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا
ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المفردات:

جن عليه الليل: سَتَره بظلامه .

أفـــل: غَرَبَ وغَاب .

بـــازغـــا: مبتدئًا فى الطلوع والظهور .

التفسير:

٧٥ – وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . أى وكما أرينا إبراهم الحق، وعرفناه ضلال قومه واضحًا ، وأريناه الحق فى مخالفتهم ، نُعَرفه ونُظهر له ملك السماوات والأرض ليستدل به على وحدانيتنا .

وجاء فى فتح القدير للشوكانى:

وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ . أى ما فيها من الخلق .

وقيل: كشف الله له عن ذلك حتى رأى إلى العرش ، وإلى أسفل الأرضين ، وقيل رأى من ملكوت السماوات والأرض ما قصه الله فى هذه الآية .

نُرِى . أى أريناه ، فهو حكاية حال ماضية . وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر فأراد أن ينبههم على الخطأ .

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . أى أريناه ما أريناه من عجائب الخلق ، وغرائب الملكوت ليكون نبيًّا ذا علم، وليكون علمه عن يقين ، لا يخالجه شك فى عظمة الله ، وقدرته على كل شىء .

٧٦- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الأَفِلِينَ . كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام والنجوم والكواكب والقمر والشمس فأراد مُجَارَاتِهِمْ تمهيدًا لهدايتهم .

وجن عليه الليل أى ستره بظلامه وتغشاه بظلمته وأصل الجَنِّ الستر عن الحاسة ، يقال جنّه الليل وجن عليه يجنّ جنًا وجنونًا ، ومنه الجن والجِنّة بالكسر ، لأن الجن لا يرى .

والجَنَّة بالفتح وهى البستان الذى يستر بأشجاره الأرض .

والمجنّ التى تستر المحارب ، والأجنّة المستورة فى بطون أمهاتها، والمجنون الذى غاب عقله وذهب .

ومعنى الآية : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم قال هذا ربّى ، قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان، مجارات مع عباد الأصنام والكواكب لِيكرَّ عليه بالإبطال ويثبت أن الربّ لا يجوز عليه التغيير والانتقال .

قال الشوكانى فى فتح القدير : وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه فى زمن الطفولية ، وقيل أراد قيام الحجة على قومه كالحاكى لما هو عندهم ، وما يعتقدونه لأجل إلزامهم .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطإ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أنَّ النظر الصحيح مؤدٍ إلى أن شيئًا منها لا يصح أن يكون إلهًا لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثًا أحدثها ، وصانعًا صنعها ، ومدبرًا دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها .

وقول إبراهيم هَذَا رَبِّى . قول من ينصف خصمه مع علمه بأنَّه مبطل ، فيحكى قوله ، كما روى غيره ، متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب ، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة ا. هـ .

والقصة كلها درس فى عقيدة الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وبيان قدرة الله الذى لا أول له ولا آخر بل هو الأول والآخر .

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ . فلما غاب النجم قال لا أحب عبادة الأرباب ، المنتقلين من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمور عباده.

٧٧ – فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. أى وحين أبصر إبرهيم القمر – مبتدئًا فى الطلوع والظهور قال مستعظمًا شأنه : هَٰذَا رَبِّى. مجاراة لقومه فما أفل وغاب قال إبراهيم عليه السلام ، إرشادًا لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من الله تعالى:

لئن لم يرشدنى ربى إلى الحق ، ويثبتنى عليه ، لأكونن من جملة القوم الذين بُعدوا عن الصراط المستقيم .

وإنما استدل على بطلان كون القمر إلهًا بعد أفوله، ولم يستدل على ذلك بمجرد ظهوره، مع أن أفوله محقق ، لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم .

٧٨ – فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . أى فحين أبصر إبراهيم عليه السلام الشمس مبتدئة فى الظهور والطلوع، قال مشيرًا إلى الشمس، هذا الذى أبصره هو ربِّى – وهو أكبر من الكواكب ، ومن القمر – قال ذلك ليشدّ انتباههم إلى التأمل والنظر ، فى التفسيرات الكونية حتى يصلوا منها إلى معرفة الإله الصانع القدير .

فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . أى فلما غابت الشمس واحتجب ضوءها ، جاهر إبراهيم لقومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال: يا قوم إنّى برىء من عبادة الأجرام المتغيرة التى يغشاها الأفول ، وبرئ من إشراككم مع الله آلهة أخرى .

لقد تدرج إبراهيم مع قومه فى ثلاثة مواقف .

فى عبادة النجم ، ثم عبادة القمر ، ثم فى عبادة الشمس .

كما تدرج فى أسلوب دعوته لقومه ، وتصريحه بضلالهم .

قال صاحب الانتصاف:

والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى تمام المقصود والتصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تمَّ قيام الحجة ، وَتبلج الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود [١١١] .

٧٩ – إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . لقد فرغ إبراهيم من الاتجاه نحو آلهة متغيرة ، تظهر وتختفى، واتجه بقلبه نحو الإله الحق ، الذى لا يتغير ولا يتحول ، وأعلن ذلك فى صراحة ووضوح قائلاً :

إنى وجهت قلبى وفطرتى وعبادتى ، لخالق الكون الذى خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق .

حَنِيفًا . مائلاً عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق .

وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . أى ولست من الذين أشركوا مع الله بعض مخلوقاته فى عبادته .

وبذلك ثبت أن إبراهيم ليس مع قومه فى عقيدتهم .

★ ★ ★

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن
يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ
مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ
فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم
بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

وحاجه قومه : وجادله قومه .

وسع ربى كل شىء علمًا : أحاط علمه بكل شىء .

سلطانًا : حجة .

يلبسوا إيمانهم بظلم : لم يخلطوه بشرك .

التفسير :

٨٠- وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ... الآية. أى جادلوه فى التوحيد الذى توصل إليه، وحاولوا أن يقنعوه بصحة اتخاذ الآلهة الأخرى ، وخوّفوه من ضررها وغضبها .

قال : أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .

أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى – وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه سبحانه قد هدانى إلى الدين الحق، وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة .

وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ... أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضرّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع.

إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْئًا . أى لكن إن شاء ربى وقوع شىء ، من الضرر لى بذنبٍ عملته فالأمر إليه، وذلك منه لا من معبوداتكم .

وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا . أى أحاط ربّى علما بكل شىء ، فلا يقع فى ملكه إلاّ ما شاء هو ، وليست لآلهتكم مشيئة حتى أخافها .

أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ . أى أتعرضون أيها الغافلون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شىءٍ مّا ، فلا تتذكرون أنها عاجزة عن إلحاق ضرر بى ؟

وهذه أمور بدهية ، لكن القوم من طول ما ألفوا الباطل وعبادة الأصنام ، توهموا أن لها قدرة على إلحاق الضرر بمن ترك عبادتها .

٨١ – وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ... الآية أى كيف ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة ، وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضرّ ولا تنفع ، وأنتم لا تخافون إشراككم بالله خالقكم ، دون أن يكون معكم على هذا الإشراك حجة أو برهان من العقل أو النقل.

قال الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن :

«إنّه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود ، إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس هو إبراهيم – وليس هو المؤمن الذى يضع يده فى يد الله ويمضى على الطريق – وكيف يخاف آلهة عاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله مالم يجعل له سلطانًا ولا قوة من الأشياء والأحياء .

فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .؟ أى أينا فى موقف الأمن من وقوع المكروه الذى تخوفوننا به ؟

قال الشوكانى فى فتح القدير:

فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ . ؟ فريق المؤمنين بالله القوى القادر ، الكافرين بالصنم العاجز ، أم فريق المؤمنين بالصنم العاجز الكافرين بالله القوى القادر ؟

فأخبرونى أى الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف .

إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة .

٨٢- الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ . هذا جواب السؤال السابق فى الآية قبلها ، وهو تأييد من الملأ الأعلى لسيدنا إبراهيم عليه السلام وبيان واضح لمن يستحق الأمن، وهم المؤمنون الذين أخلصوا إيمانهم من الشرك .

أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ . اليقين والثقة والاطمئنان .

وَهُم مُّهْتَدُونَ . أى: إلى الطريق المستقيم دون من سواهم .

من السنة الصحيحة:

ورد فى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت: الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ، قال الصحابة وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ[١١٢].

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ . شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله: فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . إنما هو الشرك.[١١٣] .

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة ندرك مدى جدية الصحابة فى تلقى أوامر القرآن ونواهيه، لقد كانوا يدركون أنّه أوامر للتنفيذ ، وكانوا يفزعون حين يظنون أن هناك مفارقة بين طاقتهم المحدودة ، ومستوى التكليف المطلوب .

إنه مشهد رائع لهذه النفوس ، التى حملت هذا الدين وكانت ستارًا لقدر الله ، ومنفذًا لمشيئته فى واقع الحياة .

★ ★ ★

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ
وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ
إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

المفردات:

حجتنا آتيناها إبراهيم : أى أدلتنا التى أرشدنا إبراهيم إليها .

حكيم عليم : بالغ الحكمة واسع العلم .

وهبنا : أنعمنا .

واجتبيناهم : أى اخترناهم واصطفيناهم .

صراط : أى طريق جمعه صرط وأصله سراط .

لحبط : أى لبطل ويقال حبط عمله يحبط حبوطًا . أى بطل وسقط ثوابه .

والحكم : أى الحكمة أو فصل الخطاب . والقدرة على الفصل فى الأمور على أساس من الحق والصواب .

اقتده : أى تأسّ واتبع طريقهم بالاقتداء . والهاء للوقف .

التفسير:

٨٣- وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . هذه الآية إشارة إلى تلك الدلائل التى أرشد الله إبراهيم إلى الاحتجاج بها على وحدانية الله وإبطال شرك قومه الذى كانوا عاكفين عليه ، وهى تبدأ من قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .

وفى هذا إشادة بمكانة إبراهيم عليه السلام، وبالدلائل التى أرشده الله إليها .

وقد عدد الإمام الرازى وجوه نعم الله على إبراهيم وإحسانه إليه .

فأولها : قوله تعالى: وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ . والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة ، وهديناه إليها، وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وثانيها : أنه تعالى خصَّه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية وهى قوله : نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ.

وثالثها : أنه جعله عزيزًا فى الدنيا وذلك لأنه – تعالى – جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته .

ويتقرر معنى الآية على النحو الآتى :

وتلك الحجة التى لا يمكن نقضها أو مغالبتها فى إثبات الحق ، وتزييف الباطل ، أعطيناها ، إبراهيم وأطمناه إياها ، فلما قدَّم إبراهيم أدلته على توحيد الله ، وبطلان عبادة الأصنام ، علت حجته وارتفعت منزلته ، وسقطت حجة المشركين وبهت الذى كفر .

وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفًا فى هذه بحكمته وعلمه :

نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ . لقد كانت سعادة إبراهيم ورفعته فى وضوح حجته ، وتبليغ رسالته وكشف بطلان عبادة الأصنام .

يقول الإمام الشافعى: إن سعادة العالِم فى حجة تتبختر اتضاحًا أو فى شبهة تتضاءل افتضاحًا.

ويقول الإمام الرازى : فى هذه الآية دليل على أن كمال السعادة فى الصفات الروحانية لا فى الصفات الجسمانية .

فقد رفع الله قدر إبراهيم حين أتاه الله الحجة والبينة .

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . أى بالغ الحكمة وواسع العلم بحال خلقه فيعلم حال من شاء رفعه .

٨٤- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا .. الآية. أى وهبنا لإبراهيم فضلاً منّا وكرمًا : إسحاق وهو ولده من زوجته سارة ، ويعقوب وهو ابن إسحاق لتقر عينه ببقاء عقبه إذ فى رؤية أبناء الأبناء سرور للنفس وراحة للفؤاد ، وقد تربّى يعقوب فى حجر إبراهيم فنسب إليه ، وهو ابن ابنه وليس ابنه.

كُلاًّ هَدَيْنَا . أى كل من إسحاق ويعقوب هديناه الهداية الكبرى فقد جعلنا كلاً منهما نبيًا .

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ. أى وهدينا نوحا - النبى السابق على إبراهيم - إلى التوحيد والدعوة إليه.

وقد امتن الله على إبراهيم بالهداية فى أصوله ، والهداية فى ذريته وهذه من أكبر النعم .

قال الإمام ابن كثير: «وكل من نوح وإبراهيم له خصوصية عظيمة أما نوح فإن الله لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبيًا إلا من ذريته ، كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . (الحديد : ٢٦) .

ثم قال تعالى: وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . وسيذكر هنا سبعة عشر نبيًا غير إبراهيم عليه السلام ، أحسنوا أداء الرسالة فأحسن الله لهم الجزاء ، وخلّد ذكرهم ومآثرهم ، ومثل ذلك الجزاء الحسن . يجزى الله به كل محسن ، قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ . (الرحمن : ٦٠) .

٨٥- وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . أى وكذلك هدينا زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، فكل واحد من هؤلاء الأنبياء من جملة الصالحين المستقيمين .

٨٦- وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . أى فضلنا كلَّ واحد من هؤلاء بالنبوة على سائر العالمين فى عصره فالأنبياء أفضل البشر .

والمذكور من الرسل فى هذه الآيات من أول قوله تعالى : وتلك حُجَّتُنَا ثمانية عشر نبيا هم من الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهناك سبعة آخرون يجب الإيمان بهم تفصيلاً ، وقد ذكروا فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، وهؤلاء السبعة جمعهم نظمًا فى منظومة فنية فى علم التوحيد من قال:

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

٨٧- وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُم وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . أى ومن آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم من هديناه إلى الطريق المستقيم فمن هنا للتبعيض .

وَاجْتَبَيْنَاهُم . أى قربناهم واخترناهم .

٨٨- ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... الآية. أى ذلك الاجتباء والهداية والتفضيل المفهوم مما تقدم إنما هو هدى الله ، يرشد إليه من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك .

وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهديون المختارون لبطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملونه من أعمال صالحة . فكيف بغيرهم .

قال ابن كثير: فى هذه الآية تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته ، كقوله تعالى: وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (الزمر: ٦٥).

٨٩- أُوْلَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ .. الآية. أولئك: أى هؤلاء الأنبياء المذكورون سابقًا.

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ . أى جنسه المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية .

والمراد بإيتائه: التفهيم التام لما اشتمل عليه من حقائق وأحكام ، وذلك أعمّ من أن يكون بالإنزال ابتداء أو بالإيراث بقاءً، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين .

وَالْحُكْمَ . أى الحكمة وهى علم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام أو الإصابة فى القول والعمل، أو القضاء بين الناس بالحق .

وَالنُّبُوَّةَ . الرسالة .

فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ . فإن يكفر بهذه الثلاث التى اجتمعت فيك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة ، فلن يضرك كفرهم ، لأنّا قد وفقنا للإيمان بها قومًا كرامًا ليسوا بها بكافرين فى وقت من الأوقات ، وإنما هم مستمرون على الإيمان بك والتصديق برسالتك وهم أصحاب النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار وقد وفقناهم لحمل الرسالة حتى كأنهم موكلون بها .

٩٠– أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ... الآية. أى هؤلاء الأنبياء الذين وفقهم الله تعالى إلى منهج الحق والخير فاقتد بهم يا محمد ، وسر على طريقتهم من التوحيد وأصول الدين لأن دعوة الأنبياء فى أصولها واحدة .

قُل لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . أى قل أيها الرسول الكريم لمن بعثت إليهم لا أطلب منكم على ما أدعوكم إليه من خير ، وما أبلغكم إياه من قرآن أجرًا قليلاً أو كثيرًا .

إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ . أى ما القرآن إلا عظة وإرشاد للثقلين : الإنس والجن وهو تذكير للخلق كافة ، الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد .

★ ★ ★

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي
جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ
تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ
مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ
أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي
غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا
فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ
الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

المفردات:

وما قدروا الله حق قدره: وما عظَّموه حق تعظيمه .

قـــــراطـــــــيس : جمع قِرطاس وهو الورق ويقال له قَرطاس وقُرطاس أيضا .

فــى خــوضــهــم : فى باطلهم .

يــلــعــبــون : يلهون .

أم الــقــرى : مكة سميت بذلك لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم وأعظم القرى شأنًا ، وقيل: لأنها مكان أول بيت وضع للناس .

افــتــرى : اختلق والفرية الكذبة .

غــمــرات : جمع غمرة ، وغمرة الشيء شدته ومزدحمه وغمرات الموت شدائده وسكراته.

عــذاب الــهــون : أى الهوان يريد العذاب المتضمن لشدّة وإهانة ، وإضافته إلى الهون لعراقته فيه .

فــرادى : منفردين جمع فرد .

مــا خــولــنــاكــم : ما أعطيناكم .

وراء ظــهــوركــم : فى الدنيا .

تــقــطــع بــيــنــكــم : تشتت جمعكم .

ضــلّ عــنــكــم : ضاع وبطل .

التفسير :

٩١- وَمَا قَدَرُواْ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ... الآية.

والمعنى: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم، بل أخلُّوا بحقوقه إخلالاً عظيمًا، إذ أنكروا بعثة الرسل ، وإنزال الكتب ، وقالوا تلك المقالة الشنعاء ، ما أنزل الله على بشر شيئًا من الأشياء ، قاصدين بهذا القول : الطعن فى نبوة النبى ﷺ ، وفى أن القرآن من عند الله .

قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ . أى قل لهم يا محمد ردًا عليهم من الذى أنزل التوراة على موسى .

نُورًا . أى أنزلنا التوراة واضحة فى نفسها تضيء للناس طريق العلم .

وَهُدًى لِّلنَّاسِ . والتوراة مرشدة للناس إلى الطريق المستقيم وهى هداية تعصمهم من الأباطيل والضلالة.

تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا . أى تجعلون هذا الكتاب الذى أنزله الله نورًا وهداية للناس

أوراقًا مكتوبة مُفَرَّقَة ، لتتمكنوا من إظهار ما تريدون منها ، ومن إخفاء الكثير منها على حسب ما تمليه عليكم مصالحكم ، وشهواتكم .

والمراد من هذه الجملة ذم المحرفين لكتب الله وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع .

وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ .

قال الشوكانى : والذى عُلِّموه هو الذى أخبرهم به نبينا ﷺ من الأمور التى أوحى الله إليه بها، فإنها اشتملت على ما يعلموه من كتبهم ، ولا على لسان أنبيائهم ، ولا علمه آباؤهم .

قُلِ اللَّهُ . أى أنزل الله .

ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ . فى باطلهم يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون .

وفى أمره – ﷺ – بأن يجيب عنهم ، إشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبيه على أنهم بهتوا بحيث أنهم لا يقدرون على الجواب .

ملحق فى مكية الآية أو مدنيتها :

للمفسرين فى هذه الآية قولان:

١ – الأول أن الآية مكية فسورة الأنعام كلها مكية ، والسياق كله حديث عن المشركين الذين قالوا : مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ .

وإنما ألزمهم الله بإنزال التوارة لأنهم كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرون أن الله قد أنزل التوراة على موسى .

وقد اختار هذا الرأى ابن جرير الطبرى وابن كثير .

٢ – الرأى الثانى أن هذه الآية مدينة ، وكون سورة الأنعام مكية لا يمنع من وجود بعض آيات مدنية منها كما نصّ عليه كثير من العلماء .

جاء فى لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ما يأتى :

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مرسلاً قال :

جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصمَ النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين– وكان حبرًا سمينًا–

فغضب وقال : هل أنزل الله على بشر من شيء؟ فقال له أصحابه : ويحك ولا على موسى ، فأنزل الله: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . (١١٤).

والمتأمل فى سياق الآية يجد أن الخطاب كان موجها إلى أهل مكة ، وتفيدنا كُتب علوم القرآن أن المشركين كانوا يلجئون إلى اليهود يسألونهم عن محمد ودينه وربما وجّه اليهود إلى النبى ﷺ أسئلة على لسان المشركين فقد قال اليهود للمشركين ، أسألوه عن الروح وعن ذى القرنين وعن أهل الكهف .

إذا علمنا هذا ترجح لدينا أن الآية مكية وقد التفت الخطاب فيها لليهود باعتبارهم عنصر الشغب الذى يقف وراء مشركى مكة .

«وتوجيه الخطاب إلى اليهود لا يتنافى مع كون الآية مكية ، لأنه ليس بلازم أن يكون كل قرآن مكى خطابًا لغير اليهود» (١١٥) .

٩٢- وَهَذَا كِتَبٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ... الآية .

- وهذا القرآن كتاب أنزلناه على قلبك يا محمد وهذا الكتاب من صفاته أنه مُبَارَكٌ . أى كثير الفوائد لاشتماله على منافع الدين والدنيا .

فقد اشتمل القرآن على أشرف العلوم وأكملها وهى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه كما اشتمل على بيان السبيل إلى طهارة الأخلاق وتزكية النفس ؛ وتشريع العبادات والمعاملات كما يقول الإمام الرازى فى تفسيره . ثم قد جرت سنة الله بأن الباحث فى القرآن والمتمسك به يجعل له عز الدنيا وسعادة الآخرة .

مُّصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ. موافق للكتب التى سبقته فى التوحيد وفى تنزيه الله ، وفى أصول العقائد.

وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .

أى ولتنذر بهذا الكتاب أُمَّ الْقُرَى : مكة وَمَنْ حَوْلَهَا : من أطراف الأرض شرقا وغربا لعموم بعثته - ﷺ - قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيبَ فِيهِ . (الشورى : ٧) .

وسميت مكة بأم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومكان حجّهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا وغيرها كالتبع لها ، كما يتبع الفرع الأصل .

وقد ثبتت عموم بعثته ﷺ بالكتاب والسنّة وإجماع الأمة .

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... الآية . (سبأ : ٢٨) .

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال :

أعطيت خمسًا لم يعطهنّ نبىٌّ قبلى :

١ – نصرت بالرعب مسيرة شهر .

٢ – وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورًا .

٣ – وأحلّت لى الغنائم .

٤ – وأعطيت الشفاعة .

٥– وأرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار : « وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب ، واستدلوا به على أن بعثة النبى ﷺ خاصة بقومه من العرب ، والاستدلال باطل وإن سلّم التخصيص المذكور فإن إرساله إلى قومه لا ينافى إرساله إلى غيرهم ، وقد ثبتت عموم رسالته من آيات أخرى . ا. هـ .

وإذا تأملت وجدت أن النبى ﷺ ذكر لقومه عندما جمعهم أنه رسول الله إليهم خاصة وإلى الناس عامة .

ومن الأدلة على عموم رسالته قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ... (الأنبياء : ١٠٧) .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أى والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يؤمنون بهذا الكتاب الذى أنزله الله هداية ورحمة لأن من صدّق بالآخرة خاف العاقبة، وحرص على العمل الصالح الذى ينفعه .

وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أى يؤدونها فى أوقاتها مقيمين لأركانها وآدابها فى خشوع واطمئنان، وخصت الصلاة بالذكر لكونها أشرف العبادات وأعظمها خطرًا بعد الإيمان .

فهى عماد الدين ، وسبيل إلى طهارة النفس ونظافة القلب وهى الصلة بين المؤمن وربّه ، قال

تعالى: اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ... (العنكبوت : ٤٥) .

٩٣- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... الآية .

قال الإمام الشوكانى فى فتح القدير :

أى كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء ، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء ، عليهم السلام، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا ، فزعم أنه نبى، وليس بنبى، أو كذب على الله فى شيء من الأشياء.

أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . أو ادعى نزول الوحى عليه ، ولم ينزل عليه شيء ، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم ، وإنما هذا شأن الكذابين رءوس الضلال ، كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسىّ وسجاح .

وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ . أى ولا أحد أظلم – أيضًا – ممن قال بأنى قادر على أن أنزل قرآنًا مثل الذى أنزله الله ، كالذين حكى القرآن عنهم : وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ... (الأنفال :٣١) .

وهيهات أن يكون لأحد قدرة على الإتيان بمثل القرآن فليس فى مقدور بشر أن يأتى بمثله قال تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢). وقال سبحانه : قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ . أى ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حالة أولئك الظالمين وهم فى غمرات الموت أى فى شدائده وكرباته وسكراته لرأيت شيئًا فظيعًا هائلا ترتعد منه الأبدان ، فجواب الشرط محذوف .

وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ . أى والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم باسطوا أيديهم إليهم بالإهانة والعذاب قائلين على سبيل التوبيخ والزجر: أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم وسلموها إلينا .

وقيل المعنى : أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات التى وقعتم فيها ، أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْملائكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وأَدْبَارَهُمْ. (الأنفال : ٥٠) .

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . أى تقول لهم الملائكة اليوم تجزون عذاب الذل والهوان بسبب أنكم كنتم فى دنياكم تفترون على الله الكذب فتنكرون إنزال الله كتبه على رسله وبسبب ادعائكم أن لله شركاء ، وبسبب إعراضكم عن التأمل فى آيات الله والتصديق بها . فكان ما جوزيتم به من عذاب الهون جزاء وفاقًا .

٩٤- وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... الآية. من شأن القرآن أن ينقل المشاهد إلى ما يريد عرضه أمامه أنه واقع مشاهد .

فالآية السابقة عرضت مشهد الملائكة وهى تستخرج أرواح الظالمين .

وهذه الآية نقلت المشاهد إلى مشاهد القيامة وقد بعث الله الظالمين فرادى مجرَّدين من أموالهم وسلطانهم وأهلهم وأولادهم .

ومضمون الآية :

ويقول الله للظالمين : ولقد جئتمونا للحساب والجزاء منعزلين ومنفردين عن الأموال والأولاد وعن كل ما جمعتموه فى الدنيا من متاع . أو منفردين عن الأصنام والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم عند الله .

كما أوجدناكم – فى أول حياتكم الأولى – بدون مال ولا متاع ولا ولد .

وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . أى وتركتم ما أعطيناكم من النعم فى الدنيا ، ولم تحملوا منها معكم شيئًا.

وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ . أى ويقال لهم توبيخًا وتقريعًا على شركهم: وما نبصر معكم من زعمتم أنهم سيشفعون لكم عند الله تعالى من الأوثان والأصنام الذين توهمتم أنهم شركاء لله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة . منكم كما يستحقها الله تعالى – وقد حكى القرآن عن المشركين قولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . (الزمر : ٣) .

لكنهم لم يجدوا أثرًا للأصنام ، ولا لشفاعتهم ولا لعبادتهم لهم .

لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ . أى انفصمت الروابط بينكم ، وتشتت جمعكم

وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ . أى ذهب وضاع عنكم ، ما كنتم تزعمون فى الدنيا ، من أن الأصنام شفعاء لكم عند الله ، ومن أنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ
فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ
فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ
نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ
إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

المفردات :

فالق : الفَلْق: الشق .

النوى : ما فى داخل الثمرة؛ تمراً أو غيره .

يخرج الحى من الميت : يخرج النبات الحى من التربة الميتة، والزرع من الحب، والشجر من النوى .

تؤفكون : أى تصرفون يقال أفكه عن الأمر يأفكه أى صرفه عنه إلى غيره .

فالق الإصباح : الإصباح فى الأصل مصدر أصبح سمى به الصبح، وفالق الإصباح أى شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل، أو عن بياض النهار .

سكنا : السكن كل ما يسكن إليه ويؤنس به، والسكن الرحمة .

حسبانا : مصدر حسب أى يحسب بهما الأوقات .

فمستقر ومستودع : أى فلكم استقرار فى الأصلاب، أو فوق الأرض، واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض .

يـفـقـهـون : يفهمون .

خضـــــــرًا : أى شيئا أخضر، يقال هو أخضر وخضر .

متراكـــبًـــا : أى بعضه فوق بعض.

قـــنـــوان : القنو ما يحمل من التمر، وهو كالعنقود للعنب.

دانـــيـــة : قريبة التناول.

مشتبها وغير متشابه: بعضه متشابه فى الهيئة والطعم، وبعضه غير متشابه.

إذا أثـــمـــر : إذا أخرج ثمره صغيرًا.

ويـــنـــعـــه : أى وانظروا إلى حالته حينما ينضج.

التفسير :

٩٥ – إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ... الآية .

تستعرض الآيات دلائل القدرة الإلهية، وآثار رحمة الله فى إعمار الكون، وسوق المطر وإنبات النبات وتسخير الشمس والقمر، وهذه من لطائف القرآن وخصائصه، فهو لم يجمع الآيات الكونية فى سورة واحدة، وإنما كان يتخلل حديثه لفت الأنظار إلى آثار القدرة، ونحن فى الآيات السابقة شاهدنا أدلة الوحداينة، ونفى الشركاء، وتفرد الإله بالألوهية.

وهنا نجد أدلة القدرة والعظمة، وبيان أن وراء هذا الكون البديع يدًا حانية تحفظ توازنه، وتمدّه بمقومات الحياة وبصنوف النعم. قال تعالى: وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ... (النحل : ٥٣) .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

إن الله وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامى، وكذلك الزروع على اختلاف أصنافها والله وحده هو الذى يشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية. وفى ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التى لا تحدّ وعلي أنه هو المستحق للعبادة لا غيره.

ونجد عجائب فى طبيعة الشجرة أو النخلة .

كما يذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير الآية قائلاً :

إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ثم مر بها قدر من الماء أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض. وهنا عجائب .

لأن الذى يغوص فى الأرض أطراف بسيطة فى غاية الدقة واللطافة، ولكنها تغوص فى الأرض الصلبة بقدرة الله العزيز الحكيم. لتكون الجذور التى تثبت الشجرة أمام الأعاصير والرياح.

وفى تكوين الورقة الواحدة وما فيها من عروق وأوتار دليل من دلائل القدرة الإلهية. وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ.

أى يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة.

وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ.

فهو يخرج الخلايا الميتة من النبات والحيوان، كما يخرج الأظافر والشعر. وبقايا الغذاء من الخلايا الحية من الإنسان والحيوان، وحينما يموت النبات والحيوان والإنسان، تتحلل أجسامها جميعا فتعود إلى العناصر الترابية التى كانت قد تكونت منها وهى بضعة عشر عنصرًا على اختلاف فى النسب بين الحيوان والنبات.

ذَلِكُمُ اللَّهُ .

أى صانع ذلك الصنع العجيب هو الله ذو القدرة العجيبة، المستحق للعبادة دون سواه.

فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.

فكيف تُصرفون عن الحق مع ما ترون من كمال قدرته وبديع صنعه؟.

وكيف تصرفون عن عبادة الله إلى عبادة آلهة أخرى؟

٩٦ - فَالِقُ الإِصْبَاحِ.

أي فالق ظلمة الإصباح وهى الغبش عن بياض النهار حيث يضىء الوجود، ويستنير الكون ويستفيد الناس من ظلام الليل بالهدوء والسكن، ومن نور النهار بالسعى والعمل.

وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا.

يسكن فيه الناس عن الحركة فى معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا.

أى وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر لايتغير ولا يتبدل وبهما تحسب الأوقات، التى تؤدى فيها العبادات والمعاملات.

ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

أى ذلك الذى تقدم من ظهور الإصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا جار وحاصل، بتقدير الْعَزِيزِ. الذى أحسن كل شىء خلقه وأبدع تصويره .

الْعَلِيمِ. الذى وسع علمه كل شىء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وقد وردت هذه الخاتمة كثيرًا فى القرآن، بعد ذكر خلق الليل والنهار والشمس والقمر مما يدل دلالة واضحة . على أن نظام هذه الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والكواكب والفضاء والهواء والليل والنهار من أقوى الأدلة على سعة علم الله وعظيم تدبيره .

وقد بين الإمام الرازى فى تفسيره الكبير : أن فى الآية أنواعًا من الأدلة على وجود الصانع وكمال قدرته، منها فلق الحب والنوى، ومنها حركة الأفلاك التى ينتج عنها فلق ظلمة الليل بنور الصبح، وهذه أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى، لأن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعًا من الأحوال الأرضية.

٩٧ ـــ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِ وَالْبَحْرِ ... الآية .

هذا لون من ألوان قدرته تعالى وأنعمه على عباده ومعنى الآية:

وهو الذى جعل وأنشأ لكم هذه الكواكب النيرة لتهتدوا بها إلى الطرق والمسالك خلال سيركم فى ظلمات الليل بالبر والبحر حيث لاترون شمسًا ولا قمرًا .

ومن آثار النجوم، أنها زينة للسماء وأيضًا هى رجوم للشياطين وشهبًا تقذف بها الجن قال تعالى: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ... (الصافات : ٦ : ٨) .

وقال عز شأنه: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ... (الملك : ٥) .

قَدْ فَصَّلْنَا الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

أي : وقد وضحنا وبينا الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى ، ورحمته بعباده ، لقوم يعلمون وجه الاستدلال بها ، فيعملون بموجب علمهم ، ويزدادون إيمانًا على إيمانهم .

٩٨ – وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ..الآية .

أي وهو سبحانه الذى أوجدكم من نفس واحد هى نفس أبيكم آدم عليه السلام قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ... الآية. (النساء : ١) .

وفى هذه الجملة تذكير بنعم الله على خلقه فإن رجوع الناس إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتراحم.

وفى خطبته ﷺ فى حجة الوداع إشارة إلي هذا المعنى حيث قال ﷺ :

«أيها الناس إن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ... (الحجرات : ١٣) .

فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ : أى فلكم مستقر على ظهر الأرض، ومستودع فى باطن الأرض.

وقيل المستقرُّ ما كان فى الرحم والمستودع ما كان فى الصلب.

٩٩ – وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ... الآية .

هذا تذكير بنعمة أخرى من نعم الله الجليلة، الدالة على كمال قدرته.

والمعنى: وهو سبحانه الذى أنزل من السحاب ماءً فأخرجنا بسبب ذلك كل صنف من أصناف النبات والثمار المختلفة فى الكم والكيف والطعوم والألوان .

قال تعالى: وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ... (الرعد : ٤) .

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا.

هذا تفصيل لأنواع ما يخرج من الأرض، أى فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له، نباتًا غضًا أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة.

نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا.

أى نخرج من ذلك النبات الأخضر حبا ركب بعضه فوق بعض كما فى السنبل من القمح والشعير.

وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ.

الطّلع : أول ما يخرج ويبدو من ثمر النخل كالكيزان، أى ويخرج بأمر الله تعالى من طلع النخل عذوقه وهى عناقيد البلح .

والقنوان جمع قنو وهو العرجون بما فيه الشماريخ، والدانية القريبة التى ينالها القائم والقاعد.

قال الزجاج: المعنى منها دانية، ومنها بعيدة، فحذف الثانية.

وفى التفسير الوسيط : أى : ومن طلع النخل، قنوان يحمل تمرها ويكون فى متناول الأيدى وهو الدانى القريب، أو فى غير متناول الأيدى وهو البعيد، ونبه على الأولى لزيادة النعمة فيها.

وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ.

هذه الجملة معطوفة على نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ.

أى فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شىء وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب.

والتمر والعنب هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا، قال تعالى:
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ. (يس : ٣٤)

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ .

أى وأخرجنا الزيتون والرمان متشابها فى الحجم واللون وغير متشابه فى الطعم. مما يدل على كمال القدرة وحكمة المبدع الخالق جل جلاله.

انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ.

أى انظروا نظر اعتبار إلى ثمر الزيتون والرمان إذا أخرج ثمره، كيف يخرجه ضئيلاً لايكاد ينتفع به، وإلى يَنْعِهِ. أى وإلى حال إدراكه ونضجه حيث يصبح ذا نفع عظيم ولذة كاملة وملاءمة للجسم كل الملاءمة.

إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

إن فيما ذكرنا من أنواع النبات والثمار وفيما أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم، لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. ويصدقون أن الذى أخرج أنواع النبات والثمار المشاهدة أمامكم قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى للحساب والجزاء.

قال تعالى:

وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (فصلت : ٣٩) .

★ ★ ★

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

المفردات:

الجـــن : المراد بهم الشياطين ، أو ما يعمهم والملائكة .

وخـرقـوا : أى اختلقوا، وافتروا.

التفسير:

١٠٠ - وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ...الآية .

عدد الله سبحانه وتعالى فيما سبق عددًا من أنعمه على عباده التى تقتضى الاعتراف له بالألوهية، وتفرّده سبحانه عن الشريك، لأنه هو الذى يخلق وينعم وحده .

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ .

أى جعلوا الجن شركاء لله فعبدوهم وعظموهم كما عبدوه تعالى وعظموه.

وفى المراد بالجن هنا أقوال:

الأول : الملائكة حيث عبدوهم وقالوا إنهم بنات الله وتسميتهم جنًا مجازًا لاستتارهم عن الأعين كالجن .

الثانى : أن المراد بالجن هنا الشياطين، حيث أطاعوهم كما يطاع الله.

الثالث : أن المراد بالجن هنا إبليس فقد عبده قوم وسموه ربًا ومنهم من سماه إله الشر والظلمة وخص البارى بأنَّه إله الخير والنور .

وقد تكون العبادة حقيقة وقد تكون مجازًا قال تعالى:

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَن لاَّتَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمَ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ. (يس : ٦٠ ، ٦١).

وَخَلَقَهُمْ.

أى اتخذوا له سبحانه شركاء، وقد خلقهم وحده فلا يصح أن يعبد سواه.

وجملة وَخَلَقَهُمْ. حال من فاعل جعلوا أى وجعلوا لله شركاء الجن والحال أنهم قد علموا أن الله وحده هو الذى خلقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق.

وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أى واختلقوا وافتروا لله سبحانه بنين وبنات بغير علم بحقيقة ما يقولون، بل عن جهل خالص بالله وبعظمته، إذ لا ينبغى ما دام إلهًا أن يكون له بنون وبنات أو صاحبة أو أن يشاركه أحد فى خلقه، فلا يجوز أن ينسب إليه تعالي إلا ما قام الدليل على صحته.

وفى هذا تنبيه على تنزيه الله تعالى عن افتراء المفترين حيث ادعى المشركون أن الملائكة بنات الله، وادعى اليهود أن عزيرًا ابن الله، وادعت النصارى أن المسيح ابن الله.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ.

سُبْحَانَه. أى تنزيها له وتقديسًا

وَتَعَالَى. أى تباعد وارتفع عن قولهم الباطل

عَمَّا يَصِفُونَ. عما يصفه به هؤلاء الضالون من الأنداد والأولاد والنظراء والشركاء.

★ ★ ★

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

المفردات:

بديع السموات والأرض: منشئهما ابتداءً. من غير مثال سبق. وهو صيغة مبالغة. من بدعه؛ بمعنى: اخترعه.

أنى يكون له ولد: من أين يكون له ولد. أو كيف يكون له ولد؟

صاحبة: زوجة.

وكيل: تستعمل هذه الكلمة بمعنى: حفيظ. وبمعنى: من يوكل إليه الأمر، ومن يتولاه.. وكلٌ تصح إرادته هنا.

لا تدركه الأبصار: إدراك الشيء؛ الوصول إليه، والإحاطة به.

الأبصار: جمع بصر. وهو حاسة النظر. وقد يطلق على العين. لأنها محل النظر والإبصار.

اللطيف: العليم بدقائق الأمور وخوافيها.

التفسير:

١٠١ - بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ... الآية. الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق ولاشريك يعينه.

أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ. أي كيف يكون له ولد كما يزعمون، ولم تكن له زوجة يأتي منها الولد.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ. أي وخلق كل شيء من الموجودات، ومنهم الملائكة والمسيح وعزير.

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. أي عالم بكل المعلومات، لا تخفى عليه خافية، وقد وسع علمه جميع المخلوقات.

وفى الآية دليل على نفى الولد عن الله تعالى من وجوه :

١ – أن الله هو خالق السماوات والأرض، ومن كان كذلك لايصح أن يكون له ولد، لأن ما ادعوه ولدًا، لا يقدر على مثل ذلك، ومن شأن الولد أن يكون قادرًا على مثل ما يقدر عليه أبوه.

٢ – من شأن الولد أن يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله تعالى ليس له زوجة.

٣ – إن الله وحده هو العليم بكل خلقه، وما زعموه ولدًا ليس كذلك. فلا يصلح أن يكون ولدًا لله. لأنه فقد صفته، وهى العلم بكل شىء.

١٠٢ – ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أى ذلكم المتصف بالأوصاف العلية السابقة هو ربكم لا ربّ لكم غيره.

لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُو . هو الإله المستحق للعبادة وحده لا من زعمتم من الشركاء.

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ. هو الخالق لكل شىء، أى ما كان منه وما يكون، وإذا كان الأمر كذلك فاعبدوا الله وحده غير مشركين به ولا متخذين له ولدًا.

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أى وهو مع تلك الصفات الجليلة، رقيب على عباده حفيظ عليهم يدبر أمورهم، ويمسك بنظام هذا الكون كله بما فيه ومن فيه ليعصمه من الخلل قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا. (فاطر : ٤١) .

١٠٣ – لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. أى لاتبلغ كنه حقيقته الأبصار، فالمنفىّ هو الإدراك والإحاطة به، ويراه المؤمنون فى الآخرة لقوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ... (القيامة : ٢٢ ، ٢٣) .

وقد استدل المعتزلة بالآية ١٠٣ من سورة الأنعام هذه على امتناع رؤية البشر لله تعالى فى الآخرة.

أما أهل السنة. فيرون أن رؤية الله تعالى ممنوعة فى الدنيا لأن عيوننا فانية والله باق، والفانى لا يرى الباقى فإذا كان يوم القيامة ودخل المؤمنون الجنة منحوا أبصارًا باقية، وكانت رؤيتهم لله تعالى رؤية تكريم وإنعام، وقد ثبتت بالكتاب والسنّة .

قال الإمام الشوكانى فى تفسيره فتح القدير: والرؤية فى الآخرة قد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترًا لاشك فيه ولا شبهة.

وقال الإمام ابن كثير : تواترت الأخبار عن النبى ﷺ أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات .

وقد روى الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلي قال:

كنا جلوسًا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال: إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم أن لاتغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ(١١٦).

وأرى أن المكلّف يكفيه أن يؤمن بالله ربا وخالقًا ورازقًا وأن يؤمن بأنه متصف إجمالاً بكل كمال ومنزه إجمالاً عن كل نقص، أما الخلاف حول نفى الرؤية أو ثبوتها، وأشباه ذلك فيكفى المسلم فيه تفويض الأمر إلى الله تعالى ويكفيه أن يقول كما قال القرآن الكريم ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ . (آل عمران : ٧) .

★ ★ ★

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

المفردات:

بصائر: جمع بصيرة، وهى: النور الذى تبصر به النفس والقلب. أما البصر: فهو نور العين. وأطلقت البصائر على آيات القرآن، تشبيهًا لها بها، فى إظهار الحق .

نصرف الآيات: نبينها أو ننقلها من نوع إلى نوع، مأخوذ من الصرف والتصريف وهو نقل الشىء من حال إلى حال .

درست: أى درست الكتب الإلهية المتقدمة .

حفيظا: حارسًا من حفظه بمعنى حرسه .

التفسير:

١٠٤ - قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ... الآية. أى قد جاءتكم حجج وبراهين واضحة من عقلها أبصر الحق، وذلك فيما أورده القرآن فى هذه السورة وفى غيرها.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير الآية : البصائر جمع بصيرة وهى للقلب بمنزلة البصر للعين، فهى النور الذى يبصر به القلب، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين، والمراد بها آيات القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة، أى قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالقكم هذا القرآن بآياته وحججه وهداياته لكى تميزوا بين الحق والباطل، وتتبعوا الصراط المستقيم [١١٧] .

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. أى فمن أبصر الحق وعلمه بواسطة تلك البصائر وآمن به فنفع ذلك راجع لنفسه عائد عليها، إذ أنه بذلك يرزق سعادة الدنيا، والنجاة فى الآخرة .

وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا. ومن تعامى عن الحق، ولم يذعن للحجة ولم يتعقلها، فضرر ذلك عائد على نفسه، راجع إليها إذ أنه سيعاقب على ذلك، بالعذاب فى نار جهنم .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... الآية (الإسراء : ٧).

وقوله عز شأنه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ... الآية (فصلت : ٤٦).

واختتمت الآية بقوله تعالى: وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ. أى لست رقيبًا عليكم أحصى عليكم أعمالكم، وأحفظكم من الضلال وإنما على البلاغ والإنذار، وقد فعلت.

١٠٥ - وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

لقد صرف الله فى آيات القرآن الكريم، ولوّن فى أساليبه وحججه حيث اشتمل على الوعد والوعيد والوصف وبيان قدرة الله وأدلة عظمته وآثاره فى خلق السماوات والأرض وما فيهما. وفى خلق الإنسان والحيوان والنبات وسائر الموجودات .

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ. أى وكما فصلنا الآيات الدالة على التوحيد فى هذه السورة تفصيلاً بديعًا محكمًا، نفصل الآيات ونبينها ونتوعها فى كل موطن لتقوم الحجة على الجاحدين، وليزداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم .

وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ. وسوف يقول المشركون إذا سمعوا هذا البيان إنك يا محمد لم تأت بهذا من عند الله. وإنما درست علم أهل الكتاب وتعلمت منهم . وجملة . وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ. جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها، للمسارعة إلى تسلية النبى ﷺ عن معارضتهم.

فإن المراد منها ألا يعتدَّ بما يقولون من الأكاذيب والتهم الباطلة.

قال الفرّاء :

وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ. معناه تعلمت من اليهود لأنهم كانوا معروفين عند أهل مكة بالمعرفة والعلم.

– وفى قراءة دَارَسْتَ. بزيادة الألف وفتح التاء أى دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية كأهل الكتاب من المدارسة بين الإثنين أى قرأت عليهم وقرءوا عليك. وهاتان القراءتان متواترتان.

وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. والمعنى ولنبين ونوضح هذا القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه، فهم المنتفعون به دون سواهم.

١٠٦ – اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . أمره الله تعالى ألا يشغل خاطره بهم، وألا يبال بافترائهم وكذبهم، بل عليه أن يشغل نفسه بتبليغ الوحى اعتقادًا وقولاً وعملاً مع الإعراض عن المشركين وجملة لا إله إلا هو معترضة لتأكيد إيجاب الاتباع.

١٠٧ – وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ . أى أن الله تعالى قادر على أن يجعلهم كلهم مؤمنين غير مشركين فالأمر بيده، ولكنه تركهم لما يدور عليه أمر التكليف وهو الاختيار.

ولما تركهم لاختيارهم، لم يحسنوا الانتفاع بآياته فتخلَّى عن معونتهم.

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. أى رقيبًا يحصى أعمالهم ويجازيهم عليها.

وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ. أى قيّم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم.

والمراد: دع أمرهم لنا فنحن أعلم بأعمالهم، وأقدر على جزائهم، ولا تشغل نفسك بغير تبليغهم إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ. (الشورى : ٤٨) .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ
جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات:

ولا تسبوا : السَّب : الشَّتم .

عدوا : اعتداءً وتجاوزا للحق .

جهد أيمانهم : أى بقدر جهدهم وطاقتهم فى أيمانهم .

ونقلب أفئدتهم : ونحول قلوبهم .

يعمهون : يَتَحيَّرُونَ .

التفسير:

١٠٨ - وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... الآية . أى: ولاتسبوا أيها المؤمنون آلهة المشركين الباطلة، فيترتب على ذلك أن يسبَّ المشركون معبودكم الحق جهلاً منهم وضلالاً.

سبب النزول:

روى معمر عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فيسب الكفّار الله عدوًا بغير علم فنزلت .[118]

وقال ابن عباس : قالت قريش لأبى طالب: إما أن تنهى محمدًا وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها، وإما أن نَسُبَّ إلهه ونَهْجُوَه فنزلت الآية .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت سبّ الآلهة الباطلة حق وطاعة، فكيف صح النهى عنه، وإنما يصح النهى عن المعاصى ؟

قلت ربَّ طاعة علم أنها تؤدّى إلى مفسدة، فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة، كالنهى عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية، ووجب النهى عنه كما يجب النهى عن المنكر.

وقال السيوطى : «وقد يستدل بهذه الآية على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى. وكذا كلّ فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى منه».

وقال الشوكانى فى فتح القدير: «وفى هذه الآية دليل علي أن الداعى إلى الحق والناهى عن الباطل إذا خشى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق ووقوع فى باطل أشدّ، كان الترك أولى به، بل كان واجبًا عليه»(١١٩)

قال القرطبى: قال العلماء وهذه الآية الكريمة حكمها باق فى هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر فى متعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبى أو الله تعالى، فلا يحلّ لمسلم أن يسبّ صلبانهم، ولا دينهم ولا كنائسهم، ولايتعرض إلى ما يؤدى إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية.

وفى الآية دليل على وجوب سد الذرائع(١٢٠)

كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ. أى مثل ذلك التزيين الذى حمل المشركين على الدفاع عن عقائدهم الباطلة جهلاً منهم وعدوانًا، زينا لكل أمة من الأمم عملهم من الخير والشر، والإيمان والكفر، فقد مضت سنتنا في أخلاق البشر أن يستحسنوا ما تعوَّدوه، وأن يتعلقوا بما ألفوه. قال ابن عباس: زَيَّنَّا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر.

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ثم إلى مالك أمرهم رجوعهم بالبعث بعد الموت، فيخبرهم ويجزيهم بما كانوا يعملونه باختيارهم من طاعة أو معصية، وفقًا لما تأثرت به نفوسهم، وكسبته أيديهم من دواعى هذه الأعمال، وهو وعيد بالجزاء والعذاب.

جاء فى التفسير الوسيط. بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: وقد دلت الآية الكريمة على أن الأعمال تظهر لبعض الناس فى الدنيا بغير صورتها الحقيقية التى تكون لها فى الآخرة . فالكفر والمعاصى، تبدو فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس الكفرة والعصاة.

والإيمان والطاعات تظهر لديهم فيها على العكس من ذلك ولذا قال ﷺ (حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات) .

فإذا بعثوا يوم القيامة عرَّفهم الله الأعمال بحقائقها وجزاهم على تقصيرهم، وهذا هو قوله سبحانه.

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١٠٩ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا... الآية . أى أقسم أولئك المشركون بالله مجتهدين فى أيمانهم مؤكدين إياها بأقصى ألوان التأكيد. معلنين أنهم لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التى اقترحوها عليك يا محمد ليؤمنن بها أنها من عند الله، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير الطبرى بسنده عن محمد بن كعب القرظى قال: كلَّم نفر من قريش رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: تخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا بآية من الآيات حتى نصدِّقك، فقال لهم رسول الله ﷺ : «أى شىء تحبون أن آتيكم به»؟

قالوا : تجعل لنا الصفا ذهبًا، فقال لهم: «فإن فعلت تصدقونى»؟ قالوا نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون.

فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاءه جبريل فقال له إن شئت أصبح الصفا ذهبًا على أن يعذبهم الله إذا لم يؤمنوا، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال ﷺ بل أتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله تعالى قوله:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا. إلى قوله تعالى: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ. (الأنعام: ١١١).

قُلْ إِنَّمَا الأَيَاتُ عِندَ اللَّهِ. أى قل لهم يا محمد إن أمر المعجزات والأمور الخارقة للعادة التى اقترحتم الإيمان عقب مجيئها. عند الله لا عندى فهو وحده القادر على الإتيان بها دونى، وهو سبحانه يأتى بالآيات حسب حكمته ومشيئته إن شاء أتى بها وإن شاء منعها. أما أنا فليس ذلك إلى.

وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ. وما يدريكم أيها المؤمنون الراغبون فى إنزال الآيات والمعجزات طمعًا فى إيمان هؤلاء المشركين. أنها إذا جاءت لايصدقون بها !!

فأنا أعلم أنهم لا يؤمنون، وأنتم لا تعلمون ذلك ولذا توقعتم إيمانهم .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف: يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون فى إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها.

١١٠ - وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... الآية. أى ونحوّل قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة .

جاء فى حاشية الصاوى على الجلالين: وهو استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره، فمن أراد له الهدى حوّل قلبه لله تعالى ومن أراد الشقاوة حول قلبه لها.

وقال الشوكانى فى فتح القدير : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُم. معطوف على لاَ يُؤْمِنُونَ.

والمعنى: نقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار وحرّ الجمر.

كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا : فى الدنيا .

وَنَذَرُهُم. : أى : نمهلهم ولا نعاقبهم .

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ : أى : ونتركهم فى ضلالهم يتخبطون ويترددون متحيرين .

وقد دل قوله تعالى: وَنَذَرُهُم فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. على أن تقليبه تعالى لأفئدتهم وأبصارهم ليس بطريق الإجبار والقهر، بل بأن يخلّيهم وما انطوت عليه نفوسهم فى الطغيان .

إن الله تعالى ألهم الإنسان رشده ومنحه العقل والإرادة والاختيار. فإذا سار فى طريق الخير والحق يسر له ذلك وأعانه وشرح صدره وأمدّه بالهدى والتوفيق، وإذا تكبر الإنسان على هداية السماء وأعرض عنها، سلب الله عنه الهدى عقوبة على إعراضه فالله لا يظلم أحدًا من خلقه.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. (يونس : ٤٤) .

وقد علم الله منهم البعد عن الاستجابة إلى دعوة الله والبعد عن الإيمان برسوله حتى لو أنزل إليهم ملائكة السماء عيانًا، وأحيا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد، وجمع لهم كل شىء من الخلائق عيانًا ومشاهدة وأعطاهم جميع الآيات التى اقترحوها ما كانوا ليؤمنوا إلا من سبقت له الهداية والمشيئة من الله بالهداية .

قال تعالى: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ. (الأنعام : ١١١) .

وهذه الآية الكريمة يبدأ بها الجزء الثامن إن شاء الله والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يرضى ربنا ويحب. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

★ ★ ★

تم تفسير الجزء السابع، ويليه تفسير الجزء الثامن إن شاء الله رب العالمين.

اللهم رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . (الكهف : ١٠) .

اللهم يسر لنا إتمام هذا العمل حتى نكمل تفسير كتابك الكريم على النحو الذي تحبُّه وترضاه، وهب لنا الإخلاص والتوفيق والقبول لنا وللقارئين وسائر المؤمنين.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

★ ★ ★

كلمة الختام

أخى المؤمن :

لقد دار الزمان دورته، وجرَّبت البشرية نظمًا وضعية من صنع البشر، ثم أفاقت فوجدت أنها أخطأت كثيرًا.

ونحن المسلمين أولى الناس بالعودة إلى تراثنا وديننا وكتاب ربنا فهو الهدى والنور.

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ إنه ستكون فتن، قلنا ما المخلص منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الجدّ ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، لم تسمعه الجن حتى قالت إنا سمعنا قرآنًا عجبًا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا .

أخى المؤمن : نحن فى حاجة إلى مدارسة القرآن وفهمه واستكنان هديه وروحه وحكمته فهو النور والهدى والدواء والشفاء قال تعالى: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. (الإسراء : ٨٢) .

فى القرآن الكريم شفاء لأمراضنا ، ودواء لمشاكلنا ونور يضىء لنا الطريق ، وفى هدى النبى ﷺ وعمله وسنته وأقواله وأفعاله نبراس ونموذج يقتدى به قال تعالى: لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْأَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا. (الأحزاب : ٢١) .

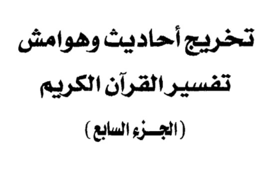
وهذه الصحوة الإسلامية فجر جديد، وروح جديد، ونور جديد يحتاج منا مدارسة القرآن وتلاوته وحفظه وترتيله وتجويده والتغنى به وفى الحديث الشريف: «اقرءوا القرآن فإن الله يأجركم بكل حرف منه عشر حسنات» [١٢١] .

أخى المؤمن: العهد هو المحافظة على الصلاة والطهارة وإقامة أركان الإسلام والتوبة النصوح فضع يدك فى يد الله، ولتكن بيعة صادقة وعهد لله صادق على طاعة الله ومرضاته وسلوك الطريق المستقيم، وثق أنك ستجد الأمان والرضا والسعادة فى طاعة الله وفى حبّ كتاب الله وفى الاقتداء بهدى رسول الله ﷺ، قال رجل يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً وأقلل فيه لعلى أعيه. فقال له النبى ﷺ «قل آمنت بالله ثم استقم» [١٢٢] .

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . (فصلت : ٣٠ : ٣٥) .

وصلِّ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجـــزء السابع)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) تفسير الطبرى ٧ / ٣ .

(٢) من رغب عن سنتى فليس منى :

رواه البخارى فى النكاح (٥٠٦٣) ومسلم فى النكاح (١٤٠١)، والنسائى فى النكاح (٣٢١٧)، وأحمد (١٣١٢٢، ١٣٣١٦، ١٣٦٣١). ورواه ابن ماجة فى النكاح (١٨٤٦) بلفظ: «النكاح من سنتى فمن لم يعمل بسنتى فليس منى.. الحديث. كلهم من حديث أنس. ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) عن مجاهد عن رجل من الأنصار. ورواه الدارمى فى النكاح (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٣) إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء:

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٥٤) من حديث ابن عباس أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ : إنى إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتنى شهوتى فحرمت على اللحم فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا). وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب ورواه بعضهم عن عثمان بن سعد مرسلا ليس فيه عن ابن عباس ورواه خالد الحذاء عن عكرمة مرسلا.

(٤) كنا نغزو مع النبى ﷺ وليس معنا نساء:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦١٥) وفى النكاح (٥٩٧٦) ومسلم فى النكاح (١٤٠٤) وأحمد فى مسنده (٣٩٧٦) من حديث عبدالله رضى الله عنه قال كنا نغزو مع النبى ﷺ وليس معنا نساء فقلنا ألا نختصى فنهانا عن ذلك فرخص لنا بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم).

(٥) لو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر:

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٤٩٩٣) من حديث يوسف بن ماهك قال إنى عند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إذ جاءها عراقى فقال فى الكفن خير قالت ويحك وما يضرك قال يا أم المؤمنين أرينى مصحفك قالت لم قال لعلى أولف القرآن عليه فإنه يقرأ غير مؤلف قالت وما يضرك أيه قرأت قبل إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتي إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنى لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال فأخرجت له المصحف فأملت عليه آى السور.

(٦) الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت. ص ٣٦٤ دار القلم.

(٧) البحر المحيط ٤ / ١٥.

(٨) يا أيها الناس إن الله يبغض الخمر:

رواه مسلم (١٥٧٨) من حديث أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة قال يا أيها الناس إن الله تعالى يعرض بالخمر ولعل الله سينزل فيها أمرا فمن كان عنده منها شيء فليبعه ولينتفع به قال فما لبثنا إلا يسيرا حتى قال النبى ﷺ إن الله تعالى حرم الخمر فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبع قال فاستقبل الناس بما كان عنده منها فى طريق المدينة فسفكوها.

(٩) أما علمت أن الله حرمها:

رواه مالك في الموطأ كتاب الأشربة (١٥٩٨) ومسلم في المساقاة (١٥٧٩) والنسائي في البيوع (٤٦٦٤) والدارمي في الأشربة (٢١٠٣) وفي البيوع (٢٥٧١) وأحمد في مسنده (٢٠٤٢) من حديث ابن عباس أن رجلا أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر فقال له رسول الله ﷺ هل علمت أن الله قد حرمها قال لا فسار إنسانا فقال له رسول الله ﷺ بم ساررته فقال أمرته ببيعها فقال إن الذى حرم شربها حرم بيعها قال ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها.

(١٠) كل مسكر خمر:

رواه مسلم (٢٠٠٣)، وأحمد (٤٨١٥)، والترمذى (١٨٦١)، وأبو داود (٣٦٧٩).

(١١) البر ما اطمأنت إليه النفس:

رواه مسلم في البر (٢٥٥٣) والترمذى في الزهد (٢٣٩٨) والدارمى في الرقاق (٢٧٨٩) وأحمد في مسنده (١٧١٧٩) عن النواس بن سمعان الأنصارى قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس.

(١٢) لعن الله الخمر:

رواه أبو داود في كتاب الأشربة (٣٦٧٤)، وأحمد في مسنده حديث رقم (٤٧٧٢، ٥٣٦٧، ٥٦٨٣)، وابن ماجة في كتاب الأشربة (٣٣٨٠) من حديث عبدالله بن عمر. والترمذى في كتاب البيوع (١٢٩٥) وابن ماجة في كتاب الأشربة (٣٣٨١) وقال الترمذى: هذا حديث غريب من حديث أنس وقد روى نحو هذا عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبى ﷺ.. وذكره السيوطى في زيادات الجامع الصغير من حديث ابن عباس مرفوعًا بلفظ: أتانى جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقيها. ونسبه للطبرانى في الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقى في الشعب والضياء. قال الهيثمى في المجمع كتاب البيوع باب في الخمر وثمنها: وعن عبدالله بن مسعود قال: لعن رسول الله عليه وسلم الخمر وشاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وبايعها ومبتاعها وآكل ثمنها. وقال: رواه البزار والطبرانى في الكبير وفيه عيسى بن أبى عيسى الحناط وهو ضعيف.

(١٣) البر ما اطمئنت إليه النفس:

تقدم تخريجه.

(١٤) لا ضرر ولا ضرار:

رواه أحمد في مسنده (٥/٣٢٦) وابن ماجة في الأحكام (٢٣٤٠) من حديث عبادة بن الصامت. قال البوصيرى في الزوائد: حديث عبادة هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. ورواه أحمد في مسنده (١/٣١٣) وابن ماجة فيما تقدم (٢٣٤١) والدارقطنى (٤/٢٢٨) من حديث ابن عباس. قال البوصيرى في الزوائد: في إسناده جابر الجعفى متهم. ورواه الدارقطنى (٤/٢٢٨) والحاكم في المستدرك (٢/٥٨) والبيهقى (٦/٦٩) من حديث أبى سعيد الخدرى. قال البيهقى: تفرد به عثمان بن محمد الداروردى. قلت: وهو ضعيف. ورواه مالك في الموطأ كتاب الأقضية (٣١) والبيهقى (٦/٦٩) من حديث يحيى المازنى مرسلا، وهو أصحها. وروى الحديث من طرق أخري كثيرة، وكلها لا تخلو من ضعف.

(١٥) الإحسان أن تعبد الله:

رواه البخارى فى الإيمان ح (٥٠)، وفى تفسير القرآن ح (٤٧٧٧)، ومسلم فى الإيمان ح (٨، ٩)، والترمذى فى الإيمان (ح) ٢٦١٠، والنسائى فى الإيمان ح (٤٩٩٠، ٤٩٩١)، وأبو داود فى السنة ح (٤٦٩٥)، وابن ماجة فى المقدمة ح (٦٣، ٦٤)، وأحمد ح (٣٦٩، ٣٧٦، ٥٨٢٢، ٦١٢١)، من حديث أبي هريرة، ومن حديث عمر بن الخطاب. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(١٦) خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٣١٤) ومسلم فى الحج (١١٩٨) والترمذى فى الحج (٨٣٧) والنسائى فى مناسك الحج (٢٨٨١) وابن ماجة فى المناسك (٣٠٨٧) والدارمى فى المناسك (١٨١٧) وأحمد فى مسنده (٢٣٥٣٢) من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال خمس فواسق يقتلن فى الحرم الفأرة والعقرب والحديا والغراب والكلب العقور. ورواه مالك فى الموطأ فى كتاب الحج (٨٠٠) من حديث عروة بن الزبير يرفعه.

(١٧) تفسير ابن كثير ٢ / ٩٩ .

(١٨) تفسير د / محمد سيد طنطاوى: سورة المائدة ص ٣٩١، نقلا عن تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد السادس من السنة ٢٢ .

(١٩) هو الطهور ماؤه الحل ميتته:

رواه مالك فى الموطأ كتاب الطهارة (٤٣) وأبو داود فى الطهارة (٨٣) والترمذى فى الطهارة (٩٦) والنسائى فى الطهارة (٥٩) وفى المياه (٣٣٢) وابن ماجة فى الطهارة (٣٨٦) والدارمى فى الطهارة (٧٢٩) وفى الصيد (٢٠١١) وأحمد فى مسنده (٨٥١٨) من حديث أبى هريرة قال سأل رجل النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر فقال رسول الله ﷺ هو الطهور ماؤه الحل ميتته. وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢٠) أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد:

رواه ابن ماجة فى الصيد (٣٢١٨) وفى الأطعمة (٣٣١٤) وأحمد فى مسنده (٥٦٩٠) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال أحلت لكم ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال.

(٢١) ليس الإيمان بالتمنى:

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٧٠) وعزاه لابن النجار والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس. وقال السيوطى فى «الدر المنثور»: وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال: إن الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى، إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل. فذكره هكذا موقوفًا.

(٢٢) لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٢١) وفى الرقاق (٦٤٨٦) ومسلم فى الصلاة (٤٢٦) والنسائى فى السهو (١٣٦٣) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩١) والدارمى فى الرقاق (٢٧٣٥) وأحمد فى مسنده (١١٥٨٦) من حديث أنس رضى الله عنه قال خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا قال فغطى

أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين فقال رجل مَنْ أَبِى قال فلان فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم). ورواه البخارى فى الجمعة (١٠٤٤) وفى النكاح (٥٢٢١) ومالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة (٤٤٤) والنسائى فى الكسوف (١٤٧٤) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزنى يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. ورواه البخارى فى الرقاق (٦٤٨٥) والترمذى فى الزهد (٢٣١٣) وأحمد فى مسنده (٩٢٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣١٢) وابن ماجة فى الزهد (٤١٩٠) وأحمد فى مسنده (٢١٠٠٥) من حديث أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أطت وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لودت أنى كنت شجرة تعضد. وقال الترمذى: حسن غريب.

(٢٣) لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى:

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٢٩٤) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٩) وأحمد فى مسنده (١٢٢٤٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أمورا عظاما ثم قال من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه فوالله لا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا قال أنس فأكثر الناس البكاء وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول سلونى فقال أنس فقام إليه رجل فقال أين مدخلى يا رسول الله قال النار فقام عبدالله ابن حذافة فقال من أبى يا رسول الله قال أبوك حذافة قال ثم أكثر أن يقول سلونى سلونى فبرك عمر على ركبتيه فقال رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولا قال فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ثم قال رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده لقد عرضت على الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط وأنا أصلى فلم أر كاليوم فى الخير والشر.

(٢٤) تفسير القرطبى ٦ / ٣٢٣ .

(٢٥) زبدة التفسير من فتح القدير: محمد سليمان الأشقر ط أولى الكويت.

(٢٦) إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم:

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٢٨٩) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٨) وأبو داود فى السنة (٤٦١٠) وأحمد (١٥٢٣، ١٥٤٨) من حديث سعد بن أبى وقاص.

(٢٧) ذرونى ما تركتم:

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٢٢٨)، ومسلم فى الفضائل (١٣٣٧)، والترمذى فى العلم (٢٦٧٩) والنسائى فى المناسك (٢٦١٩) وابن ماجة فى المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبى هريرة.

(٢٨) إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها :

ذكره الهندى فى كنز العمال (٩٨٠) ونسبه للطبرانى وأبى نعيم فى الحلية والدارقطنى فى السنن. قال الهيثمى فى المجمع: عن أبى ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وغفل عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها. رواه الطبراني فى الكبير وهو هكذا فى هذه الرواية وكأن بعض الرواة ظن أن هذا معنى وسكت فرواها كذلك والله أعلم ورجاله رجال الصحيح.

(٢٩) نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات:

أخرجه أبو داود فى العلم (٣٦٦٥) وأحمد (٢٣١٧٦) من حديث معاوية. ورواه أحمد فى مسنده حديث رقم (٢٣١٧٥) عن رجل من أصحاب النبى. تنبيه: ذكروه بلفظ (الغلوطات). قال المناوى فى الفيض: وفيه عبدالله بن سعد قال أبو حاتم مجهول قال ابن القطان صدق أبو حاتم لو لم يقله لقلناه وذكره الساجى فى ضعفاء الشام.

(٣٠) يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع:

رواه مالك فى الموطأ كتاب الطهارة (٤٥) من حديث يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج فى ركب فيهم عمرو بن العاص حتي وردوا حوضا فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع فقال عمر بن الخطاب يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإنا نرد على السباع وترد علينا.

(٣١) تفسير سورة المائدة، د. محمد سيد طنطاوى ص ٤١٣ نقلا عن تفسير القاسمى. باختصار.

(٣٢) إن أول من سيب السوائب:

رواه أحمد فى مسنده (٤٢٤٦) من حديث عبدالله بن مسعود عن النبى ﷺ قال إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإنى رأيته يجر أمعاءه فى النار. والحديث رواه البخارى فى الجمعة (١٢١٢) وفى تفسير القرآن (٤٦٢٤) ومسلم فى الكسوف (٩٠١) والنسائى فى الكسوف (١٤٧٢) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب. ورواه البخارى فى المناقب (٣٥٢١) وفى تفسير القرآن (٤٦٢٣) وأحمد فى مسنده (٧٦٥٣) من حديث سعيد بن المسيب قال البحيرة التى يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس والسائبة التى كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شىء قال وقال أبو هريرة قال النبى ﷺ رأيت عمرو بن عامر بن لحى الخزاعى يجر قصبه فى النار وكان أول من سيب السوائب.

(٣٣) فتح القدير للشوكانى.

(٣٤) أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:

رواه الترمذى فى الفتن (٢١٦٨)، وفى تفسير القرآن ح (٣٠٥٦)، وأبو داود فى الملاحم ح (٤٣٣٨)، وابن ماجة فى الفتن ح (٤٠٠٥)، وأحمد ح (١، ١٧، ٣٠، ٣١، ٥٤) من حديث أبى بكر الصديق، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٣٥) بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر:

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤١) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٥٨) من حديث أبى أمية الشعبانى قال سألت أبا ثعلبة الخشنى فقلت يا أبا ثعلبة كيف تقول فى هذه الآية (عليكم أنفسكم) قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله ﷺ فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك يعنى بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر الصبر فيه مثل قبض على الجمر للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله وزادنى غيره قال يا رسول الله أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم.

(٣٦) خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى:

رواه البخارى فى الوصايا (٢٧٨٠) وأبو داود فى الأقضية (٣٦٠٦) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٥٩، ٣٠٦٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء فمات السهمى بأرض

ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا من ذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الجام بمكة فقالوا ابتعناه من تميم وعدى فقام رجلان من أوليائه فحلفا (لشهادتنا أحق من شهادتهما) وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت).

(٣٧) تفسير الكشاف ١ / ٦٩٠ .

(٣٨) فى ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٩٧٧. دار الشروق.

(٣٩) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٥ باختصار.

(٤٠) تفسير الآلوسى ٣ / ١٦٩ .

(٤١) تفسير الفخر الرازى.

(٤٢) تفسير القرطبى ٦ / ٣٦٤.

(٤٣) تفسير ابن جرير الطبرى ٧ / ١٣٥ .

(٤٤) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٦.

(٤٥) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٩.

(٤٦) تفسير صفوة البيان لمعانى القرآن لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف ص ٢١٣ .

(٤٧) إنكم محشورون حفاة عراة غرلا:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٣) وفى تفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨١) والدارمى فى الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد فى مسنده (١٩١٦، ٢٠٩٧) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسا من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابى أصحابى فيقال إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى) إلى قوله (العزيز الحكيم). ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ تحشرون حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض فقال الأمر أشد من أن يهمهم ذاك. ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ قال قيل له ما المقام المحمود قال ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه يئط كما يئط الرحل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى اكسوا خليلى فيؤتى بريطتين بيضاوين من رياط الجنة ثم أكسى على إثره ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى الأولون والآخرون.

(٤٨) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٢ / ٤٦٦.

(٤٩) تفسير سورة المائدة، د. محمد سيد طنطاوى ص ٤٦٣.

(٥٠) التفسير الوسيط: (تفسير سورة المائدة) د. طنطاوى ص ٤٦٤ نقلا عن تفسير الفخر الرازى ١٢/ ١٣٨ .

(٥١) فى ظلال القرآن ٧ – ٤٢، ط ٢.

(٥٢) فى ظلال القرآن ٧ – ٤٣.

(٥٣) وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨٦)، من حديث عبد الله بن مسعود قال سألت النبى ﷺ أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت إن ذلك لعظيم قلت ثم أى قال وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك.

(٥٤) تفسير الألوسى ٧ / ٩١.

(٥٥) التفسير الوسيط: د. طنطاوى نقلا عن تفسير سورة الأنعام للشيخ محمد أبو زهرة، مجلة لواء الإسلام السنة ٢٣ العدد الخامس ص ٢٤٢.

(٥٦) فى ظلال القرآن: سيد قطب الجزء السابع صفحة ١٠٣٨ المجلد ٢.

(٥٧) لو أن أولكم وآخركم:

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وأحمد ٥/١٦٠، كلاهما عن أبى ذر رضى الله عنه. وأوله عند مسلم وأحمد: يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى. وعند الترمذى: يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته. وقال الترمذى : حديث حسن.

(٥٨) تفسير القرطبى ٦ / ٣٩٤.

(٥٩) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة ح (٤١٥) وفى أحاديث الأنبياء ح (٣١٢، ٣١٣٠)، وفى المغازى ح (٤٠٧٦، ٤٠٨٦)، وفى تفسير القرآن ح (٤٣٣٣)، ومسلم فى الزهد ح (٥٢٩٢، ٥٢٩٣)، وأحمد (٤٣٣٣، ٥٠٩٠). من حديث عبدالله بن عمر بلفظ: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين... الحديث.

(٦٠) التفسير الكبير: فخر الدين الرازى ٤ / ١٤.

(٦١) ينزل الله إلى سماء الدنيا :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٣٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٣، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم. ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى. ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على.

(٦٢) إن رحمتى تغلب غضبى:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) وفى التوحيد (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤) ومسلم فى التوبة (٢٧٥١) والترمذى فى الدعوات (٣٥٤٣) وابن ماجة في المقدمة (١٨٩) وفى الزهد (٤٣٥٩) وأحمد فى مسنده (٧٤٧٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده غلبت أو قال سبقت رحمتى غضبى فهو عنده فوق العرش.

(٦٣) أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر:

رواه مسلم فى السلام (٢٢٤٥) وأحمد (١٠٢٠٥)، من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ أن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت موقها فغفر لها.

(٦٤) فى كل كبد رطبة أجر:

رواه البخارى فى المساقاة (٢٣٦٣) وفى المظالم (٢٤٦٦) وفى الأدب (٦٠٠٩) ومسلم فى السلام (٢٢٤٤) ومالك فى الموطأ كتابه الجامع (١٧٢٩) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٥٠) وأحمد فى مسنده (٨٦٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا قال فى كل كبد رطبة أجر.

(٦٥) تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوى . ص ٦٨ .

(٦٦) فى ظلال القرآن ٢ / ١٠٥٥ .

(٦٧) يا غلام إنى أعلمك:

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إنى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت علي أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف. قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح. قال العجلونى فى كشف الخفاء: رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى، فقال يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله – الحديث، وفيه قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه، وفيه واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، وأورده الضياء فى المختارة وهو حسن، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ يا ابن عباس احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال فى المقاصد وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين.

(٦٨) اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت:

رواه البخارى فى الأذان (٨٤٤) وفى الدعوات (٦٣٣٠) وفى القدر (٦٦١٥) وفى الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم فى المساجد (٥٩٣) وأبو داود فى الصلاة (١٥٠٥) والنسائى فى السهو (١٣٤١) والدارمى فى الصلاة (١٣٤٩) وأحمد فى مسنده

(١٧٦٧٣) من حديث رواه كاتب المغيرة بن شعبة قال أملى على المغيرة بن شعبة فى كتاب إلى معاوية أن النبى ﷺ كان يقول فى دبر كل صلاة مكتوبة لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

(٦٩) فتح القدير للشوكانى.

(٧٠) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام: للشيخ محمد المدنى ص ٥ .

(٧١) هذا المعنى مستخلص من تفسير فى ظلال القرآن ٢ / ١٠٦١ ، ١٠٦٢ .

(٧٢) حاشية الجمل ٢ / ١٥.

(٧٣) فى ظلال القرآن ٢ / ١٠٦٣.

(٧٤) تفسير الآلوسى ٣ / ١٢١.

(٧٥) تفسير الكشاف ٢ / ١٣.

(٧٦) انظر تفسير الخازن. وتفسير الآلوسى ٧ / ١٢٥ .

(٧٧) تفسير المنار ٧ / ٣٤٧.

(٧٨) مجلة لواء الإسلام لسنة ٢٣ العدد ٩ تفسير القرآن للشيخ محمد أبو زهرة .

(٧٩) من مات فقد قامت قيامته:

قال العراقى فى تخريج الإحياء: أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.. قال العجلونى فى كشف الخفاء: ورواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته وللطبرانى عن المغيرة بن شعبة قال يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته، ومن رواية سفيان عن أبى قبيس قال شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال أما هذا فقد قامت قيامته وروى عن أنس أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم . الموت القيامة . إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته . يرى ما له من خير وشقاء . الهندى فى الكنز (٤٢١٢٣) أكثروا ذكر الموت، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره، وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم، الموت القيامة، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرى ما له من خير وشر. وقال رواه العسكرى فى الأمثال – عن أنس، وفيه داود بن المحبر – كذاب – عن عنبسة بن عبدالرحمن – متروك متهم – عن محمد بن زادان – قال البخارى: لا يكتب حديثه. وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات وقال: ابن أبى الدنيا ضعيف وهو من قول الفضيل بن عياض، وفى المقاصد هو للديلمى عن أنس رفعه.

(٨٠) لتؤدون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة

رواه مسلم فى البر (٢٥٨٢) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٠) وأحمد فى مسنده (٧١٦٣) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لتؤدُنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة . حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء.

(٨١) إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب:

رواه أحمد فى مسنده (١٦٨٦٠) من حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على

معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون). قال المناوى فى فيض القدير: قال الهيثمى: رواه الطبرانى عن شيخه الوليد بن العباس المصرى، وهو ضعيف. وقال العراقى إسناده حسن، وتبعه المؤلف فرمز لحسنه.

(٨٢) تفسير أبى السعود: المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المجلد الثانى ص ١٣٥.

(٨٣) عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآنى للقرآن المجلد الثانى الجزء السابع ص ١٨٧.

(٨٤) المرجع السابق.

(٨٥) فى ظلال القرآن المجلد الثانى ص ١١٠٠ ، والتفسير الوسيط: تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوى ص ١١٠ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ١٠٤ .

(٨٦) تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية الطبعة الرابعة ص ١١١ .

(٨٧) تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوى ص ١١٢ .

(٨٨) التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الرابع عشر ص ١٢٥٠ ، ١٢٥١.

(٨٩) ينزل الله إلى السماء الدنيا:

تقدم تخريجه .

(٩٠) إن الله عز وجل يبسط يده بالليل:

رواه مسلم فى التوبة ح (٤٩٥٤)، وأحمد ح (١٨٧٠٨، ١٨٧٩٣).

(٩١) فى ظلال القرآن. سيد قطب، المجلد ٢ ص ١١٠٩ .

(٩٢) فى ظلال القرآن: سيد قطب المجلد الثانى ص ١١١١ .

(٩٣) تفسير القرطبى ٧ / ٣ .

(٩٤) من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة:

مسلم فى السلام (٤١٣٧)، وأحمد ح (١٦٠٤١، ٢٢١٣٨)، عن بعض أزواج النبى ﷺ.

(٩٥) مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٤٧٧٨) وفى التوحيد (٧٣٧٩) وأحمد فى مسنده (٤٧٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما فى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله.

(٩٦) من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر:

رواه أحمد فى مسنده (٩٢٥٢) من حديث أبى هريرة والحسن عن النبى ﷺ قال من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

(٩٧) فى ظلال القرآن: سيد قطب، المجلد الثانى ص ١١٢١ .

(٩٨) تفسير الكشاف ٢ / ٣٣ .

(٩٩) حاشية الجمل على الجلالين ٢ / ٤٠ .

(١٠٠) تفسير الفخر الرازى ٢ / ٦٢ بتصرف.

(١٠١) انظر تفسير ابن كثير وبه طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عقب تفسير الآية.

(١٠٢) أقصرت الصلاة أم نسيت:

رواه البخارى فى الصلاة (٤٨٢) وفى الأذان (٧١٤) وفى الجمعة (١٢٢٨، ١٢٢٩) وفى الأدب (٦٠٥١) وفي أخبار الآحاد (٧٢٥٠) ومسلم فى المساجد (٥٧٣) ومالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة (٢١٠، ٢١١) وأبو داود فى الصلاة (١٠٠٨، ١٠١٥) والترمذى فى الصلاة (٣٩٩) والنسائى فى السهو (١٢٢٤) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٢١٤) والدارمى فى الصلاة (١٤٩٦، ١٤٩٧) وأحمد فى مسنده (٧١٦٠) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من اثنتين فقال له ذو اليدين أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ أصدق ذو اليدين فقال الناس نعم فقام رسول الله ﷺ فصلى اثنتين أخريين ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول. أما قوله: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون» فرواه مسلم فى المساجد (٥٧٢) وأبو داود فى الصلاة (١٠٢٠، ١٠٢٢) والنسائى فى السهو (١٢٤٢) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٢٠٣، ١٢١١) وأحمد فى مسنده (٣٥٩١) من حديث عبدالله صلى رسول الله ﷺ قال إبراهيم زاد أو نقص فلما سلم قيل له يا رسول الله أحدث فى الصلاة شيء قال وما ذاك قالوا صليت كذا وكذا قال فثنى رجليه واستقبل القبلة فسجد سجدتين ثم سلم ثم أقبل علينا بوجهه فقال إنه لو حدث فى الصلاة شيء أنبأتكم به ولكن إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى وإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحر الصواب فليتم عليه ثم ليسجد سجدتين.

(١٠٣) إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت:

أنظر ما قبله:

(١٠٤) من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام:

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٩٠٨٢) ورمز لضعفه. قال العراقى فى تخريج الإحياء: رواه ابن عدى من حديث عائشة، والطبرانى فى الأوسط، وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزى: كلها موضوعة. وذكره الفتنى فى تذكرة الموضوعات.

(١٠٥) إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان:

رواه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٣) من حديث أبى ذر الغفارى قال قال رسول الله ﷺ إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. ورواه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. قال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع. والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن نمير فى الطريق الثانى وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان

يدلس. قال المناوى فى فيض القدير: (عن ابن عباس) قال الزيلعى: سنده ضعيف ورواه الطبرانى باللفظ المذكور وقال الهيثمى وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح وقال ابن حجر أخرجه الفضل التميمى فى فوائده بإسناده وابن ماجة بلفظ رفع بدل وضع ورجاله ثقات إلا أنه أعل بعلة غير قادحة فإنه من رواية الوليد عن الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس وقد رواه بشر بن بكر عن الأوزاعى فزاد عبيد بن عمير بن عطاء وابن عباس وأخرجه الحاكم والدارقطنى انتهى. وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث ثوبان عن رسول الله ﷺ قال: إن الله تجاوز عن أمتى ثلاثة الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه. وقال: رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو ضعيف. قال المناوى فى فيض القدير: (ثوبان) رمز المصنف لصحته وهو غير صحيح فقد تعقبه الهيثمى بأن فيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو ضعيف ا. هـ وقصارى أمر الحديث أن النووى ذكر فى الطلاق من الروضة أنه حسن ولم يسلم له ذلك بل اعترض باختلاف فيه وتباين الروايات ويقول ابن أبى حاتم فى العلل عن أبيه هذه أحاديث منكرة كأنها موضوعة وذكر عبدالله بن أحمد فى العلل أن أباه أنكره ونقل الخلال عن أحمد من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف الكتاب والسنة وقال ابن نصر: هذا الحديث ليس له سند يحتج بمثله ا. هـ وقد خفى هذا الحديث عن الإمام ابن الهمام فقال: هذا الحديث يذكره الفقهاء بهذا اللفظ ولا يوجد فى شيء من كتب الحديث. وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال مثله مثل حديث قبله عن النبى ﷺ: وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث عمر عن النبى ﷺ قال مثله. قلت مثل حديث قبله عن النبى ﷺ: وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. وقال. رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وغيره وفيه كلام لا يضر وبقية رجاله رجال الصحيح.

(١٠٦) د. محمد سيد طنطاوى، تفسير سورة الأنعام ص ١٤١ نقلا عن تفسير الفخر الرازى ٤ / ٦٥، مع التصرف والتنظيم.

(١٠٧) فتح القدير للشوكانى.

(١٠٨) فتح القدير للشوكانى.

(١٠٩) وابدأ بمن تعول:

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٢٦) وفى النفقات (٥٣٥٥، ٥٣٥٦) ومسلم فى الزكاة (١٠٤٢) وأبو داود فى الزكاة (١٦٧٦، ١٦٧٧) والترمذى فى الزكاة (٦٨٠) والنسائى فى الزكاة (٢٥٣٤) وأحمد فى مسنده (٧١١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول. ورواه البخارى فى الزكاة (١٤٢٨) ومسلم فى الزكاة (١٠٣٤) والنسائى فى الزكاة (٢٥٤٣) والدارمى فى الزكاة (١٦٥٣) وأحمد فى مسنده (١٤٨٩٣، ١٤٩٠٢، ١٥١٥٠) من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله. ورواه مسلم فى الزكاة (١٠٣٦) والترمذى فى الزهد (٢٣٤٣) وأحمد في مسنده (٢١٧٦٢) من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى. ورواه أحمد فى مسنده (٤٤٦٠) من حديث القعقاع بن حكيم قال كتب عبدالعزيز بن مروان إلى ابن عمر أن ارفع إلى حاجتك قال فكتب إليه ابن عمر إن رسول الله ﷺ كان يقول إن اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ولست أسألك شيئا ولا أرد رزقا رزقنيه الله منك. ورواه أحمد فى مسنده (١٤١٢٢) من حديث جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ أفضل الصدقة عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى:

(١١٠) قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصنى فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول

إبراهيم يا رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد فيقول الله تعالى إنى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار.

(١١١) الانتصاف على الكشاف لأحمد بن المنير ٢ / ٤٠ .

(١١٢) أينا لم يظلم :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٢) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩) وفى التفسير (٤٦٢٩، ٤٧٧٦) وفى استتابة المرتدين (٦٩١٨، ٦٩٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٢٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٦٧) وأحمد فى مسنده (٣٥٧٨، ٤٢٢٨) من حديث عبدالله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أصحاب رسول الله ﷺ أينا لم يظلم فأنزل الله عز وجل (إن الشرك لظلم عظيم).

(١١٣) إنه ليس الذى تعنون:

تقدم فى الذى قبله.

(١١٤) إن الله يبغض الحبر السمين:

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فذكره.

(١١٥) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام ص ١٧٤ الطبعة الرابعة.

(١١٦) إنكم سترون ربكم:

رواه البخارى فى التفسير ح (٤٥٨١)، وفى التوحيد ح (٧٤٤٠)، ومسلم فى الإيمان ح (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(١١٧) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام الطبعة الرابعة ص ٢٠٢ .

(١١٨) انظر تفسر ابن كثير.

(١١٩) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسر تأليف محمد بن محمد الشوكانى وفاته بصنعاء ١٢٥٠ هـ دار الفكر ٢ / ١٥٠.

(١٢٠) تفسير القرطبى ٧ / ٦٠ .

(١٢١) اقرؤا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه:

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج محمد بن نصر وأبو جعفر النحاس فى كتاب الوقف والابتداء والخطيب فى تاريخه وأبو نصر السجزى فى الإبانة عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «اقرءوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه. أما إنى لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون». ورواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩١٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

(١٢٢) قل آمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) والترمذى فى الزهد (٢٤١٠) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٢) وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٤٩٩١، ١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣، ١٨٩٣٨) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفى. وقال الترمذى: حسن صحيح .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم (الجزء السابع)

(محتويات الكتاب)

تم تفسير الجزء السابع ويليه تفسير الجزء الثامن إن شاء الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

المفردات :

حشرنا : جمعنا وعرضنا .

قبلا : أى : مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم ، أو هو جمع قابل بمعنى : مقابل لحواسهم . أو جمع قبيل بمعنى : كفيل – أو جمع قبيلة بمعنى : جماعة .

التفسير :

١١١– وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ... الآية .

كان أهل مكة يقترحون على النبى ﷺ أن يأتيهم بآيات ومعجزات كونية غير ما أيده الله بها.

والقرآن هنا يبين أن الإيمان يقين يهدى إليه التفتح للحق ، والاتقياء له ، وأهل مكة قد صمُّوا آذانهم عن سماع أدلة الحق .

فلو نزلت إليهم الملائكة ، حتى يروهم عيانًا ، ويسمعوا تأييدهم لرسالة محمد ﷺ ، ويخبروهم بصدقه .

وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى . الذين ماتوا من قومهم شاهدين بصدق نبوة محمد ﷺ .

وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً . أى : وجمعنا كل شىء من الآيات الكونية ، مقابلة ومواجهة ، أو جماعة جماعة وقبيلة قبيلة .

مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ . أى : لو فعلنا كل ذلك ؛ ما استقام لهم الإيمان ؛ لسوء استعدادهم وفساد فطرتهم ، إلا أن يشاء الله إيمانهم فيؤمنوا – وهو سبحانه – القادر على كل شىء .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . فيقترحون الآيات سفهًا ، دون رغبة فى الإيمان .

وأجاز بعضهم أن يكون المعنى : ولكنّ أكثر المسلمين يجهلون أنّهم لا يؤمنون فلذا يقترحون نزول الآيات طمعًا فى إيمانهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ . (الأعراف : ١٤٦) .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات :

شياطين : جمع شيطان ، وهم المتمردون من الجن أو الإنس .

يوحى : يوسوس .

زخرف القول : أى : القول المزين ظاهره ، الباطل باطنه .

ولتصغى : ولتميل .

أفئدة : قلوب .

وليقترفوا : وليكتسبوا القبائح .

التفسير :

١١٢- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا... الآية.

فى هذه تسلية لرسول الله ﷺ فقد كُذبت رُسلٌ من قبله ، وكأنما تواطأ الكفار ، وتواصوا على تكذيب المرسلين.

والمعنى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداءً يخالفونك ويعادونك – جعلنا لكل نبى من قبلك أيضًا أعداء من شياطين الإنس والجن ذوى الضرار ، يُلقى بعضهم إلى بعض القول المزيّن ظاهره الفاسد باطنه ، ومن ذلك ما ألقاه شياطين الجنّ فى نفوس شياطين مكة ، من اقتراح آيات ومعجزات خاصة على رسول الله ﷺ.

وقد وردت فى تفسير ابن كثير عدة روايات ، تفيد أن النبى ﷺ أمر المسلمين أن يستعيذوا بالله من شياطين الإنس والجن ، فقد قال ﷺ لأبى ذر : «يا أبا ذر ، هل تعوذن بالله من شياطين الجن والإنس؟» قال أبو ذر : لا يا رسول الله ثم قال : وهل للإنس من شياطين ؟ قال : «نعم هم شر من شياطين الجن» [1] .

قال ابن كثير: ومجموع روايات هذا الحديث تفيد قوته وصحته.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ.

أي: ولو شاء ربك ألا يفعل هؤلاء الشياطين ما فعلوه، من معاداة الأنبياء، ومن الإيحاء بالقول الباطل؛ لتم له ذلك، ولكنّه تعالى تخلىَّ عنهم؛ لانصرافهم عنك.

فدعهم يا محمد وما يفترون من الكفر، وغيره من ألوان الشرور فسوف يعلمون سوء عاقبتهم.

١١٣ - وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ... الآية.

هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ...

والمعنى: يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروا به الضعفاء، ولتميل إلى هذا الزخرف الباطل في القول، قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، لموافقته لأهوائهم وشهواتهم، وليرضَوْه لأنفسهم، وليكتسبوا ما هم مكتسبون، من الأعمال السيئة، فإن الله سيجازيهم عليها بما يستحقونه.

قال أبو حيان التوحيدي في تفسير الآية:

وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة؛ لأنه أولاً يكون الخداع، فيكون الميل، فيكون الرضا، فيكون الاقتراف. فكل واحد مسبب عما قبله.

وقد جعل القرآن عدم إيمانهم بالآخرة، سببًا لإصغائهم إلى شياطين الإنس والجنّ، وما يزخرفونه لهم من الكفر والمعاصي؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون البعث والحساب والجزاء؛ لفكّروا فيما يلقيه الشياطين، ولخافوا سوء عاقبته.

★ ★ ★

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)﴾

المفردات:

أبتغي: أطلب.

حكما: حاكما يفصل بيني وبينكم.

مفصلا : مبينًا .

الممترين : الشاكّين .

التفسير :

١١٤ – أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ... الآية .

روى أن مشركى مكة قالوا لرسول الله ﷺ ، اجعل بيننا حكمًا من أحبار اليهود ، أو من أساقفة النصارى ، ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزل قوله تعالى :

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا [٢] ... الآية .

والمعنى : قل لهم يا محمد : أيصح غير الله حكمًا يفصل بينى وبينكم ، فيظهر باطلكم ، الذى اعتمدتم فيه على زخارف الشياطين ، ويبين الحق الذى جئت به مؤيدًا بالبراهين ، وهو سبحانه الذى أنزل إليكم القرآن مفصلاً ومبينًا فيه الحق والباطل .. ولا حكم خير منه ؟!!

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ .

أى : والذين آتيناهم الكتاب ، أى : التوراة والإنجيل ، من اليهود والنصارى ، يعلمون علم اليقين ، أن هذا القرآن منزل عليك من ربك بالحق ؛ لأنهم يجدون فى كتبهم البشارات التى تبشر بك ، ولأن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك ، مصدق لكتبهم ومهيمن عليها .

فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . أى : من الشاكّين ؛ لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك ، مرده إلى الحسد والجحود، وهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد ، وتثبيت اليقين .

قال ابن كثير : وهذا كقوله تعالى : فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . (يونس : ٩٤) .

قال : وهذا شرط والشرط لا يقتضى وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنّه قال : «لا أشكّ ولا أسأل»[٣].

وقيل : الخِطَابُ هنا لكل أحد ، على معنى : أن الأدلة على كون القرآن منزلاً بالحق من الله سبحانه وتعالى، قد بلغت من الوضوح والقوة ، بحيث لا تترك مجالاً للافتراء والشك فيها من أحد من العقلاء .

فكأنه يقول : فلا تكن – أيها العاقل – من المتشككين ، فى كون القرآن منزلٌ فى ربك بالحق ، وأنه هو الحكم بين الرسول وبين الكافرين .

وقيل : الخطاب للنبىّ ﷺ والمقصود أمته ؛ لأنه – ﷺ – حاشاه من الشك .

١١٥ – وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

المراد بكلمة ربك : القرآن الكريم ، وفى قراءة (كَلِمَاتُ رَبِّكَ) أى : أن هذا القرآن كامل من حيث ذاته ، صادقًا فى أخباره ووعده ووعيده ، عادلاً فى أحكامه ، فقد بلغ الغاية القصوى فى ذلك ، لا مبدّل لهذا الكتاب، فهو محفوظ بعناية الله تعالى من عبث العابثين ، وتبديل المبدلين. وإنما تكفّل الله بحفظ القرآن دون غيره ؛ لأنه تضمَّن شريعة الله الباقية إلى قيام الساعة ، الصالحة لكل زمان ومكان ، بخلاف ما تقدمه من الكتب ، فإنه كان لوقت محدود .

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى : السَّمِيعُ لكل ما فى شأنه أن يسمع ، الْعَلِيمُ بكلّ ما يسرون ، وما يعلنون ، وفى لازم ذلك الجزاء العالى ، وإثابة الطائع وتعذيب العاصى .

★ ★ ★

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

المفردات :

إن يتبعون إلا الظن : ما يتبعون فى عقائدهم وأحوالهم إلاَّ التخمين الباطل .

وإن هم إلا يخرصون : وما هم إلا يكذبون على الله سبحانه . وأصل الخرص : الظن والتخمين . ومنه خرص النخل وهو تقدير ما عليها من التمر ظنا .

التفسير :

١١٦ – وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... الآية .

المراد بأكثر من فى الأرض : أهل الكتاب الذين تركوا هداية أنبيائهم ، وضلوا ضلالاً بعيدًا ، وكذلك أمم الوثنية .

والمعنى : وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ . فى عقائدهم وأهوائهم .

يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ . وهو الدين القويم الذى شرعه الله لعباده .

ويجوز أن يكون المعنى : أن الطبيعة الغالبة فى البشر هى اتباع الظنون والأهواء ؛ لأن طلب الحق متعب، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتمحيص ، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين فى أحكامهم.

إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ . ما يتبع أكثر الناس إلا الظن المفضى إلى الباطل ، الذى لا يستند إلى دليل ، وما هم إلا يكذبون فى عَزْو أحكامهم إليه تعالى افتراءً وزورًا .

ومن ذلك زعمهم : أن الله اتخذ ولدا ، وأن الأوثان تقربهم إلى الله زلفى ، وأن الله أحل أكل الميتة ، وشرع البحيرة والسائبة .

قال الإمام الشوكانى فى تفسيره «فتح القدير» :

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .

لأن عادة الله فى خلقه جرت على أن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين ، أما أكثر الناس فإنهم يتبعون فى أمور الدين أهواءهم .

إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ . الذى لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة ، وأنها تقربهم إلى الله.

وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ . أى : يحدسون ويقدّرون . ا هـ

والخرص والتخمين والتقدير بمعنى واحد ، وهو جائز فى بعض المعاملات ، وفى تقدير الزكاة فى الرطب والعنب ، بتقديرهما تمرًا أو زبيبًا ، وإخراج الزكاة وفقا لهذا التقدير .

إلا أن هذه الأمور لا تجوز فى العقائد ؛ لأنها لا تبنى إلا على الدليل القطعى .

١١٧ - إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

هذه الآية تقرير للآية السابقة ، وتأكيد لما يفيده مضمونها ، أى : إنَّ ربك الذى لا تخفى عليه خافية، هو أعلم منك ومن سائر خلقه ، بمن يضل عن طريق الحق ، وهو أعلم منك ومن سائر الخلق أيضا بالمهتدين السالكين .

لقد قررت الآيات ما يأتى :

١ - تكفل الله بحفظ كتابه من التغيير والتبديل .

٢ - الطبيعة الغالبة فى البشر هى اتباع الظنون والأهواء ؛ لأن طلب الحق متعب ، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتمحيص ، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين فى أحكامهم .

٣ - الله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده .

★ ★ ★

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

التفسير:

١١٨ - فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ .

كان المشركون المكِّيون يأكلون الميتة ، ويأكلون مما ذكر اسم أوثانهم عليه عند ذبحه ، ويمتنعون عن ذبح البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الإبل ، ويحرِّمون ذبحها ، وقد ناقشهم القرآن فى هذه السورة كثيرًا فى أمر ذبائحهم الباطلة ، وتشريعاتهم الباطلة ، التى يزعمون أن الله شرع لهم ما أحلوا وما حرموا .

فأنزل الله هذه الآية آمرًا المسلمين أن يخالفوهم ، فيأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح .

والمعنى : لا تحرموا مما ذكر اسم الله عليه شيئًا على أنفسكم ، ولا تمتنعوا عن أكله تدينًا لأن كل ما ذكر الذابح عليه اسم الله فهو حلال ، إن كان مما أباح الله أكله .

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس . قال : أتى ناس إلى النبى - ﷺ - فقالوا : يا رسول الله ، إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله ، فأنزل الله - **فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ... إلى قوله : **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** .

وكان المشركون يستحلون الميتة ويرون أن الله هو الذى قتلها فهى أولى بالأكل .

فخاطب الله المسلمين بهذه الآيات مشرعًا للمسلمين ناقضًا لتشريعات المشركين .

١١٩ - وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ...

أى : أىُّ مانع يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك ؟ فالاستفهام هنا إنكارىٌّ ، لدفع التحرج من تناوله ، إذا كان مما حرمه المشركون زورًا ، وافتراءً على الله ، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فإنها حلال فى شرع الله ، كسائر ما يذبح مذكورًا عليه اسم الله .

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ . أى : بين لكم المحرمات من الأطعمة ، بيانًا مفصَّلاً يدفع الشك ويزيل الشبهة ، بقوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (المائدة : ٣) .

فكونوا عند حدود الله فلا تعتدوها .

إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ . أى : لكن ما اضطررتم إلى أكله من المحرمات ، فإنه حلال لكم ، بقدر الضرورة التى تحيا بها النفس .

وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .

وإن كثيرًا من الكفار ليضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، بأهوائهم الزائفة ، وشهواتهم الباطلة ، بغير مستند إلى وحى الله تعالى . «وهكذا فى كثير من الشعوب تحريمات راجعة إلى الهوى والجهل».

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

أى : أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال والحرام .

قال تعالى : وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ . (النحل : ١١٦) .

★ ★ ★

﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ
﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المفردات :

وذروا : واتركوا .

ظاهر الإثم وباطنه : أى : الذنب الظاهر والخفى .

يقترفون : الاقتراف : الاكتساب مطلقا ، ولكنه فى الإساءة أكثر .

التفسير :

١٢٠- وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ... الآية .

واتركوا الذنب ظاهره وباطنه ، جهرة وخفية ، أى : اتركوا جميع المعاصى .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . إن الذين يرتكبون المعاصى ظاهرة أو باطنة ، سيجزون بما يستحقونه من عقوبات . وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

١٢١ – وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ... الآية .

أى : لا تأكلوا – أيها المسلمون – من أى حيوان لم يذكر عليه اسم الله عند ذبحه ، بأن ذكر عليه اسم غيره، أو ذكر اسم مع اسمه ، أو كان من الميتة .

وإن الأكل منه ؛ خروج عن طاعة الله تعالى ، وإثم .

وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآءِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ... أى : يلقون إليهم بالشبه ويخبرونهم ما يستندون إليه فى مجادلتكم كقولهم : (أنتم لا تأكلون مما قتل الله ، وتأكلون مما قتلتم أنتم) .

ذبيحة المسلم :

إنْ ترك المسلم التسمية عمدًا حرم أكله عند الجمهور ، وإن تركها ناسيًا لم يضّر .

وقال الشافعى وغيره : التسمية مستحبة وليست واجبة ، وإن تركها المسلم ولو عمدًا لم يضّر ؛ فإن اسم الله على لسان كل مسلم .

وقيل : الآية واردة فى الميتة التى لم تذبح أصلا ، وفيما ذبح لغير الله .

وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

أى : من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره ؛ فقد أشرك بالله .

★ ★ ★

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

المفردات :

أو من كان ميتا فأحييناه : أو من كان كافرا فهديناه ؟ جعل الكفر موتا ، والهداية إحياءً .

التفسير :

١٢٢ – أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا... الآية.

الآية تمثيل بليغ للمؤمن والكافر ، والمقصود منها : تثبيت المؤمنين ؛ حتى لا يفكروا فى متابعة المشركين .

والمعنى : لستم أيها المسلمون مثل المشركين حتى تتبعوهم فى جاهليتهم ؛ فإن الله أحياكم بالهداية، بعد موتكم الروحى بالكفر والشرك ، وأنعم عليكم بأن جعل لكم نورًا تمشون به فى الناس ، بما أنزله إليكم من أنوار القرآن والهدى النبوى ، فهل يصح لكم أن تتبعوا من يعيشون فى الظلمات .

وخلاصة المقصود :

أو من كان فى غيه وضلاله ميتًا ، فأحييناه بالهدى ودين الحق ، كمن صفته أنه غارق فى الظلمات ليس بخارج منها ؟!

والنور : عبارة عن الهداية والإيمان ، وقيل : هو القرآن ، وقيل : الحكمة .

وجمهور المفسرين يرون أن المثل فى الآية عام لكل مؤمن ولكل كافر ، وقيل : إن المراد بمن أحياه الله وهداه : عمر بن الخطاب ، وبمن بقى فى الظلمات أبو جهل بن هشام .

قال الشوكانى : كانا ميتين فى ضلالتهما ، فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزَّه ، وأقر أبا جهل فى ضلالته وموته.

وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال :

«اللهم ، أعز الإسلام بأبى جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب» فاستجيب له فى عمر بن الخطاب .

وقيل : نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل ، وقيل : فى حمزة وأبى جهل وعند التأمل نرى :

أن الآية عامة فى كل من هداه الله إلى الإيمان بعد أن كان كافرًا ، وفى كل من بقى على ضلالته ، ويدخل فى ذلك هؤلاء المذكورون دخولا أوليًا .

كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أى : مثل ذلك التزيين الذى تضمَّنته الآية ، وهو تزيين الهدى للمؤمنين ، وظلمات الشرك للضالين ، قد زين للكافرين ما كانوا يعلمونه من الآثام ، كعداوة النبى ﷺ ، وذبح القرابين لغير الله ، وتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، وغير ذلك من المنكرات .

★ ★ ★

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

التفسير :

١٢٣ - وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ... الآية.

المعنى : وكما جعلنا فى قريتك مكة رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك ؛ جعلنا فى كل قرية من قرى الرسل من قبلك ، رؤساء من المجرمين مثلهم ؛ ليمكروا فيها ، ويتجبروا على الناس ، ثم كانت العاقبة للرسل، فلا تبتئس يا محمد بما يصيبك من زعماء مكة ، فتلك طبيعة الحياة فى كل عصر ، أن يكون زعماء الأمم وكبراؤها ، أشد الناس عداوة للرسل والمصلحين .

قال ابن كثير : والمراد بالمكر هنا : دعاؤهم غيرهم إلى الضلالة ، بزخرف من المقال والفعال .

وفى التفسير الوسيط : وإنما جعل الله أكابر المجرمين فى كل قرية ؛ ليمكروا فيها ؛ امتحانًا لعباده ، كما امتحنهم بشياطين الجنّ حتى يظهر الصادق فى إيمانه من الكاذب ، ويجزى الله كلاً بما هو أهله وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ... (الفرقان : ٢٠) .

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

وما يعود وبال مكرهم إلا عليهم ، ولكنهم لانطماس بصيرتهم ؛ لا يشعرون بأنّ مكرهم سيعود ضرره عليهم ، بل يتوهمون أنّهم سينجون فى مكرهم بغيرهم من الأنبياء والمصلحين .

والآية مسوقة لتسلية الرسول عما يلقاه من مكر عتاة المشركين .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

المفردات :

أجـرمـوا : اكتسبوا جرما ، والجرم : الذنب .

صـغـار : ذل وهوان .

التفسير :

١٢٤ – وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ... الآية.

هذه الآية استمرار فى مناقشة أهل مكة ، ومجابهة للظالمين والمتكبرين منهم عن الاستجابة للهدى.

سبب النزول :

قال مقاتل بن سليمان نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشَّرف ، حتى إذا صرنا كفرسَىْ رهان ، قالوا : منا نبى يوحى إليه .. والله ، لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبدًا ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ؛ فأنزل الله سبحانه الآية .

وروى أنَّ الوليد بن المغيرة قال للنبى ﷺ : لو كانت النبوة حقًّا لكنت أنا أولى بها منك ؛ لأنِّى أكبر منك سنًّا وأكثر مالا ؛ فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : وإذا أنزلت على النبى ﷺ آية تدعو قريشًا إلى الإيمان بما جاءهم به ؛ امتنعوا عن الإيمان به ؛ حسدًا واستكبارًا .

وقالوا : لن نؤمن حتى نؤتى من الوحى مثل ما أوتى رسل الله ، وتكون لنا نبوة ، كما لبنى عبد مناف نبوة ، وإلا فلن نؤمن بمحمد .

ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ .

الله سبحانه وتعالى يختار لرسالته المعدن السليم ، والقلب النظيف ، الذى لا يحمل الحقد ولا الحسد ولا الكبر .

ثم إنَّ الرسالة منةٌ من الله وفضل ، والله يختص برحمته من يشاء .

قال الآلوسى :

وجملة **ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ** استئناف بيانى .

والمعنى : إنَّ منصب الرسالة ، ليس مما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد ، وتعاضد الأسباب والعدد ، وإنما ينال بفضائل نفسانية ، ونفس قدسية ، أفاضها الله تعالى ، بمحض الكرم والجود ، على من كمل استعداده . اهـ .

لقد اصطفى الله لرسالته الأنبياء والمرسلين ، واختار أولى العزم من الرسل ، فجعلهم قدوة وأسوة ؛ لأنهم كانوا أكثر تحملاً وجهادًا وتضحية ، قال تعالى : **فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ** . (الأحقاف : ٣٥)

وأولو العزم من الرسل خمسة : إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وقد أتمّ الله الرسالات بمحمد ﷺ ومنحه من المزايا الخلقية والنفسية وغيرها ، ما جعله رحمة للعالمين .

روى الإمام مسلم فى كتاب الفضائل عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال :

إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل كنانه ، واصطفى من بنى كنانة قريشًا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى من بنى هاشم محمدًا - ﷺ - [٤] .

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ .

قال القرطبى : الصَّغار : الضيم والذل والهوان .

والمعنى : سيصيب أولئك المستكبرين المجرمين ، ذلة وهوان شديد ثابت لهم عند الله فى الدنيا والآخرة، بدل العزة التى طلبوها بالاشتراك فى النبوة ، ويصيبهم إلى جانب ذلك عذاب شديد بسبب مكرهم بنبى الهدى ولا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله .

★ ★ ★

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

المفردات :

حرجا : شدة الضيق . وفعله : حَرِجَ حَرَجًا ، من باب تَعِبَ تَعَبًا . وقد وُصِفَ الصَّدرُ بالحَرَج الذى هو المصدر، للمبالغة . والمراد : أنه شديد الضيق .

الرجس : العذاب ، أو ما لا خير فيه .

دار السلام : دار المسألة . والمراد بها : الجنة .

التفسير :

١٢٥ - فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ .... الآية .

الشرح فى اللغة معناه : الفتح والشق . وشَرْحُ الصَّدْرِ للإسلام ؛ كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مُهَيَّأَةً لحلوله فيها ، مُحَصَّنَةً مما يمنعه وينافيه .

أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره ؟ فقال : «نور يقذف فينشرح له وينفسح» ، قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ فقال : «نعم الإنابة إلى دار الخلود ، والإعراض عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» (٥) .

والمعنى: من يرد الله هدايته ؛ يشرح صدره للحق ، ويهيئ نفسه لقبول الإسلام ، لما علمه من حسن استعداده وسعيه فى قبوله ، ومن يرد أن يضله ويبعده عن الحق ؛ يجعل صدره ضيقًا شديد الضيق ؛ لتمسكه بضلاله لا يبغى به بديلاً .

كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .

فإن من صعد فى السماء يحس بأشد الضيق، وقرب الاختناق ، لقلة الهواء، وهذا التشبيه من معجزات القرآن، وكذلك من يُدْعى إلى الإسلام، وقد قدِّر عليه الضلال أى : يجد أشد الضيق لذلك .

قال أبو السعود: شبه ضيق صدره بالحق، بمن يزاول ما لا يكاد يقدر عليه ، فإن صعود السماء ، مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة ، وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود ، وقيل معناه: كأنّما يتصاعد إلى السماء ، نبوًا عن الحق وتباعدًا فى الهرب .

كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ .

أى: مثل جعل الصدر ضيقًا حرجًا بالإسلام ، يجعل الله الرِّجْسَ وهو العذاب أو الخذلان أو اللعنة على الذين لا يؤمنون ، فيترك الشيطان مسلطًا عليهم ، ولا يلطف بهم .

وخلاصة الآية: أنَّ من تقرب إلى الله ؛ أعانه ، ومن بعد عنه ؛ خذله .

١٢٦- وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

وهذا دين ربِّك الذى ارتضاه وهو الإسلام مُسْتَقِيمًا لا عوج فيه ، ولا ميل فيه ، إلى إفراط أو تفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال .

قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ .

أى : جعلناها بينة واضحة مفصَّلة، لقوم يتذكرون ما فيها من هدايات وإرشادات فيعملون بها ؛ لينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .

١٢٧ - لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أي : هؤلاء المتذكرين المتقين لهم دار السلامة من كل المكاره في جوار ربهم وكفالته، وهو مولاهم وناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة .

قال تعالى : فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) ﴾

المفردات :

يا معشر : المعشر : الجماعة المختلطون بالعِشرة .

مثواكم : مقركم ومآلكم .

التفسير :

١٢٨ - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ ... الآية .

تشير هذه الآيات إلى حوار بين الله سبحانه وتعالى وبين من خرج عن طاعته من الإنس والجن .

والمعنى: وذكِّر يا محمد الخلائق ، يوم يحشر الله الإنس والجن ، إلى ساحة القيامة ، فيوبِّخ شياطين الجنّ قائلاً لهم: يا جماعة الجن المفسدين ، قد استكثرتم من إغواء الإنس ، وإضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم ، فلم تكتفوا بضلالكم وكفركم ، بل تجاوزتموه إلى إغواء الإنس .

وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .

قال الذين أطاعوهم من الإنس :

لقد استمتعنا بارتكاب الملذات وإشباع الشهوات ، التي زينتها لنا الجن ، واستمتعت الجن بطاعة الإنس لهم .

قال أبو السعود :

أى : انتفع الإنس بالجن بأن دلُّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وقيل : بأن ألقوا إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة . وأما انتفاع الجن بالإنس ، فإن الإنس صاروا أتباعًا لهم ، وأطاعوهم ، وحصَّلوا مرادهم بقبول ما ألقوه إليهم .

وقيل : استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم من المفاوز والمخاوف ، واستمتاعهم بالإنس ، اعتزامهم بأنّهم قادرون على إجارتهم .

وبعد هذا الإقرار الذى لم يجدوا عنه محيصًا قالوا فى ندامة وحسرة :

وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا .

أى: يوم القيامة الذى أجلته لحسابنا وجزائنا ، حيث بُعثنا ، وظهرت لنا قبائح أعمالنا ، التى نستحق العقاب عليها ، لتركنا صراطك المستقيم .

قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ .

قال الله تعالى : النار منزكم ، ومحمل إقامتكم الدائمة ، فأنتم خالدون فيها فى كل وقت ، إلاّ فى وقت مشيئة الله بخلاف ذلك ؛ لأن الأمور كلها متروكة إليه وخاضعة لمشيئته .

عن ابن عباس قال: فى هذه الآية: لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه، لا ينزلهم جنة ولا نارًا.

قال أبو السعود :

إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ .

روى عن ابن عباس أنه قال : استثنى الله تعالى قومًا ، قد سبق فى علمه أنهم يُسلمون ويصدِّقون النبى ﷺ ، وقيل المعنى : الأوقات التى ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير، فقد روى أنهم يدخلون واديًا فيه من الزمهرير ما يميّز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ، ويطلبون الردّ إلى الجحيم ؛ وقيل : يفتح لهم وهم فى النار باب إلى الجنة فيسرعون نحوه ، حتى إذا ما وصلوا إليه سدّ عليهم الباب .

وقد ورد فى تفسير المنار ، دراسة مستفيضة حول فناء النار بمن فيها . وهى مسألة خلافية بين العلماء .

ومعنى الآية: إلا وقت مشيئة الله فناء النار وزاول عذابها .

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

أى : حَكِيمٌ فى عقاب الظالمين ، عَلِيمٌ بما فى صدورهم فلا تخفى عليه خافية .

١٢٩- وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

أى: ومثل ما سبق من تمكين الجنّ من الإنس وإضلالهم ، لما بينهم من التناسب والمشاكلة ، نولّى بعض الظالمين من الإنس بعضًا آخر منهم ، بأن نجعلهم يزينون لهم السيئات .

قال الشوكانى :

نسلّطُ ظَلَمة الجن على ظلمة الإنس ، ونسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله .

عن الأعمش قال : إذا فسد الزمان ؛ أمّر عليهم شرارهم ، وقال فضيل ابن عياض : إذا رأيت ظالمًا ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجبًا .

وقال الإمام الرازى : والآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين ، فالله تعالى يُسلط عليهم ظالمًا مثلهم ، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم .

★ ★ ★

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ
أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ
﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المفردات :

يا معشر : المعشر جماعة أمرهم واحد .

يقصون : يتلون .

وغرتهم : وخدعتهم .

التفسير :

١٣٠- يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ... الآية.

جاءت هذه الآية لتقريع الإنس والجن على معاصيهم .

جاء في تفسير الطبرى:

« وهذا خبر من الله جل ثناؤه، عما هو قائل يوم القيامة ، لهؤلاء العادلين به ، من مشركى الإنس والجن، يخبر أنه تعالى يقول لهم : يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي .

يقول : يخبرونكم بما أوحى إليهم ، من تنبيهى إياكم على مواضع حججى ، وتعريفى لكم أدلتى على توحيدى ، وتصديق أنبيائى والعلم بأمرى ، والانتهاء إلى حدودى .

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا . يقول : يحذرونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا ، وعقابى على معصيتكم إياى ، فتنتهوا عن معاصىَّ . وهذا من الله تعالى تقريع لهم ، وتوبيخ على ما سلف منهم فى الدّنيا من الفسوق والمعاصى ، ومعناه : قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطإ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة ، وينذرونكم وعيد الله فلم تقبلوا ولم تتذكروا ». اهـ .

قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ . (الأنعام : ١٣٠) .

تحكى الآية موقفًا من مواقف القيامة ، حين يوبِّخ الله جماعة المكذبين بالرسل من الإنس والجن.

ولا يملك كفَّار الإنس والجن ، إلا أن يعترفوا على أنفسهم ، بأن الرسل قد بشروهم وأنذروهم ، ولم يقصروا فى تبليغهم وإرشادهم .

ولكن الكفار غرّتهم الحياة الدنيا ، من الشهوات والمال والجاه وحب الرياسة ، فاستحبوا العمى على الهدى ، وباعوا آخرتهم بدنياهم .

وشهدوا على أنفسهم أمام الله يوم القيامة ، أنهم كانوا كافرين فى الدنيا بما جاءتهم به الرسل .

والآية تشتمل على التحذير للسامعين فى الدنيا؛ حتى لا يتعرضوا لمثل هذه المواقف، فى يوم الحشر والحساب.

ونلاحظ أن مشاهد الآخرة متعددة . ومواقف الحساب كثيرة . فأحيانًا ينكر الكفار شركهم بالله ، ويقولون: وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الأنعام : ٢٣) . وحينا آخر يعترفون بخطئهم وغرورهم ، ويشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وهو دليل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم ، كما ذكر ذلك الإمام الزمخشرى فى تفسير الكشاف .

١٣١ – ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ .

المعنى: ذلك الذى ذكرناه لك يا محمد ، من إتيان الرسل يقصُّون على الأمم آيات الله ، سببه أن ربك لم يكن من شأنه ، ولا من سنته فى تربية خلقه ، أن يهلك القرى من أجل أى ظلم فعلوه ، قبل أن ينبهوا على بطلانه ، وينهوا عنه بواسطة الأنبياء والمرسلين .

كما في قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى . (طه : ١٣٤) .

فـــائدة :

جمهور العلماء يرون أن الرسل جميعًا من الإنس .

وقال مقاتل والضحاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس .

وقال السيد رشيد رضا في تفسير المنار :

وجملة القول في الخلاف : أنه ليس في المسألة نص قطعي ، والظواهر التي استدل بها الجمهور يمكن أن تكون خاصة برسل الإنس ؛ لأن الكلام معهم ، وليست أقوى من ظاهر ما استدل به من قال : إن الرسل من الفريقين ، والجن عالم غيبي ، لا نعرف عنه إلاَّ ما ورد به النص ، وقد دل القرآن والسنة على رسالة نبينا محمد ﷺ ، فنحن نؤمن بما ورد ، ونفوض الأمر فيما عدا ذلك إلى الله تعالى .

١٣٢ - وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أي : ولكل من الجن والإنس درجات ومنازل متفاوتة في الآخرة ، في الجنة والنار بحسب أعمالهم صالحة كانت أو سيئة ، أو من أجل أعمالهم ، إذ الجزاء من جنس العمل .

وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . بل هو عالم بأعمالهم ، ومحصيها عليهم ، وسيجازيهم عليها جزاءً عادلاً، بما يستحقونه من ثواب وعقاب .

★ ★ ★

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم
مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ
لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

المفردات :

وما أنتم بمعجزين : وما أنتم بمعجزين طالبكم .. فلا تقدرون على الإفلات من عقابه الذي توعدكم به .

اعملوا على مكانتكم : اعملوا على تمكنكم فيما أنتم فيه ، بقدر ما تستطيعون .

التفسير:

١٣٣- وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ .... الآية .

أى : هو سبحانه مستغن عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم ، لا ينفعه إيمانهم ولا يضرُّه كفرهم، ومع كونه غنيًا عنهم ، فهو ذو رحمة بهم ، والرحمة بهم مع كمال الغنى عنهم ، هو غاية الكرم والفضل .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه حديثًا قدسيًا رواه أبو ذرٍّ جاء فيه :

« .. يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرّى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا .. يا عبادى، لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئًا، يا عبادى، لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كلاً مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئًا .. » الحديث (٦) .

قال الآلوسى : وفى هذه الآية تنبيه على أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل ليس لنفعه ، بل رحمة منه بالعباد .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ .

أى : إن يشأ يهلككم أيها العباد العصاة ، فيستأصلكم بالعذاب ، ويأتى بخلف لكم من بعدكم أطوع منكم ، فهو سبحانه قادر على ذلك .

قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسِ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .** (فاطر: ١٥ - ١٧)

كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ .

أى : مثلما أنشأكم من نسل قوم آخرين ، لم يكونوا على مثل صفتكم ، وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام .

١٣٤- إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

أى : إن ما توعدون من أمر القيامة والحساب والعقاب والثواب ، لواقع لا شك فيه .

وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ .

أى : بجاعليه عاجزا عنكم ، غير قادر على إدراككم ، فهو سبحانه القادر على الإعادة إذا صاروا ترابًا وعظامًا نخره كما قال تعالى : إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ. (الذاريات : ٥ ، ٦) .

١٣٥ – قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

أى : اثبتوا على ما أنتم عليه فإنى غير مبال بكم ، ولا مكترث بكفركم ، بل إنى عامل جهد طاقتى ، على تثبيت دعوتى إلى الله تعالى ، فسوف تعلمون بعد حين ، من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدنيا ، من النصر ووراثة الأرض ، ومن له النصر فى الآخرة .

إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

أى : لا يظفر بمراده من كفر بالله تعالى ، وأشرك به سبحانه .

قال ابن كثير :

وقد أنجز الله موعده لرسوله ﷺ فمكّن له فى البلاد ، وحكّمه فى نواصى مخالفيه من العباد، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذّبه من قومه ، واستقرّ أمره على سائر جزيرة العرب ، وكل ذلك فى حياته ، ثم فتحت الأقاليم والأمصار بعد وفاته ، قال تعالى : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . (غافر: ٥١) .

★ ★ ★

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

المفردات :

ذرأ : خلق .

الحرث : الزرع والثمار .

نصيبًا : جزءًا .

التفسير :

١٣٦ – وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا .... الآية .

تبدأ الآيات التالية حديثًا عن مساوئ الجاهلية وأوهام المشركين ، التى تتعلق بمآكلهم ومشاربهم ، ونذورهم وذبائحهم وتقاليدهم ، فتناقشهم فى كل ذلك مناقشة منطقية حكيمة ، وترد عليهم فيما أحلوه وحرموه بدون علم ولا دليل .

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا .

أى : جعلوا لله تعالى مما خلق من زروعهم ، وثمار أشجارهم ، ونتاج دوابّهم ، نصيبًا ينفقونه على الفقراء والمساكين والمحتاجين ، وجعلوا لآلهتهم نصيبًا من ذلك ، يصرفونه إلى سدنتها والقائمين بخدمتها.

ولكنهم إذا رأوا ما عينوه لله أزكى ، وأكثر نماءً مما عينوه لآلهتهم ، عكسوا فجعلوا ما لله لآلهتهم ، وما لآلهتهم لله تعالى ، وقالوا : الله غنى عن ذلك ، وإذا رأوا ما عينوه لآلهتهم أزكى مما عينوه لله تعالى ، فإنهم يتركونه لآلهتهم ، حبًّا وإيثارًا لها .

سَاءَ مَا يَحْكُمُون .

أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم ، حيث آثروا مخلوقًا عاجزًا عن كل شىء ، على خالق قادر على كل شىء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه ، لم يعدلوا فى القسمة .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

المفردات :

شركاؤهم : أى : أولياؤهم من الشياطين .

ليردوهم : ليهلكوهم .

وليلبسوا : وليخلطوا .

التفسير :

١٣٧- وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ... الآية.

أى : حسَّن الشياطين فى أعين أهل الجاهلية قتل الأولاد ، وقيل : شركاؤهم ها هنا : هم الذين كانوا يخدمون الأوثان – من الكهنة وسدنة الأصنام – زينوا لهم دفن البنات مخافة السبى والحاجة ، وقتل

الأولاد ؛ مخافة الفقر ، وكان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم ، كما فعله عبد المطلب حينما نذر أن يذبح آخر أبنائه ، إذا بلغ عددهم عشرة بنين .

لِيُرْدُوهُمْ . أي : ليهلكوهم ، من الردى وهو الهلاك ، يقال : ردى - كرضى - أي : هلك .

وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .

أي : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ، أو ما وجب عليهم أن يدينوا به .

وَلِيَلْبِسُواْ . مأخوذ من اللبس بمعنى : الخلط بين الأشياء ، التي يشبه بعضها بعض .

يقال : لبس الحق بالباطل ، ولبست عليه الأمر ، خلطته عليه ، وجعلته مشتبها حتى لا يعرف جهته .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ .

أي : ولو شاء الله عدم فعلهم ذلك ؛ لعصمهم منه ، ولكنّه خلاّهم وما يفعلون ؛ لأنه علم منهم إصرارهم على ضلالهم وكفرهم .

فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

أي : فاتركهم وافتراءهم على الله الكذب ؛ فإن ذلك لا يضرك .

قال أبو السعود : الفاء فاء الفصيحة ؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط ، مقدر ، أي : إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى ، فدعهم وافتراءهم ، أو ما يفترونه من الإفك ، فإن فيما شاء الله تعالى حكمًا بالغة ، إنما نملي لهم ؛ ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين ، وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى[7] .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

المفردات :

حــرث : زرع .

حــجـر : محجور محرم .

بزعمهم : أي بادعائهم من غير حجة .

التفسير :

١٣٨- وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ .... الآية .

تحكى هذه الآية نوعًا آخر من جهالاتهم وكفرهم ، وافترائهم الكذب على الله تعالى .

والمعنى: ومن بين أوهام المشركين وضلالتهم ، أنهم يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها ، ويقولون : هذه الأنعام وتلك الزروع حجْر ، وهى كلمة بزنة فِعْل بمعنى : مفْعُول ، أى : محجورة علينا أى : محرمة ممنوعة ، لا يأكل منها إلا من نشاء ، يعنون خدم الأوثان من الرجال دون النساء ، أى : لا يأكل منها إلا خدم الأوثان والرجال فقط .

وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .

حرّم المشركون طائفة من الجمال على أنفسهم وتركوها للمرعى منها ما يأتى :

١- البحيرة : التى تلد خمسة أبطن آخرها ذكر ، كانوا يشقون أذنها ويتركونها لآلهتهم .

٢- السائبة : اسم للناقة التى يتركها صاحبها فلا تنحر ؛ لأنها نجت في الحرب ، أو نذرها للأصنام.

٣- الوصيلة : اسم للناقة التى تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى ،كانوا يتركونها للأصنام ؛ لأنها وصلت أخاها .

٤- الحام : اسم للفحل إذا لقح ولد ولده قالوا : حمى ظهره فلا يركب ، ويترك حتى يموت .

قال تعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ . (المائدة : ١٠٣)

وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا . عند الذبح بل يذكرون أسماء أصنامهم .

وقيل : معناها : لا يحجون عليها ؛ لأن الحج لا يخلو عن ذكر الله تعالى .

افْتِرَاءً عَلَيْهِ . أى : كذبوا بادعائهم أن هذا من دين الله .

سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ . أى : سيعاقبهم الله بسبب افترائهم الكذب على الله تعالى .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩ ﴾

التفسير :

١٣٩- وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

وقال هؤلاء المشركون عن الأجنة التى فى بطون البحيرة والسائبة .. إذا نزل الجنين حيًّا فأكله حلال للرجال دون النساء ، وإن نزل ميتًا فأكله حلال للرجال والنساء على السواء .

قال ابن عباس : كانت الشاة إذا ولدت ذكرًا ذبحوه فكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركوها لم تذبح وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء .

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا .

وهن النساء ، ويدخل فى ذلك البنات والأخوات ونحوهن . وقيل : هو اللبن جعلوه حلالاً للذكور ومحرمًا على النساء .

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .

أى : سيعاقبهم الله جزاءً لهم على وصفهم الكذب ، وحكايتهم إياه على الله سبحانه ، بادعائهم أنه تعالى أحل وحرّم ما أحلوه وحرموه ، كما فى قوله تعالى : وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .(النحل : ٦٢) .

قال الآلوسى : وهذا كما قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون : كلامه يصف الكذب إذا كذب ، وعينه تصف السحر أى : ساحرة . وقدّه يصف الرشاقة بمعنى : رشيق ، مبالغة ، حتى كأن من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له .

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . أى : عظيم الحكمة والتعلم .

وإن الإنسان ليعجب ، كيف تحمل هؤلاء المشركون تضحيات وأعباء مادية ، وخسائر فى سبيل عقيدتهم الفاسدة ؟ وأمامهم نور القرآن وهديه ، يرسم لهم الطريق الواضح المستقيم ، فيصمُّون آذانهم عن الاستماع إليه .

★ ★ ★

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

المفردات:

خسر: خاب.

سفها: السفاهة: الخفة والجهالة.

التفسير:

١٤٠ – قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... الآية.

والمعنى: قد خاب هؤلاء المشركون، الذين وأدوا بناتهم؛ مخافة العار والفضيحة، وقتلوا بعض الذكور من الأبناء؛ مخافة الفقر والحاجة، وقد فعلوا ذلك سفهًا أى: بسبب الطيش والخفة، لا لحجة عقلية ولا شرعية.

فلو نشأت البنت على الفضيلة لما زلّت فى كبرها.

قال عكرمة: نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر، فقد كانوا يئدون بناتهم؛ مخافة السبى والعار، وأولادهم؛ خشية الفقر، جهلاً منهم بأن الله هو الرازق لأولادهم وحده.

وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ.

من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى، وغيرها من الحيوانات التى حرَّموها على أنفسهم.

افْتِرَاءً عَلَى اللّهِ. كذبًا عليه فإن الله لم يحرم من هذا شيئًا.

قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ

أى: انحرفوا عن طريق الحق والصواب، ولم يكونوا مهتدين لسوء سلوكهم، وفساد قلوبهم.

روى البخارى عن ابن عباس قال: «إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ.

★ ★ ★

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

المفردات :

جنات : بساتين .

معروشات : مرفوعات على ما يحملها .

متشابهًا وغير متشابه : الاشتباه والتشابه : بمعنى واحد ، والمراد به : التقارب فى نحو اللون والطعم .

حصاده : جنيه .

ولا تسرفوا : ولا تجاوزوا الحد فى الإنفاق .

التفسير :

١٤١- وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ... الآية .

يلفت القرآن النظر إلى بديع صنع الله فى خلقه ، ويعدد النِّعم ، ويلمس شغاف القلوب ؛ ليحركها نحو النظر إلى بديع صنع الله .

والمعنى : هو الله الذى خلق بساتين مختلفة ، بعضها مرفوعات على ما يحملها من العرائش مثل : الكرم، وبعض الزروع والبطيخ ، وبعضها متروكات بدون عرائش مثل : النخل وسائر الأشجار .

وَالنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ .

أى: وأنشأ النخل والزرع . والمراد بالزرع : جميع الحبوب التى يقتات بها ، مختلفا ثمره وحبّه : فى الهيئة وفى الطعم .

وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ .

أى : وأنشأ - سبحانه وتعالى - الزيتون والرمَّان : متشابهًا فى الثمر والشكل والهيئة والطعم واللون والحجم ، وغير متشابه فى ذلك ؛ إبداعًا فى الخلق والإعجاز .

كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ .

أى : كلوا من ثمر تلك الزروع والأشجار التى أنشأها لكم ، شاكرين الله على ذلك ، والأمر هنا للإباحة

وفائدة التقييد بقوله : إِذَا أَثْمَرَ . إباحة الأكل قبل النضوج والإدراك من نحو الفول الأخضر والباقلاء والفريك، للاستمتاع بنعم الله ، والطعام فى مراحل نموه المبكرة حيث تكون له نكهة ولذة تستحق الشكر والحمد لله .

قال القرطبى : وفيه أدلة على وجود الله ، وعلى عظيم المنة علينا :

١ – فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء ، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر ، طيب الطعم ، وإذ خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى ، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء ؛ لأنه لا يجب عليه شىء .

٢ – ومن دليل القدرة : أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها ، وثمر خارج من صفته : الجرم الوافر ، واللون الزاهر ، والجنى الجديد ، والطعم اللذيذ ، فأين الطبائع وأجناسها ، وأين الفلاسفة وأسسها ، هل هى فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان ؟ أو ترتّب هذا الترتيب العجيب ؟ كلا، لا يتمّ فى العقول إلا لحى قادر عالم مريد ، فسبحان من له فى كل شىء آية ونهاية !.

وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ . قيل : هى فى زكاة الزرع والثمار ، والزكاة لم تفرض إلا فى المدينة ، فقالوا : هذه الآية مدنية فى سورة مكية .

ورأى بعض العلماء أن المراد بهذا الحق : الصدقة بوجه عام على المستحقين لها ، بأن يوزع صاحب الزرع منه عند حصاده ، على المساكين والبائسين ما يسد حاجتهم ، بدون إسراف أو تقتير ، وأصحاب هذا الرأى فسّروا هذا الحق بالصدقة الواجبة ، من غير تحديد للمقدار ، وليس بالزكاة المفروضة ؛ لأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة [٨] .

وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

أى : لا تتجاوزوا الحدّ فى الأكل أو فى التصدّق ، فخير الأمور الوسط وشر الأمور الشطط .

فلا يجوز أن يشتد البخل ، ولا أن يعظم الإتفاق حتى يترك الإنسان أولاده فقراء .

قال ابن جريج : نزلت فى ثابت بن قيس [٩] ، قطع خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئًا إلى منزله كقوله تعالى : وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ . ا هـ .

والإسلام دين وسط لا غلو فيه ولا تفريط ، بل فيه وسطية واعتدال . قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (البقرة : ١٤٣) وقال تعالى : وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا . (الفرقان : ٦٧)

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

المفردات :

حمولة : تحمل الأثقال .

فرشا : ما يفرش للذبح .

التفسير :

١٤٢- وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ... الآية .

أى : وأنشأ لكم من الأنعام وهى الأصناف الثمانية الآتى ذكرها - حمولة وفرشًا .

والحمولة : ما يحمل عليها وهو يختص بالإبل .

والفرش : ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر فراشًا يفترشه الناس .

وقيل : الحمولة : الإبل ، والفرش : الغنم ، وقيل : الحمولة ، كبار الإبل ، والفرش : صغارها التى لا يحمل عليها بل تركب وتضجع للذبح .

كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .

أى : من هذه الثمار والزروع والأنعام وغيرها ، وانتفعوا منها بسائر أنواع الانتفاع المشروعة .

وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ . ولا تتبعوا وساوس الشيطان وطرقه فى التحريم والتحليل كما اتبعها أهل الجاهلية .

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

أى : إنه بيّن العداوة لكم ، حريص على إغرائكم وإغوائكم ، والشيطان جنس ، يشمل كل شياطين الإنس والجنّ ممن يحلّون الحرام ويحرمون الحلال من الحكام وذوى السلطان ؛ تحقيقًا للشهوات والنزوات .

★ ★ ★

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

المفردات :

أزواج : جمع زوج . ويطلق على كل واحد من القرينين : الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ويطلق أيضًا على مجموعهما . والمراد الأول .

تبئونى : أخبرونى .

التفسير :

١٤٣– ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ... الآية .

الزوج يطلق على المفرد إذا كان آخر من جنسه يزواجه ، ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على الاثنين فهو مشترك والمراد هنا الأول .

والمعنى : ثمانية أصناف خلقها الله لكم ؛ لتنتفعوا بها ، أكلاً وركوبًا وحملاً وحلبًا وغير ذلك .

وهذه الأصناف الثمانية أربعة ذكور من الإبل والبقر والغنم والمعز .

وأربعة إناث من كل منها .

ثم فصَّل هذه الأصناف فقال :

مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ .

أى : من الضأن زوجين اثنين هما : الكبش والنعجة .

وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .

أى : ومن المعز زوجين : ذكر وأنثى هما : التيس والعنز .

قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ .

أى : قل لهم يا محمد ، لهؤلاء الذين يحرّمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة أخرى ، وينسبون ذلك إلى الله افتراء عليه – قل لهم : أكان التحريم فى الضأن والمعز وغيرهما من الأنعام بسبب الذكورة ؟

أم كان بسبب الأنوثة ؟ أم هو بسبب الوجود فى الرحم ؟

فإن كان التحريم بسبب الذكورة ؛ لزم تحريم جميع الذكور ، وهم لم يفعلوا ذلك .

وإن كان التحريم بسبب الأنوثة ؛ لزم تحريم جميع الإناث ولم يفعلوا ذلك أيضًا .

وإن كان التحريم بسبب اشتمال الرحم على الجنين ؛ لزمهم تحريم جميع الذكور وجميع الإناث ؛ لأن الكل يشتمل عليه الرحم ولم يفعلوا ذلك .

ومثل ذلك يقال فى الإبل والبقر الآتيين .

نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

أى : أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى ، جاءت به الأنبياء عليهم السلام ، إن كنتم صادقين فيما زعمتموه ، من أن التحليل والتحريم هما من عند الله .

١٤٤ – وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ... الآية.

أى : وأنشأ لكم من الإبل اثنين هما : الجمل والناقة .

وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ . هما الثور والبقرة .

قل لهم يا محمد أكان التحريم بسبب الذكورة فى هذين الصنفين ؟ أم كان بسبب الأنوثة فيها .

قال الآلوسى :

«إنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة ، وأولادها كيفما كانت تارة أخرى ، مُسْندين ذلك كله إلى الله .

وإنما كرر فى هذه الآية ، ما ذكر فى الآية السابقة ؛ لزيادة الإلزام والتبكيت والإفحام »

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا .

يعنى : إذا لم يكن بيدكم مستند علم ، فهل كنتم حاضرين مشاهدين حين وصاكم الله ، وأمركم بهذا التحريم ؟

والحاصل أن العلم بالتحريم ، إما أن يكون عن رسول أخبرهم به ، وإما أن يكون عن مشاهدة لله وسماع منه تعالى ... وكلا الأمرين منتف .

وبذلك يبطل تحريمهم ما حرموه عن الله تعالى .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

أى : لا أحد أظلم من هؤلاء المشركين الذين ينسبون إلى الله تحريم ما لم يحرمه .

قال أبو السعود : والمراد كبراؤهم المقرِّرون لذلك ، أو عمر بن لحى بن قمعة ، وهو المؤسس لهذا الشر، أو الكلّ ؛ لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى .

ولا يقدح فى ظلمهم كون بعضهم مخترعين له ، وبعضهم مقتدين بهم .

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

أى : لا يهديهم إلى طريق الحق ، بسبب ظلمهم وإيثارهم طريق الغىّ، على طريق الرشد .

وفى هذه الآية بيان عِظَمَ إثم من يحرم شيئًا مما خلقه الله بغير مستند صحيح .

★ ★ ★

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

المفردات :

طاعم يطعمه : آكل يأكله ، من ذكر وأنثى .

مسفوحا : أى : سائلا .

رجس : نجس خبيث . والمراد : حرام .

فسقا : خروجا عما أحله الله .

أهل لغير الله به : ذكر اسم غير الله تعالى عليه ، عند ذبحه .

فمن اضطر : فمن حملته الضرورة على تناول شيء من ذلك .

غير باغ : أي : غير ظالم مضطر مثله .

ولا عاد : أي : ولا متجاوز قدر الضرورة .

كل ذى ظفر : أي : كلَّ ما له أصبع من الإبل ، والسباع ، والطيور .

شحومهما : جمع شحم . وهو الدهن .

إلا ما حملت ظهورهما : أي : إلا ما وجد من الشحم فوق ظهورهما .

أو الحوايا : أي : وإلا الشحوم التى تغطى الأمعاء .

أو ما اختلط بعظم : أي : وإلاَّ ما اختلط من الشحم بعظم ، كالإلية .

ببغيهم : أي : بسبب ظلمهم .

بأسه : عقابه .

التفسير :

١٤٥ - قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ... الآية .

نزلت هذه الآية ، ردًّا على أهل مكة حين حرموا على أنفسهم أنواعًا من الحيوانات ، وحرموا على إناثهم أصنافًا لم يحرموها على الذكور ، فنزل الوحى جوابًا لهؤلاء المشركين ؛ ليقول لهم : إن التحريم لا يكون إلاَّ بوحى ، وأنا لا أجد فيما أوحاه الله إلى من الوحى ، تحريم أى نوع من أنواع الحيوانات ؛ إلا الأصناف الآتية:

١ - **الميتة** : وهو الحيوان الذى زهقت روحه بغير ذبح شرعى .

٢ - **الدم المسفوح** : أي : الدم الجارى أما غير المسفوح فهو معفو عنه ، كالدم الذى يبقى فى العروق بعد الذبح، وكذلك الكبد والطحال فإنهما دمان غير سائلين .

٣ - **لحم الخنزير** - ومثل لحم الخنزير شحمه وغضاريفه ؛ فإن جميع أجزائه قذر نجس ولو ذبح ؛ لتعوده أكل النجاسات أو لأنه خبيث محظور شرعًا .

٤ - **فسقا أهل لغير الله به** : أي : ذبح على الأصنام. وإنما سمى ذلك فسقًا ؛ لتوغله فى الفسق ، والخروج عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله تعالى: وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ . (الأنعام : ١٢١) .

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ .

والمعنى: فأى شخص أصابته الضرورة ، على تناول شىء من المحرمات السابقة ؛ لحفظ الحياة ، بسبب فقده الطعام الحلال ، فإنه رخص له فى ذلك .

بشرط ألا يكون باغيًا على مضطر آخر مثله ، أو غير طالب له للذَّته ، وألا يتجاوز – فيما يتناوله – مقدار الضرورة ، التى تحفظ عليه حياته ، حتى يصل إلى مكان يجد به الطعام الحلال . وعَادٍ اسم فاعل بمعنى متعد ومنه قوله تعالى : بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . (الشعراء : ١٦٦) .

فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : فإن الله عظيم المغفرة والرحمة ، لا يؤاخذ المضطَّر على تناول شىء من ذلك ؛ لأنه أباحه له ؛ لحفظ حياته .

من كلام المفسرين

قال ابن كثير : الغرض من سياق الآية : الردُّ على المشركين ، الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم ، بآرائهم الفاسدة ، من البحيرة ، والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، فأمر الله تعالى رسوله أن يخبرهم ، بأنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم ، وأن الذى حرمه الله هو الميتة وما ذكر معها ، وما عدا ذلك فلم يحرَّم ، وإنما هو معفوٌّ مسكوت عنه ، فكيف تزعمون أنه حرام ، ومن أين حرَّمتموه ولم يحرمه الله ، وعلى هذا فلا ينْبغى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا ، كما جاء النَّهْى عن أكل الحمر الأهلية، ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير .

من تفسير القرطبى

ذكر القرطبى عدة أقوال فى تفسير الآية ثم قال :

إن أكثر أهل العلم والفقه والأثر على أن هذه الآية مكية ، وكل محرَّم حرمه الرسول ﷺ أو جاء فى الكتاب ، مضموم إليها ، فهو زيادة حكم من الله تعالى على لسان نبيه .

فقد نزلت سورة المائدة فى المدينة ، وزيد فيها بعض المحرمات : كالمنخنقة ، والموقوذة والمتردية. والنطيحة . اهـ . باختصار .

قال الإمام الشافعي : إن الكفار لما حرموا ما أحل الله ، وأحلوا ما حرمه الله ، وكانوا على المضادَّة والمحادَّة، جاءت هذه الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال سبحانه : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازل منزلة من يقول لك : لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول : لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة .

فهو سبحانه ، لم يقصد حلّ ما وراء الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ؛ إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل .

قال إمام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنّا نستجيز مخالفة مالك رضى الله عنه فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية[١٠].

١٤٦- وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ... الآية .

أى : وعلى اليهود دون غيرهم بسبب ظلمهم ، حرم الله جميع ماله إصبع غير منفرج ، كالإبل والنعام والأوز والبط .

قال مجاهد : **كُلَّ ذِى ظُفُرٍ** . هو كل شىء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود .

قال : انفرجت قوائم الدجاج والعصافير ، فيهود تأكله ، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة ، ولا قائمة الأوز ، فلا تأكل اليهود الإبل ، ولا النعام ، ولا كل شىء لم تنفرج قائمته كذلك .

وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا .

والشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان ، وبها يكون لحمه سمينًا ، والعرب تسمى سنام البعير ، وبياض البطن : شحمًا ، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان .

والمعنى : كما حرمنا على اليهود كل ذى ظفر ، فقد حرمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة . ثم استثنى سبحانه من الشحوم المحرمة على اليهود ما يأتى :

إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا .

أى : إلا الدهون التى توجد فوق ظهور البقر والغنم **أَوِ الْحَوَايَا** . وهى المباعر التى يجتمع فيها البعر ، فما حملته من الشحم غير حرام .

أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .

ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان ، ومنه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب . وهو آخر فقرات الظهر .

ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ .

أى : ذلك التحريم الذى حكمنا به عليهم إنَّمَا ألزمناهم به ، بسبب بغيهم وظلمهم وتعدّيهم حدود الله تعالى .

قال قتادة : وإنما حرم عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديدًا عليهم . ا هـ .

إن اليهود قتلوا الأنبياء وأكلوا الربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل كما قال تعالى :

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. (النساء : ١٦٠)

وكانوا كلما أتوا معصية ، عوقبوا بتحريم شيء مما أحلّ لهم ، وهم ينكرون ويدعون أنها كانت محرمة على الأمم قبلهم .

وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه صادق في كل ما بينه ، ومنه بيان صدقه فيما أحلّ وحرّم بالنسبة لليهود .

ولما حرم الله الشحوم على اليهود ، تحايلت على ذلك فأذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها ، وما حرم الله شيئًا إلا حرم بيعه ، وحرم أكل ثمنه ، مثل : الخمر والميتة والخنزير والأصنام .

جاء في تفسير ابن كثير : عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله اليهود – ثلاثا – إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا عليهم ثمنه [١١] .

١٤٧ – فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ... الآية .

فإن كذبك اليهود ، وقيل : المراد : فإن كذبك المشركون ، الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام ، وحللوا بعضها وحرموا بعضها .

فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ . ومن رحمته حلمه عنكم ، وعدم معاجلته لكم بالعقوبة .

وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

ولا يمنع عقابه عن القوم المصّرين على إجرامهم ، المستمرين على اقتراف المنكرات ، وارتكاب السيئات .

★ ★ ★

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ
فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ
فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ
فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

المفردات :

تخرصون : تقدرون تقديرا خاطئا .

الحجة البالغة : أى : التامة ؛ بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل ، مع تسليم العقل .

هلم : أحضروا .

وهم بربهم يعدلون : أى : وهم يُسوُّون به غيره .

التفسير :

١٤٨- سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية .

تحكى هذه الآيات شبهات قديمة حديثة ، يتعلل بها مرتكبو المعاصى والشرك ، يحاولون تخفيف الذنب على أنفسهم فيدّعون أن هذا قضاء الله وقدره ، ولا معقب لأمره وعلى لسان هؤلاء المشركين حكى القرآن عنهم ما يأتى : وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... (الأعراف : ٢٨ ، ٢٩) .

والآيات هنا تحكى اعتذار المشركين ، عندما يفحمهم النبى ﷺ بالحجة والبرهان ،سيقولون : لو شاء الله ألا نشرك به نحن ولا آباؤنا القريبون والبعيدون ما أشركنا وما أشرك آباؤنا ... ولو شاء ألاَّ نحرِّم شيئًا مما حرمناه لما حدث منا هذا التحريم ، فما وقع منا فهو بمشيئة الله ورضاه ، أرادوا بذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضىّ عند الله تعالى وإلا لما وقع منهم ؛ لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ، وقد كذبوا فى هذا الاحتجاج ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعاصى ، قال تعالى : ... وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ .. (الزمر : ٧) .

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .

أى : بمثل هذه الحجة كذَّب الذين من قبلهم بالمرسلين إليهم .

حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا .

أى : حتى نزل بهم العذاب وأحاط بهم الهلاك . ولو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضيًا عنده سبحانه ، لما أذاق أسلافهم المكذبين عذابه ونقمته ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا .

أى : قل لهم يا محمد : هل يوجد لديكم دليل يدل على أن الله رضى منكم أن تشركوا به وتحللوا وتحرموا من دونه ؟

وأما مجرد وقوع الفساد منكم فلا يدل على رضاه عنكم .

إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ .

أى : أنتم لستم على شىءٍ ما من العلم ، بل ما تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن ، الذى هو محل الخطإ ومكان الجهل ، فالظن لا يغنى عن الحق شيئًا ، وأنتم تخرصون ، أى : تتوهمون مجرد توهم .

١٤٩ - قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة والكمال ، والتى تنقطع عندها معاذيرهم ، وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم .

فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : لو شاء هدايتكم جميعًا لفعل ؛ لأنه لا يعجزه شىءٌ ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية البعض؛ لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ضلالة آخرين ؛ لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .

إن مشيئة الله لم تجبر أحدًا على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ولقد شاءت إرادة الله أن يجعل فى البشر الاستعداد للخير والشر ، غير أن سُنَّة الله اقتضت أن من يفتح عينه يرى النور ومن يغمضها لا يراه ، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان ؛ يهتدى ومن يحجب قلبه عنها ؛ يضل : سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً . (الفتح : ٢٣) .

إن الله لم يشأ أن يجبر أحدًا على طاعته أو معصيته ، قال تعالى : فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ . فهى مشيئة المنح والتيسير ، وليست مشيئة الإلجاء والتسخير ، فمن سلك طريق الهدى ؛ يسر الله له ذلك قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . (الليل ٥ – ٧) .

• ١٥٠ – قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ... الآية .

أى : قل لهم يا محمد : أحضروا من يشهد لكم ويعاونكم ، فى إثبات أن الله حرم عليكم ما حرمتموه على أنفسكم وعلى أزواجكم !!

وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم : تفضيحهم وإلزامهم الحجة ، وإظاهر أنه لا متمسك لهم كمقلدين .

فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ .

أى : فلا تصدقهم فإنه كذب بحت وافتراء صرف ، ولا تقبل شهادتهم ؛ لأنها نتيجة اتباع الهوى .

وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون .

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلاً، أى : شريكًا ، مع أنه سبحانه هو الخالق لكل شيء ؛ لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة الحق ، ولا للثقة بهم، وإنما للاحتقار فى الدنيا ، ولسوء العذاب فى الآخرة .

وكان مقتضى السياق أن يقول : ولا تتبعهم ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير ؛ للدلالة على أن من كذب بآيات الله ، وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير ، وأن من اتبع الحجة لا يكون إلا مصدقا بها [١٢] .

★ ★ ★

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا
الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ
فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

المفردات :

تعالوا : أقبلوا وأحضروا .

أتل : أقرأ .

إملاق : فقر وفاقة .

الفواحش : ما عظم قبحه من المعاصي .

وصاكم به : أمركم وألزمكم به .

أشده : أي : يبلغ قوته البدنية والعقلية ويحسن التصرف .

بالقسط : بالعدل وعدم الجور .

فاعدلوا : فاصدُقوا في القول .

وبعهد الله أوفوا : وبما طلب الله منكم من العدل وتأدية أحكام الشرع ، أوفوا وأتموا .

لعلكم تذكرون : لكي تتعظوا .

التفسير :

١٥١ - قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... الآية .

تأتي هذه الآية في أعقاب توجيه المشركين ومناقشتهم ، حتى إذا استبان لهم الطريق ووضحت الحجة، أمر الله رسوله أن يدعوهم ؛ ليوضح لهم المحرمات ، ويرشدهم إلى الواجبات .

قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ..

أى : قل لهم يا محمد : أقبلوا ، وأحضروا إلىّ ؛ لأقرأ لكم الآيات المشتملة على ما حرم الله عليكم وما أوجبه .

أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا .

أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى ، بل خصُّوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة ، فإنه هو الخالق لكل شىء .

والنهى عن الإشراك يقتضى الأمر بالإخلاص وصدق النية والبعد عن الرياء ، وقد ساق القرآن مئات الآيات التى تدعو إلى الإيمان ، وتنفر من الشرك ، وتقيم الأدلة الساطعة والبراهين الدامغة على وحدانية الله عز وجل .

قال تعالى :

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ... (الإخلاص : ١)

وقال سبحانه :

أَمَّن جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ . (النمل : ٦١)

وقال عز شأنه : لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء : ٢٢)

وقال تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وِإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّواْ إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلاَ تَجْعَلُواْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . (الذاريات : ٤٧ – ٥١) .

وقال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ... (النساء : ١١٦)

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (الإسراء : ٢٣)

أى : أحسنوا إليهما إحسانًا وذلك بالبر بهما ، وامتثال أمرهما ونهيهما ، وفيه نهى عن عقوقهما .

وقد جاءت الوصية بالوالدين بعد النهى عن الشرك ؛ تنبيهًا على أهمية بر الوالدين ، وتحذيرًا من عقوق الوالدين خصوصًا فى حالة الكبر والضعف ، حيث يكون الأب أو الأم فى أمسِّ الحاجة إلى الرعاية النفسية

أو المادية ، وهو نوع من تكافل الأجيال وردّ الجميل ، ولا يوفَّق لإكرام والديه إلاّ من يُردّ له الجميل من ذريته وفى الحديث الشريف : «عفوا ؛ تعف نساؤكم ، وبرُّوا آباءكم ؛ تبرّكم أبناؤكم» (١٣) .

وفى الربع الثانى من سورة الإسراء قدم القرآن ٢٦ وصية وأدبا بدأها بالدعوة إلى التوحيد وعدم الشرك وثناها بالدعوة إلى بر الوالدين . حيث قال تعالى :

وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا. (الإسراء ٢٣ ، ٢٤)

وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .

الإملاق : الفقر .

وكانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكور والإناث ؛ خشية الإملاق وتفعله بالإناث ؛ خشية العار ، فبين الله أنَّه هو الرزاق للوالد والولد وكلّ الكائنات الحية قال تعالى: وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا. (هود: ٦).

والمعنى : لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم .

وفى سورة الإسراء قال تعالى : وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا . (الإسراء : ٣١)

وفى سورة الإسراء قدّم رزق الأولاد على الآباء ؛ للإشارة إلى أن الولد الضعيف يرزق أصلاً والأب يرزق تبعًا .

فالله يرزق الأب تابعًا لرزق الابن .

وقد ورد فى هدى السنة أن رجلاً اشتكى للنبى ﷺ ؛ لأنه يعمل ويكدح ويطعم أخاه الذى لا يعمل ، فقال له النبى ﷺ : «لعلك به ترزق» (١٤) .

وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ .

وكل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها ، كالسرقة والزنى ، والنميمة وشهادة الزور .

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

قال أبو السعود : أى : ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم ، وما يفعل سرًّا باتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم .

ونجد القرآن ينهى عن الاقتراب من الفواحش ؛ لأن من حام حول الحما يوشك أن يقع فيه ، ولأنه إذا حصل النهى عن الاقتراب من الشىء ، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى .

وقريب من ذلك قوله تعالى :

وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢)

وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .

أى : ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها ، بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد ، إلا إذا فعلت ما يوجب قتلها كالقصاص أو الردّة أو الزنى بعد الزواج .

روى الشيخان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال :

«لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » [١٥] .

قال الشوكانى : ومن الحق قتلها قصاصًا ، وقتلها بسبب زنى المحصن ، وقتلها بسبب الردّة ، وهذه هى الأسباب التى ورد الشرع بها .

ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليلة ، وتكاليف حكيمة ، وصاكم الله به ، وطلبه منكم ، لعلكم تستعملون عقولكم فى أداء هذه الحقوق الثابتة ، المتجاوبة مع الفطرة ، وهذه الحقوق الخمسة المذكورة فى الآية الكريمة وهى :

١ – توحيد الله .

٢ – الإحسان إلى الوالدين .

٣ – عدم قتل الأولاد .

٤ – الابتعاد عن الفواحش .

٥ – عدم قتل النفس إلا بالحق .

وأداء هذه الوصايا يتفق مع العقل والفطرة السليمة .

١٥٢- وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ... الآية .

هذه وصية سادسة تتعلق بالمعاملة الحسنة لليتيم . وقد تعرض القرآن المكى والمدنى للوصية باليتيم ورعايته ، والمحافظة على ماله وعدم خلط ماله بمال الوصىّ ؛ توطئة لأكل مال اليتيم ، ولما تكررت هذه الوصايا ؛ تحرج المسلمون من خلط أموال اليتيم بأموالهم فأنزل الله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ...

وهنا فى سورة الأنعام يقول الله تعالى :

وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

أى : لا تتعرضوا له بخصلة من الخصال أو بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التى هى أحسن .

لأن الوصى ربما احتال بالحيلة لأكل مال اليتيم . فنهوا عن ذلك لكن إذا كان اقتراب الوصى من مال اليتيم وسيلة لتثميره وتنميته بطريقة حسنة ؛ فيجوز الاقتراب حينئذ ما دام فى صالح اليتيم ونفعه وزيادة ماله .

حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغ الحلم رشيدًا عاقلاً حسنًا للتصرف ، دفع الوصى إليه ماله، وقد وردت هذه المعانى فى صدر سورة النساء . قال تعالى :

وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... (النساء : ٦)

أى : اختبروا اليتيم فى مرحلة الصبا ، بأن تعطوه مبلغًا مناسبًا ليتصرف فيه برأيه وحكمته ، فإذا أحسن التصرف فزيدوه ومكّنوه من التصرف فى ماله جزئيًّا ، حتَّى إذا بلغ سن الرشد عاقلاً محسنًا للتصرف فادفعوا إليه ماله .

ونلاحظ أن القرآن دائمًا يذكّر المؤمن بالله ورقابته ، فإن الوصى قد يتلاعب فى الدفاتر ويزيّف الحسابات ، فيكون منضبطًا أمام المجلس الحسبىّ وأمثاله من مجالس المحاسبين والرقباء ، لكن هناك رقابة الله وحسابه قال تعالى :

فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . (النساء : ٦)

أى : يجب إشهاد الشهود على دفع الوصى مال اليتيم إليه ، مع علمه أن هناك رقابة من الله الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو سريع الحساب سبحانه وتعالى .

وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .

لا غنى للناس عن الكيل والوزن ، وقد تكررت وصايا القرآن بوفاء الكيل والميزان ، وحثت السنة المطهرة على عدم تطفيف الكيل والميزان ؛ لأن الجائر لا يكاد يأخذ إلاّ الشيء الطفيف قال تعالى : وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . (المطففين : ١- ٦)

وعلى لسان نبي الله شعيب يقول القرآن الكريم :

أَوْفُواْ الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ . (الشعراء: ١٨١- ١٨٣) .

لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .

أي : إن قواعد الشريعة مبنية على رفع الحرج فلا تكليف إلا بما يطاق قال تعالى: لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَاهَا . (الطلاق : ٧) .

فالغبن اليسير في الكيل والوزن وغير ذلك مما لا يمكن التحرز منه معفو عنه .

قال أبوالسعود : لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا : إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، وهو اعتراض جيء به عقيب الأمر بالعدل؛ للإيذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما في وسعكم وما وراءه معفو عنكم.

وإِذَا قُلْتُمْ فاعْدِلُواْ وَلَو كَان ذَا قُرْبَى .

القرآن هنا يرتفع بالضمير البشري إلى مستوى سامي رفيع ، على هدى من العقيدة في الله بأن يكلفه بتحري العدل في كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .

قال الشوكاني في فتح القدير : إِذَا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا. في خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل ، فاعدلوا فيه وتحرّوا الصواب ولا تتعصبوا في ذلك لقريب ، ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ، ولا على عدو ، بل سوُّوا بين الناس وَلَو كَان . المقول فيه .أوالمقول له ذَا قُرْبَى . أي : صاحب قرابة لكم .

وهكذا نجد القرآن يسمو بآداب هذه الأمّة ويقدم لها النصائح التي تجعلها تقول الحق خالصًا لوجه الله ولو كانت الشهادة على النفس أو على الوالدين أو على الأقربين فينبغي أن تؤدى بالحق ، والحق المجرد الخالص .

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْعَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ . (النساء : ١٣٥) .

وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ .

أى : إذا عاهدتم الله ، أو عاهدتم بالله فأوفوا . وكونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .

ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ .

أى : ذلكم المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهى ؛ وصاكم الله به فى كتابه ؛ رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ .

تتذكرون ما فى تضاعيفه وتعملون بمقتضاه ، وقرئ بتشديد الذال .

وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار .

عن ابن عباس رضى الله عنه : هذه آيات محكمات لم ينسخهنّ شىء من جميع الكتب ، وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة . ومن تركهن دخل النار وعن كعب الأحبار : والذى نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شىء فى التوراة . بسم الله الرحمن الرحيم :

قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُم أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَو كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ . (الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢)

★ ★ ★

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

١٥٣- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ... الآية .

أى ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي . إشارة إلى ما ذكر فى الآيتين من الأمر والنهى قاله مقاتل ، وقيل : إلى ما ذكر فى السورة فإنها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوّة وبيان الشريعة .

وقال الشوكانى فى فتح القدير :

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا . السبيل الموصل إلى رضائى ، وهو دين الله ، ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن غيره فقال :

فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ .

أى : الأديان المتباينة طرقها .

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .

أى : عن سبيل الله المستقيم الذى هو دين الإسلام ، وهذه السُبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر الملل ، والبدع والضلالات من الأهواء والشذوذ .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ :

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا .[١٦] ورواه الدارقطنى وابن ماجه أيضًا .

ومُسْتَقِيمًا . حال مؤكدة

وقد أفرد الله سبحانه وتعالى - الصراط المستقيم .

وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له ؛ لأن الحق واحد ، والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ،والبدع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .

ذَلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

أى : هذا الذى تقدم - وهو اتباع دين الله والابتعاد عن غيره من الأديان والنِّحل الباطلة - هو الذى أمركم الله بالحرص عليه والسير على منهاجه ، رجاء أن تكونوا من الناجين المتقين .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

المفردات :

تماما على الذى أحسن : أى : إتمامًا للنعمة على كل من أحسن القيام به . أو على موسى الذى أحسن تبليغه.

التفسير :

١٥٤- ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ ... الآية .

أى : ثم آتينا وأعطينا موسى التوراة ؛ لإتمام النعمة والكرامة ، على كل من أحسن القيام بما اشتملت عليه من تكاليف أو إتمامًا للنعمة على موسى الذى أحسن تبليغ التوراة .

وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً .

أى : جاءت التوراة بيانًا وتفصيلاً لكل ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا ، وإرشادًا إلى طريق الخير ورحمة واسعة .

لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ .

أى : لعل قوم موسى وسائر أهل الكتاب يصدقون بيوم الجزاء ، ويقدِّمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم .

وفى هذه الآية إخبار من الله تعالى بأن الوصايا التى تقدم ذكرها ثابتة فى الكتب المتقدمة ، ومنها التوراة .

★ ★ ★

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ
ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

المفردات :

دراستهم : قراءة كتبهم .

وصدف عنها : أعرض عنها . أو صرف الناس عنها .

التفسير :

١٥٥ – وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية .

أي : وهذا القرآن ، كتاب الله العظيم ، أوحيناه إلى محمد ﷺ ، كثير المنافع والخير دنيا وأخرى .

فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

أي : اعملوا بما فيه من الأوامر والنَّواهي والأحكام .

وَاتَّقُواْ . مخالفته والتكذيب بما فيه ؛ رجاء أن تعمكم رحمة الله .

١٥٦ – أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ... الآية .

أي : أنزلنا إليكم – معشر العرب – كتابًا ينطق بلغتكم ؛ خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة : إنما أنزل ذلك الكتاب – التوراة والإنجيل – على طائفتين من قبلنا ، وهما اليهود والنصارى ، وتخصيص الإنزال بكتابيهما ؛ لأنهما اللذان اشتهرا من بين سائر الكتب السماوية السابقة ، قبل نزول القرآن .

وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

أي : وإننا معشر العرب كنا منصرفين عن مطالعة تلك الكتب وقراءتها .

في هذه الآية قطع الأعذار ، وإثبات الحجة عليهم ، حيث نزل القرآن بلغة سهلة ميسرة ، هي العربية .

١٥٧ - أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ ... الآية .

أى : لئلا تقولوا معتذرين بأمر آخر ، لو أنَّا أُنزل علينا الكتابُ كما أنزل على اليهود والنصارى - لصرنا أكثر هداية إلى الحق منهم ، وذلك لجودة إدراكنا ، وتوقد أذهاننا ، وتفتح قلوبنا .

فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .

أى : كتاب أنزله على نبيكم ، وهو منكم يا معشر العرب .

فلا تعتذروا بالأعذار الباطلة ، فالقرآن فيه حجة واضحة على ما شرعه الله من الأحكام ، وإرشاد بين إلى طريق الحق .

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ .

أى : القرآن هداية لكم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن يعمل ؛ بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .

أى : لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته بيِّناتها الكاملة ، وهداياتها الشاملة.

سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ .

صَدَفَ عَنْهَا . أعرض عنها غير متفكر فيها ، أو صرف الناس عنها ، وصدهم عن سبيلها فجمع بين الضلال ، والإضلال .

والمعنى : سنعاقب الذين يعرضون عن اتباع آياتنا ، ويصرفون الناس عنها بأسوإ العذاب وأشده بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها .

★ ★ ★

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

المفردات :

ينظرون : ينتظرون .

التفسير:

١٥٨ – هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ... الآية .

أى : مـاذا ينتظر هؤلاء المشركون بعد أن قدمنا لهم كل الدلائل والبينات الداعية إلى الإيمان .

إنهم سيظلون فى غيِّهم إلى أن تنزل عليهم ملائكة الموت فتقبض أرواحهم .

أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ . يوم القيامة ؛ لفصل القضاء بينهم .

أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ .

أى : أمارات الساعة الدالة على مجيئها .

أو المراد : الآيات والمعجزات التى اقترحوها على رسول الله ﷺ كما ورد فى قوله تعالى : وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبوعًا * أَو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولا . (الإسراء : ٩٠ – ٩٣)

والراجح أن المراد بآيات الله هنا : هو العلامات الصغرى والكبرى ليوم القيامة .

قال أبو السعود فى تفسير الآية :

وقيل : إن المراد . بإتيانه تعالى : إتيان كل آياته بمعنى : آيات القيامة ، والهلاك الكلى بقرينة ما بعده من إتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به :

أشراط الساعة التى هى الدخان ، ودابة الأرض ، وخسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدَّجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى عليه السلام ، ونار تخرج من عدن ، كما نطق به الحديث الشريف المشهور[١٧] .

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

أى : عند مجىء أشراط الساعة وعلاماتها ، يذهب التكليف فلا ينفع الإيمان حينئذ نفسًا كافرة ، لم تكن آمنت قبل ظهورها ، ولا ينفع العمل الصالح نفسًا مؤمنة تعمله عند ظهور هذه الأشراط ؛ لأن وقت التكليف الاختيارى قد فات . ووجود الإنسان فى هذه الدنيا أساسه الاختبار والابتلاء والامتحان . فإذا عمل فى مرحلة التكليف الاختيارى قُبل عمله ، أما إذا عمل بعد ظهور علامات الموت أو علامات القيامة فلا يقبل منه .

من كلام المفسرين

قال الطبرى :

معنى الآية : لا ينفع كافرًا لم يكن آمن قبل الطلوع – أى : طلوع الشمس من مغربها – إيمانٌ بعد الطلوع، ولا ينفع مؤمنًا لم يكن عمل صالحًا قبل الطلوع عملٌ بعد الطلوع ؛ لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ. حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة ، وذلك لا يفيد شيئًا ، كما قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا. (غافر : ٨٥).

وكما ثبت فى الحديث الصحيح : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» .

وقال الشوكانى فى فتح القدير :

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ . يوم تأتى الآيات التى اقترحوها ، وهى التى تضطرُهم إلى الإيمان ، كطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة التى تكلمهم .

لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا . لارتفاع التكليف بذلك ؛ لأن الكلّ يرون الحق رأى العين فيؤمنون جميعًا ، فلا ينفعهم حينئذ الإيمان .

لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ. أى : من قبل مجىء بعض الآيات فأمًا التى قد كانت آمنت من قبل مجىء بعض الآيات ؛ فإيمانها ينفعها .

أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . بعمل صالح قدمته ، فمن آمن من قبل فقط ، ولم يكسب خيرًا فى إيمانه ، أو كسب خيرًا ولم يؤمن ؛ فإن ذلك غير نافعة .

قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها – ثم قرأ الآية –» [١٨] .

قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ .

وهذا تهديد للمشركين .

أى : قل لهم يا محمد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان الأمور الثلاثة وهى : «الملائكة ، أو ربّك ، أو بعض آيات ربّك» لتروا أى شىء تنتظرون ، فإنا منتظرون معكم ؛ لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

المفردات :

شيعا : فرقا متعددة .

ينبئهم : يخبرهم ويعلمهم .

التفسير :

١٥٩ – إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ... الآية .

أى : إن الذين فرَّقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه فجعلوه أهواء متفرقة ، ومذاهب متباينة وَكَانُواْ شِيَعًا . أى : فرقًا ونحلاً تتبع كل فرقة إمامًا لها على حسب أهوائها ومتعها ومنافعها ، بدون نظر إلى الحق .

وقوله : لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .

أى : أنت برىء منهم ، محمىُّ الجناب عن مذاهبهم الباطلة .

أو لست من هدايتهم إلى التوحيد فى شىء ، إذ هم قد انطمست قلوبهم فأصبحوا لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الهدى .

إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ .

أى : ما أمرهم ومآل حالهم إلاَّ إلى الله وحده ، فيجازيهم على أعمالهم وعقائدهم الباطلة بما يستحقون .

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (الحج : ١٧) .

وجاء فى فتح القدير للشوكانى ما ملخّصه :

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ . جعلوا دينهم متفرقًا فأخذوا بعضه وتركوا بعضه ، والمراد بهم : اليهود والنصارى والمشركون ، عبد بعضُهم الصنم ، وبعضهم الملائكة ، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله .

شِيَعًا . فرقًا وأحزابًا .

فتصدّق على كل قوم كان أمرهم فى الدين واحدًا مجتمعًا ، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبيرٍ من كبرائهم يخالف الصواب ويباين الحقّ .

لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ .

أى : أنت برىء من بدعهم وافتراقهم ، وإنما عليك الإنذار .

إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ . فهو مُجازٍ لهم بما تقتضيه مشيئته .

ثُمَّ هو يوم القيامة يُنَبِّئُهُم . أى : يخبرهم .

بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . من الأعمال التى تخالف ما شرعه الله لهم وأوجبه عليهم .

★ ★ ★

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

التفسير:

١٦٠– مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ... الآية .

أى : من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة ، فله عشر حسنات أمثالها فى الحُسْن ، فضلاً من الله وكرمًا.

وقد جاء الوعد بسبعين ، وبسبعمائة، وبغير حساب ولذلك قيل : المراد بذكر العشر : بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص[١٩] .

وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا .

أى : ومن عمل عملاً سيئًا من شرك وغيره ، فعقابه مماثل لما عمل عدلاً .

وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ . بنقص شىء من ثوابهم أو الزيادة فى عقابهم .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : «إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ؛ فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة»[٢٠].

قال الشوكانى فى فتح القدير :

مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وهذا ما أوجبه الله تعالى على نفسه ، وقد يزيد ، كمثل حبة أنبتت سبع سنائل ، وورد فى بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب [٢١] .

وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ . من الأعمال السيئة فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا . من دون زيادة عليها ، على قدرها فى الخفة والعظم ، فيجزى على سيئة الشرك بخلوده فى النار ، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات .

وهذا إن لم يتب ، أما إذا تاب ، أو غلبت حسناته سيئاته ، أو تغمده الله برحمته ، وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة .

وَهُمْ . أى : من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة لاَ يُظْلَمُونَ . بنقص ثواب حسنات المحسنين ، ولا بزيادة عقوبات المسيئين .

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ
لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ
كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾

المفردات :

دينا قيما : دينا مستقيما : لا عوج فيه .

حنيفا : مائلا عن الأديان الباطلة .

ونسكى : عبادتى .

أبغى ربا : أطلب .

ولا تزر : ولا تحمل .

وازرة : نفس آثمة .

خلائف : خلفاء يخلف بعضكم بعضا .

ليبلوكم : ليمتحنكم ويختبركم .

التفسير :

١٦١- قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ... الآية .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعًا ، ولغيرهم ممن أرسلت إليهم – قل لهم جميعًا: لقد هدانى خالقى وربِّى إلى دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده .

دِينًا قِيَمًا . هو الدين المستقيم الذى لا عوج فيه .

مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .

إن هذا الدين الذى هو الصراط المستقيم ، الذى هدانى إليه ربى ، هو الدين القيِّم ، المتفق مع ملة إبراهيم .

حَنِيفًا . مبتعدًا عن كل دين باطل ، مائلاً إلى الحق .

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ولم يكن إبراهيم فى عقيدته مشركًا مع الله آلهة أخرى فى أى شأن من شئونه .

قال أبو السعود فى تفسيره :

صرح بذلك ردًّا على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام ، من أهل مكة واليهود والمشركين حيث قالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

١٦٢- قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى قل لهم يا محمد أيضًا : **إِنَّ صَلاَتِي** . التى أتوجه بها إلى ربى .

وَنُسُكِي . أى : عبادتى وتقربى إليه وهو من عطف العام على الخاص ، وقيل : النسك : الذبح : جمع بينه وبين الصلاة كما فى قوله تعالى : **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** . (الكوثر : ٢)

وقيل : معناه : إن صلاتى وحجِّى .

وقيل : المراد بالنسك : ذبائح الحج والعمرة .

وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى . أى : حياتى وموتى .

وقال الشّوكانى : أى : ما أعمله فى حياتى من أعمال الخير ، ومن أعمال الخير بعد الممات ، بالوصية بالصدقات وأنواع القربات ، وقيل : نفس الحياة ونفس الموت .

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أى : خالصًا له . فأنا متجرد تجردًا كاملاً لخالقى ورازقى بكل خالجة فى القلب ، وبكل حركة فى هذه الحياة .

١٦٣- لاَ شَرِيكَ لَهُ ... الآية .

أى : لا أشرك به شيئًا فى صلاتى ولا نسكى ، ولا محياى ولا مماتى ..

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ . أى : بذلك القول الطيب وبذلك العمل الخالص أمرت .

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

وأنا أول المنقادين المسارعين ، الممتثلين لأوامر الله ، والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة .

قال الشوكانى :

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .. أى : أوّل مسلمى أمته .

عن على أن النبى ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال :

«وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » [٢٢] .

١٦٤- قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ... الآية .

أى : كيف أطلب غير الله ربًّا مستقلاً ، وأترك عبادة الله أو كيف أطلب شريكًا لله فأعبدهما معًا ، والحال أنّه رب كل شىء ، والذى تدعوننى إلى عبادته مربوب له ، ومخلوق مثلى لا يقدر على نفع ولا ضر .

وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا .

كانوا يقولون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ؛ فبين القرآن هنا أن ما يعمله العاملون من خير وشر لا يعود إلاّ عليهم ، ثوابًا أو عقابًا .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .

أى : ولا تحمل نفس مذنبة ، ولا غير مذنبة ، ذنب نفس أخرى ، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها، الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب .

قال القرطبى : وأصل الوزر الثقل ومنه قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . وهو الذنب كما فى قوله تعالى: وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ. (الأنعام : ٣١)

وقال الشوكانى :

وفى هذه الآية ردٌ لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذة القريب بذنب قريبه ، والواحد من القبيلة بذنب الآخر .

وفى الآية الأخرى : لِيَحْمِلُوا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ . (النحل : ٢٥)

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

أى : أنكم بالموت ترجعون إلى الله ، وهو مالك أموركم فى الآخرة فيعلمكم بأعمالكم ، ليتبين لكم ما كنتم فيه من غرور وباطل مخالف للحق ويجازيكم عليه .

١٦٥- وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ... الآية .

أى: وهو الله الذى جعلكم تعمرون الأرض أمة تخلف أمة ، وقرنًا بعد قرن ، وخلفًا بعد خلف .

والخطاب على هذا عام لجميع البشر .

أو هو الذى جعلكم خلفاء الأمم السابقة ، والخطاب على هذا للمؤمنين .

وقيل : المراد : إن هذا النوع الإنسانى خلفاء الله فى أرضه .

وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ. فى الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم إلى درجات .

لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَاكُمْ .

أى : ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور ، هل يقوم الغنى بحق المال ؟ وهل يصبر الفقير على الحرمان؟

قال أبو السعود :

أى : ليعاملكم معاملة من يبتليكم ؛ لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده .

إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ .

أى : عقابه سريع الإتيان ، لمن لم يـراع حقـوق ما آتاه الله تعـالى ولم يشكره ؛ لأن كل آت قريب ، أو سريع التمام عند إرادته لتعاليه عن استعمال المبادئ والآلات .

وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : كثير الغفران والرحمة .لمن آمن بالله ورسله وكتبه ، واتبع أوامره وهديه .

وقد أكدّ الله الجملة الثانية ، أشـد مـن تأكيـده الأولى ، وهذا يبين أن رحمة الله تعالى أعظم من غضبه، روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب عنده فوق العرش: إن رحمتى تغلب غضبى» (٢٢) .

وهذا ختام هذه السورة الكريمة التى عنيت بتثبيت عقيدة التوحيد ، وتفنيد شبهات المشركين ، وقد وردت أنها نزلت جملة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد .

والحمد لله رب العالمين . وصلى اللهم على سيدنا محمد النبى الأمىّ وعلى آله وصحبه وسلم .

تم تفسير هذه السورة : ليلة الإثنين ٧ شوال ١٤١١ هـ

الموافق ٢٢/٤/١٩٩١م . بجامعة السلطان قابوس بمسقط سلطنة عمان

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

★ ★ ★



تفسير سورة الأعراف

بين يــدى ســورة الأعــراف (٢٤)

سورة الأعراف هى السورة السابعة فى الترتيب المصحفى وهى إحدى السور التى بدئت ببعض حروف التهجى (المص) ولم يتقدم عليها من هذا النوع سوى ثلاث سور سبقتها فى تاريخ النزول وهى ن، ق ، ص.

ويبلغ عدد السور التى بدئت بحروف التهجى تسعا وعشرين سورة ، وكلها سور مكية ما عدا البقرة وآل عمران . وعدد آيات سورة الأعراف (٢٠٦) آيات ، وعدد كلماتها (٣٣١٥) كلمة .

١ - معنى فواتح السور :

ليس لهذه الفواتح فى اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبى ﷺ بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة فى معانى هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين .

أحدهما : أنها جميعا مما استأثر الله به ولا يعلم معناه أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

وثانيها : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى .

١ – فمنهم من قال : إنها أسماء للسور التى بدئت بها أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع فى أخرى .

٢ – ومنهم من قال : إنها «رموز» لبعض أسماء الله تعالى وصفاته .

٣ – ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم ، وسياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها للاستماع إليه واستمالة العقول بشىء غريب على السمع للإنتباه والإصغاء للقرآن .

وأشهر آراء علماء البلاغة والبيان أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وفى هذا دلالة على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد .

ويرى ابن جرير الطبرى أن أفضل الآراء فى معنى فواتح السور هو اشتمالها على جميع الوجوه التى ذكرها العلماء فى معانيها . فهى أسماء للسورة ، وهى رموز ، وهى حروف للتنبيه والتحدى . إلخ .

وسورة الأعراف هى السورة المكية الثانية فى ترتيب المصحف ، وهى تتسم بتلك السمات العامة التى أسلفنا الإشارة إليها فى الحديث عن سورة الأنعام .

ثم تتميز بطابعها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التى تعالجها والسياق الذى تسير فيه .

وموضوع السورة الرئيس هو الإنذار .. إنذار من يتولون غير الله ومن يكذبون بآيات الله ومن يستكبرون عن طاعة الله ، ومن ينسون الله ومن لا يشكرون نعمته . إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة ، ذلك فوق الخزى والهوان والنسيان .

تبدأ السورة بالإنذار ، ثم تسلك بهذا المعنى سبلاً شتى وتتصرف فيه تصرفات كثيرة وترسم له صورًا متعددة وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة . فتارة يأخذ السياق شكل القصة : قصة آدم مع إبليس ، ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم ؛ لتنتهى كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون عن أمر الله ، وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة أو مشاهد الاحتضار تنكشف فيه مصائر المكذبين المتكبرين ، ومصائر الطائعين لله رب العالمين .

ويتخلل القصص والمشاهد ما يتسق مع الجو العام من توجيه الأنظار والقلوب ومن الدعوة إلى التوبة والإنابة قبل أن يحل العقاب ويتحقق الإنذار ومن الإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التى حق عليها النذير .

ويرد كل ذلك فى تناسق مطلق بين السياق والقصة أو السياق والمشهد ، أو السياق والتوجيهات ، فتبدو القصص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاء من هذا السياق العام ملونة بلونه ، مظللة بجوه محققة للغرض الذى يتجه إليه موضوع السورة الرئيس من البدء للختام .

٢ - مقاصد السورة ومزاياها :

مهدت سورة الأعراف لمقاصدها ببيان عظمة الكتاب ، وجلال هدايته وقوة حجته فى توضيح الدعوة وإنذار المخالفين بها .

ثم تناولت أهداف الدعوة فى مكة ، وهى تقرير رسالة الإسلام وبيان أصول هذه الدعوة : توحيد الله فى العبادة والتشريع ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحى والرسالة بوجه عام ، وتقرير رسالة محمد ﷺ بوجه خاص ، وتلك هى أصول الدعوة الدينية التى كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية .

وقد سلكت السورة فى طريقة عرض هذه الحقائق أسلوبين بارزين أحدهما : أسلوب التذكير بالنعم والآخر : أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فنراه واضحًا فى لفتها أنظار الناس إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم فى الأرض ونعمة خلقهم وتصويرهم فى أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما فى هذا الكون من خيرات سخرها الله له .

أما أسلوب الإنذار والتخويف فهو ظاهر فى جو السورة ، وفى قصص الأنبياء فيها وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساقت لنا السورة ما دار بين الأنبياء وأقوامهم ، وسجلت السورة جزاء المكذبين بأمر الله الخارجين على دعوة رسله وهدايتهم ، وهى ظاهرة تكررت الإشارة إليها فى سور القرآن المكى ؛ تحذيرًا لأهل مكة أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم .

٣ - عرض إجمالى لأجزاء السورة :

سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم وهى أطول سورة فى المكى ، وهى أول سورة عرضت ؛ لتفصيل فى قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد نزلت بين جملتين من السور المكية : يكثر فى الجملة التى نزلت قبلها السور القصيرة ، التى تعرف بسور «المفصل» [٢٥] . ويكثر فى الجملة التى نزلت بعدها السور المتوسطة التي تعرف بسور «المئين» [٢٦] .

وتطالعنا سورة الأعراف بالحديث عن عظمة القرآن . وتأمرنا باتباعه وتحذرنا من مخالفته . وتحثنا على العمل الذى تثقل به موازيننا يوم القيامة [٢٧] فى بداية تعد براعة استهلال أو عنوان لما تشمل عليه السورة . وهى سمة غالبة فى سور القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنوانا معبرا عن أهدافها وسماتها .

وفى أول سورة الأعراف يقول سبحانه :

الـمّـصّ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون . (الأعراف : ١ - ٣) .

ثم ساقت لنا السورة بأسلوب منطقى بليغ قصة آدم مع إبليس . وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة . فلما أكل منها هو وزوجته .

بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ . (الأعراف : ٢٢) .

ثم وجهت إلى بنى آدم نداء فى أواخر هذا الربع نهتهم فيه عن الاستجابة لوسوسة الشيطان .

قال تعالى : يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا * إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ... (الأعراف : ٢٧) .

وفى الربع الثانى منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، وتخبرنا بأن الله - تعالى - قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التى أحلها لنا ، وتبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق لنا فى بضع آيات عاقبة المكذبين لرسل الله ، وكيف أن كل أمة من أمم الكفر عندما تقف بين يدى الله للحساب تلعن أختها .

قال تعالى : كُلَّمَا دَخَلَت أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ لِكلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولاَهُم لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٣٨ ، ٣٩) .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الأعراف : ٤٢)

وفى أواخر هذا الربع وفى أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك المحاورات التى تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وتحكى لنا ما يحصل بينهم من نداءات ومجادلات ، تنتهى بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل :

أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .

فيجيبهم أصحاب الجنة :

إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (الأعراف: ٥٠ ، ٥١).

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانبًا من مظاهر نعم الله على خلقه ، وتدعونا إلى شكره عليها ؛ لكى يزيدنا من فضله .

وفى الربع الرابع منها وفى أواخر الثالث تحدثنا عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه . ولقد ساقت لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات ما يهدى القلوب ، ويشفى الصدور ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين .

أما فى الربع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله فى خلقه ، ومن مظاهر هذه السنن أنه -سبحانه- لا يعاقب قومًا إلا بعد الابتلاء والاختبار ، وأن الناس لو آمنوا واتقوا ؛ لفتح - سبحانه - عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى : تِلْكَ القُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قلوبِ الكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وإن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ . (الأعراف : ١٠١ ، ١٠٢).

ثم عقبت على ذلك ببيان أن الله تعالى قد ساق قصص السابقين ؛ للعظة والاعتبار .

ثم أسهبت السورة فى الحديث عن قصة موسى – عليه السلام – فقصت علينا فى زهاء سبعين آية – استغرقت الربع السادس والسابع والثامن – ما دار بينه وبين فرعون من محاولات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة :

آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * ربِّ مُوسَى وهَارُونَ . (الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢) .

ثم حكت لنا ما لقيه موسى من قومه بنى إسرائيل من تكذيب وجهالات ، مما يدل على أصالتهم فى التمرد والعصيان ، وعراقتهم فى الكفر والطغيان .

وفى الربع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذى أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ثم حدثتنا على التفكير والتدبير فى ملكوت السماوات والأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى علام الغيوب ، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرًا.

أما فى الربع العاشر والأخير فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وأنكرت على المشركين شركهم ، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم :

خُذ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرفِ وَأَعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ . (الأعراف : ١٩٩) .

وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء :

وَاذْكُر رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وخِيفَةً وَدُونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بالغدوِّ والآصَالِ وَلاَ تَكن مِّنَ الغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدونَ . (الأعراف : ٢٠٥ ، ٢٠٦) .

٤ - قصة آدم :

ذكرت قصة آدم فى سورة البقرة ثم أكملت سورة الأعراف حلقات هذه القصة . وذكرت أن الله خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له ؛ إظهارًا لفضله وتنويها بما يكون له من شأن بعد أن سألوا عن الحكمة فى خلقه وقد ركبت فيه الشهوة والغضب وبهما يفسد فى الأرض ويسفك الدماء .

وذكرت السورة موقف إبليس وإباءه السجود والامتثال لأمر الله ، كما ذكرت قصة تأثر آدم بوسوسة الشيطان ، وإغرائه إياه بالأكل من الشجرة وكيف كانت عاقبة آدم فى الهبوط من الراحة والاطمئنان إلى الكد والتعب ، وإلى مكافحة عوامل الشر التى بنيت الحياة عليها وعلى ما يقابلها من عوامل الخير ، ومطالبة الإنسان بأن يقف مع جانب العقل والرسالة الإلهية اللذين يشدان أزره فى التغلب على عوامل الشر .

لقد كان آدم فى نعيم الجنة يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ويتنقل بين أشجارها ويتفيأ ظلالها ويتفكه بثمارها ويرتوى من عذب مياهها ، وشاركته زوجه هذه المتعة ولكن الشيطان أغراهما بالأكل من الشجرة وأقسم لهما بأنه من الناصحين ، فلما أطاعا الشيطان وأكلا من الشجرة سلب الله عنهما نعمته وحرمهما جنته :

وَنَادَاهُمَا رَبُّهمَا أَلَمْ أَنْهكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ . (الأعراف : ٢٢) .

وقد ندم آدم وحواء أشد الندم وتابا إلى الله توبة نصوحًا فتاب الله عليهما وأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ؛ ليكدحا ويعملا فتعمر الأرض وتنتشر الحياة فى جنباتها . وقد حذر الله آدم وذريته من الشيطان وإغرائه ، وبين سبحانه أن على المؤمن أن يلجأ إلى ربه وأن يستعين بهداه وألا يخلد إلى الهوى وألا ييأس من رحمة الله ؛ فقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه حتى يتوب إليه التائبون ويلجأ إليه المؤمنون . فكل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

والمؤمن يتسامى بغرائزه وينتصر على شهواته وينهى نفسه عن الهوى ويحملها على طريق الفلاح والاستقامة .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (الشمس: ٧ – ١٠)

٥ - نعمة الثياب والزينة :

تحدثت سورة الأعراف عن نعم الله تعالى على بنى آدم ، ومن هذه النعم نعمة الملبس الذى يستر الناس به عورتهم ، ويحملون به أنفسهم هيأ الله لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسيج والخياطة . ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله فى الانتفاع بتلك النعمة ، واستخدامها فى طاعة الله وشكره . وبذلك تستر الثياب العورة، وتكون مصدر نعمة لا نقمة .

قال تعالى : يَابَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . (الأعراف : ٢٦) .

وفى هذا تنبيه إلى أن الحضارة الحقة ليست فى كشف المفاتن ولا فى إظهار العورات وإنما الحضارة الحقة فى السير على سنة اللّه وهدى رسله وتعاليم أنبيائه .

توسط الإسلام فى شأن الزينة :

من الآيات المشهورة قوله تعالى :

يابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . (الأعراف : ٣١) .

ومن هذه الآية نلمح سماحة الإسلام ويسره فهو يأمر بالنظافة ويدعو إلى التجمل والتزين ويحث على التمتع بالطيبات . وفى الحديث الشريف يقول النبى ﷺ :

«إن الله نظيف يحب النظافة جميل يحب الجمال ، طيب يحب الطيبين» .

وقد جاء الإسلام دينًا وسطًا فقد نهى عن التبذير والإسراف وحذر من الشح والبخل وأمر بالقصد والاعتدال قال تعالى :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . (الأعراف : ٣٢) .

فهو سبحانه خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وفضله على كثير من المخلوقات وسخر له الكون بما فيه من سماء مرفوعة وأرض مبسوطة وجبال راسية وبحار جارية وليل مظلم ونهار مضىء وأمره أن يستمتع بالطيبات وأن يبتعد عن المحرمات فهناك حدود بيّنها الله ؛ فالحلال بيّن والحرامُ بيّن وظاهر ، وبينهما أمور مشتبهات فيها شبهة وإثم فمن ابتعد عن الشبهات ؛ فقد سلم عرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات ؛ كانت طريقا إلى الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وصدق الله العظيم :

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ والإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . (الأعراف : ٣٣) .

★ ★ ★

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم



﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ
دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ
وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ
ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

حــــــرج : ضيق . يقال : حرج المكان ، أو الصدر يحرج حرجًا ، ضاق ، وهو كقوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . (هود : ١٢) . والحرج أيضا : شدة الضيق .

لتنذر به : الإنذار الإخبار مع تخويف العاقبة .

وذكــــرى : أى : وتذكير .

أولـــيــاء : أعوان ونصراء جمع ولى .

كـــــــم : اسم يفيد التكثير .

والقرية تطلق على الموضع الذى يجتمع فيه الناس وعلى الناس معًا . وتطلق على كل منهما كما جاء فى قوله تعالى واسْأَلِ الْقَرْيَةَ أى : أهل القرية .

بــأســنــا : عذابنا ، بياتًا مصدر وقع الحال معناه : بائتين والبيات : الإغارة على العدو ليلاً والإيقاع به على غرّة .

قـائـلـون : نائمون فى وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة والنوم فى الظهيرة .

دعـواهـم : الدعوى : ما يدعيه الإنسان وتطلق على القول أيضًا .

الذين أرسل إليهم : هم المرسل إليهم أى : الأمم المُرسَلين : هم الرسل .

فـلـنـقـصـنّ : فلنحكينّ يقال : قص الخبر يقصه قصًا : حكاه .

والوزن يومئذ الحق : أى : الوزن الحق أى : الصحيح يكون يومئذ .

تمهيد :

آلـمـص .

هذه فواتح لبعض السور القرآنية ، وقد افتتح الله تعالى بعض السور بالنداء مثل : (يَـٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ) (يَـٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ الله) ، (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ..) .

وبعض السور بُدئت بالقسم ، مثل : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (والضُّحَى * وَالَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ..) (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ * وَهَـٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ..) .

(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ..) ومثل : (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ..) (والطور) ، (والنجم) ، (والفجر) ، (والليل) ، (والعاديات)، (والعصر) وبعض السور بدئت بالثناء وإثبات الحمد لله .

كما فى سورة الفاتحة ، (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وكما فى سورة الأنعام : الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور وكما فى سورة الكهف (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ..) .

حروف المعجم :

افتتح الله تعالى بعض السور القرآنية بالحروف المقطّعة وهى حروف المعجم .

فبعض السور بدأ بحرف واحد مثل نٓ ، قٓ، صٓ .

وبعض السور بدأ بحرفين مثل حمٓ ، طهٓ ، يسٓ .

وبعض السور بدأ بثلاثة أحرف مثل الٓم ، طسٓم ، الرٓ .

وبعض السور بدأ بأربعة أحرف مثل المصٓ ، المرٓ .

وبعض السور بدأ بخمسة أحرف مثل : حمٓ عسقٓ ، كهيعصٓ .

وليس لهذه الأحرف معان مستقلة فى اللغة العربية فهى لا تكوِّن جملة مفيدة مستقلة .

وقد تكلم العلماء عن معانيها فى كتاب الله تعالى ، وأشهر آراء العلماء تنقسم إلى قسمين .

القسم الأول : هى حروف استأثر الله تعالى بمعرفة معناها .

القسم الثانى : هى حروف لها معنًى وتعددت آراء العلماء فى تحديد هذا المعنى .

فمنهم من قال : هى أسماء للسورة ، ومنهم من قال : هى حروف تشير إلى أسماء الله تعالى أو صفاته.

ومنهم من قال هى دليل على انتهاء سورة وبداية أخرى ، ومنهم من قال : حروف للتحدّى والإعجاز وبيان أن الخلْق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع أنه مكون من حروف عربية يتخاطبون بها ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر وإنما هو تنزيل من حكيم حميد وأصحاب هذا الرأى يرون أن الحروف المقطعة فى فواتح السور مجموعها – بعد حذف المكرر منها – هو ١٤ حرفًا ، ومجموع حروف المعجم فى اللغة العربية هو ٢٨ حرفًا . فكأنَّ الحق سبحانه يقول : لقد جعلت من نصف الحروف فواتح للسور فى هذا الكتاب ، وتركت لكم النصف الثانى ؛ لتصنعوا منه كتابًا مثله إن استطعتم .

ولاحظ أصحاب هذا الرأى أن فواتح السور حوت من كل جنس من الحروف نصفه ، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ، ونصف الحروف المجهورة ، ونصف الشديدة ، ونصف الرِّخوة ، ونصف المطبقة ، ونصف المنفتحة ، وهو لون آخر من ألوان الإعجاز لهذا الكتاب الكريم .

رجوع إلى القرآن الكريم :

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم ، وتتبعنا هذه السور الكريمة ، التى بُدئت بحروف الهجاء ؛ رأينا أنها فى الأعم تحدثت عن نزول القرآن الكريم وإعجازه ، فدلَّ ذلك على أن هذه الحروف قد ذكرت فى بداية هذه السور؛ إشارة إلى التحدى والإعجاز .

اقرأ إن شئت : الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ. البقرة .

الٓمٓ * اللَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ... آل عمران .

الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ... الأعراف .

الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. يونس .

الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. هود .

الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. يوسف .

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ. الرعد .

الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... إبراهيم .

الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ . الحجر .

طٰهٰ * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرءَانَ لِتَشْقَىٰٓ . طه .

طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . الشعراء .

طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. القصص .

طسٓ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ. النمل .

الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ. لقمان .

صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِى الذِّكْرِ. ص .

حمٓ * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غافر .

حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. فصلت .

حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. الزخرف .

حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. الدخان .

قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ. ق .

أسباب النزول :

وإذا نظرنا إلى الأسباب العامة لنزول هذه الآيات ، وإلى الجو الذى نزلت فيه رأينا أنها كلها سور مكية، ما عدا البقرة وآل عمران وكلها نزلت تجادل كفار مكة وتصرفهم عن عنادهم ، وتأخذ بأيديهم وألبابهم إلى مواطن الإعجاز فى هذا الكتاب الخالد الذى أنزله الله على نبيه ؛ هداية لهم ونورًا لحياتهم ونظاما لسلوكهم ، ولكنهم صموا آذانهم عن سماعه وقالوا : أساطير الأولين ، وادعوا أنه حديث مفترى ، وأنهم لو شاءوا لقالوا مثله ، إلى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه ، فبدئت هذه السور بهذا الأسلوب ؛ تأثيرا فى قلوبهم ولفتًا لأنظارهم . ولا يخفى أن المفاجأة بالغريب الذى لم يؤلف، لها فى إرهاف الأسماع وتنبيه الأذهان مالا يحتاج إلى بيان .

سر الإعجاز :

ولا يبعد أن يكون الإعجاز في هذه الأحرف هو اشتمالها على جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في معانيها.

فهي بداية للسور ، وهي إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، وهي لون من التنبيه الذي يقرع الأذهان ويلفت الغافلين .

وهي مما أقسم الله به ؛ لبيان شرف القرآن وفضله .

وهي مما استأثر الله بحقيقة المراد منه ، فكل ما ذكره العلماء اجتهاد محمود ؛ لإدراك أسرارها أو حكمة الابتداء بها .

ولا يزال الله يتفضل على عباده صباح مساء بفهم كتابه واستنباط معانيه ، سئل الإمام على رضى الله عنه : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : لا إلا فهما يعطيه الله لرجل في القرآن .

وصدق الله العظيم : قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (الكهف : ١٠٩) .

التفسير :

١ - الٓمٓصٓ .

هذه الأحرف بداية لسورة الأعراف ، وهي مما استأثر الله تعالى بعلمه .

ويجوز أن تكون بداية للسورة ، بمثابة الجرس الذي يقرع فيتنبّه التلاميذ إلى دخول المدرسة .

أو هي حروف للتحدّي والإعجاز ، أو هي إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، أو هي اسم خاص بسورة الأعراف والله تعالى أعلم .

٢ - كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ... الآية .

أي : هذا كتاب كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية الثقلين ، فبلِّغ تعاليمه للناس ، ولا تحزن أو تَضجر إذا وجدت من بَعضهم صدودًا عنك ، فما عليك إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب .

ولقد كان ﷺ يتألم ويحزن ؛ لانصراف قومه عن هداية الله رغم وضوحها وبيانها ، وكان القرآن الكريم يواسيه ويحثه على الصبر والتسلية ، وعدم الحزن ، كما في قوله تعالى : لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ٣) .

وكما فى قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . (الحجر : ٩٧) .

وكما فى قوله سبحانه : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ... (البقرة : ٢٧٢) .

وكما فى قوله تعالى : إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ... (الشورى : ٤٨) .

وقريب من ذلك قوله سبحانه : فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . (المائدة : ٢٦) .

وقوله تعالى : فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . (فاطر : ٨) .

وقد فسر بعض العلماء الحرج بالشكّ وهو معنى مجازىّ للحرج ، أى : لا يكن فى صدرك شك ولا لبْس فى كون هذا القرآن كتاب الله .

قال الآلوسى :

قوله تعالى : فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ . أى : شك ، وأصله : الضيق واستعماله فى الشك مجاز علاقته اللزوم ، فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر ، كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه .

لِتُنذِرَ بِهِ .

أى : لتنذر به قومك وسائر الناس .

وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

أى : لتذكر به أهل الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة ؛ لأنهم هم المستعدون لذلك ، وهم المنتفعون بإرشادك ، فالكتاب يذكرهم آنًا بعد آن بربّهم ، وما يحق له من الطاعة .

قال تعالى : وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . (الذاريات : ٥٥) .

وقال تعالى : تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ . (قٓ : ٨) .

وقال تعالى : إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الأَلْبَابِ . (الزمر : ٩) .

٣ - اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ...

أى : اتبعوا القرآن العظيم ، والسنة النبوية معه ؛ لأنها تُبيِّنه وتفسِّره فقد قال تعالى : وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ ... (الحشر : ٧) .

والآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين .

قال د . محمد سيد طنطاوى :

أى : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأحلُّوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه، لأن الذى أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربكم ، الذى هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم ، والعليم بما فيه مصلحتكم .

ولاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ .

أى : أفردوا الله بالألوهية ، ولا تتجاوزونه إلى الشركاء والرؤساء فيما يحللونه ويحرمونه .

قال أبو السعود : ولاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ ... أى : من دون ربكم الذى أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق .

أَوْلِيَاءَ . من الجن والإنس بأن تقبلوا منهم ما يلقونه إليكم بطريق الوسوسة والإغواء من الأباطيل ؛ ليضلوكم عن الحق . ويحملوكم على البدع والأهواء الزائفة .

قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون .

أى : تذكروا قليلاً ما تتذكرون .

قال أبو السعود : وقرئ يتذكرون على صيغة الغيبة ، وقَلِيلاً منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو لظرف زمان محذوف ، ومَّا مزيدة ؛ لتأكيد القلة .

أى : تذكروا قليلا ، أو زمانًا قليلاً تتذكرون لا كثيرًا ، حيث لا تتأثرون بذلك ، ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ، ويجوز أن يراد بالقلة : العدم ، كما قيل فى قوله تعالى : فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُون .

والجملة : قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون . اعتراض تذييلى مسوق ؛ لتقبيح حال المخاطبين .

وقال الشوكانى : قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون أى : إن البشر يتذكرون الحق فى شأن الإيمان قليلاً ، وينسون ذلك أو يجهلونه كثيرًا .

٤ – وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ .

قال أبو السعود :

هذا شروع فى إنذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى ، وإصرارهم على اتباع دين آبائهم .

والمعنى : وكثيرًا من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا فى وقت نوم أهلها بالليل، كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم شعيب .

قال الشوكانى فى فتح القدير : أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ والقيلولة : هى نوم نصف النهار ، وقيل : هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت ؛ لشدة الحرّ من دون نوم ، وخصَّ الوقتين ؛ لأنهما وقت السكون والدّعة .

فمجىء العذاب فيهما أشدّ وأفظع .

وقال د. طنطاوى :

ومن العبر التى تؤخذ من هذه الآية أن العاقل هو الذى يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يأمن صفو الليالى ، ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء : فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ . (الأعراف : ٩٩) .

٥ - فَمَا كَانَ دَعْوَاهُم إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلاَّ أَن قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين .

أى : فما كان منهم عندما باغتهم العذاب فى وقت اطمئنانهم ، إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه، وشهادتهم ببطلانه ؛ تحسرًا عليه . وندامة ، وطمعًا فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة .

٦ - فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ .

والمعنى : فلنسألن المُرْسَلَ إليهم عما أجابوا به رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم .

وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ عما أجيبوا من قومهم ، وعن تبليغهم لرسالات الله .

وسؤال المكذبين للرسل ؛ للتوبيخ والتقريع للمكذبين بهم ، وفيه بيان لعذابهم الأخروى بعد عذابهم الدنيوى .

وسؤال الرسل ؛ لتكريمهم وإظهار شرف عملهم ، وتبرئة ساحتهم حيث يقول بعض المشركين : مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ ... (المائدة : ١٩) .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ . أى : الأنبياء الذين بعثهم الله ،نسألهم عما أجاب به أممهم عليهم ، ومن أطاع منهم ومن عصى ، وكل ذلك ؛ ليكون معلومًا أننا ما ظلمنا أهل تلك القرى ، عندما أهلكناهم ، بل كانوا هم الظالمين بتكذيبهم للرسل . ا هـ .

٧ - فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ .

أى : فلنقصن على الرسل والمرسل إليهم ، كل ما وقع منهم عن علم دقيق وإحصاء شامل ؛ لأننا لا يغيب عنا شيء من أحوالهم .

قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . (المائدة : ١٠٩).

والحق سبحانه وتعالى هنا يعرض الغائب حاضرًا ، ويستعرض القيامة وأهوالها وأحوالها ؛ ليضع الإنسان أمام نفسه ، تبصرة وتذكرة ، وهذه من ألوان تعريف القول فى القرآن الكريم فهو حينًا يعرض أخبار الأمم الماضية وأحوالها ، وهو حينًا يعرض مظاهر الكون وبديع صنع الله فى الخلق ، وهو حينًا آخر يستعرض القيامة والبعث والحشر والسؤال والصراط والميزان ، حتى يشاهد الإنسان بعينيه فى الدنيا مشاهد القيامة كأنها بين يديه ؛ ليزداد عظة وعبرة .

يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى تفسير العشرة أجزاء الأولى للقرآن الكريم :

والذى يهمنا هنا أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار ، وإنما هو سؤال تبكيت وتنديد ، فليس فى السائل مظنة أن يجهل ، ولا فى المسئول مظنة أن ينكر : وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم ، وشعور المرسلين بتبليغهم ، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها ، وأعرض عنها فى الوقت الذى كان يجد به الإقبال عليها والإيمان بها ، وهو نوع من زيادة الحسرة ، وقطع الآمال فى النجاة ، بوضع يد المجرم على جسم جريمته ، وهو فى الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسل فى القيام بدعوتهم ، وتبليغهم ما أمروا بتبليغه ، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله تعالى : فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ .

٨ - وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : توزن أعمال العباد يوم القيامة بالميزان وزنًا حقيقيًا طبقًا للعدل الذى لا ظلم فيه .

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . أى : رجحت أعماله الصالحة الموزونة .

فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أى : الفائزون بالنجاة والثواب .

٩ - وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ .

أى : ومن خفت موازين أعماله ، أو أعماله التى لا وزن لها ولا اعتداد بها ، وهى أعماله السيئة .

فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب ، فلم يعاملوا آيات الله بما تستحق من تعظيم ، فكذبوا بها وظلموا الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

وقد اختلف العلماء فى كيفية الوزن :

فقال بعضهم : إن التى توزن هى صحائف الأعمال ، التى كتبت فيها الحسنات والسيئات ؛ تأكيدًا للحجة ، وإظهارًا للنصفة وقطعًا للمعذرة .

وقيل : إن الوزن هنا كناية عن القضاء السوىّ ، والعدل التامّ فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال، وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه ، أى : يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

من كلام المفسرين

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :-

«والجمهور على أن صحائف الأعمال هى التى توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر إليه الخلائق ؛ إظهارًا للمعادلة وقطعًا للمعذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم ، فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ، ويشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وكما يثبت فى صحائفهم ، فيقرءونها فى موقف الحساب ، ويؤيده ما روى أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلاً مدَّ البصر ، فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة .

وقيل : يوزن الأشخاص ؛ لما روى عنه عليه الصلاة والسلام : «إنه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»[٢٨].

وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوىّ والحكم العادل، وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين : بناء على استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية .

وروى عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة.

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

فإن قلت : أليس الله تعالى يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة فى وزنها ؟

قلت : فيه حكم : منها : إظهار العدل ، وأن الله تعالى لا يظلم عباده ، ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى ، ومنها : تعريف العباد بما لهم من خير أو شر ، وحسنة أو

سيئة ، ومنها : إظهار علامة السعادة والشقاوة ، ونظيره أن الله سبحانه أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ ، وفى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم ، من غير جواز النسيان عليه . اهـ .

والذى علينا هو الإيمان بأن فى الآخرة وزنًا للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء ، وأنه وزن أو ميزان يليق بما يجرى فى ذلك اليوم ، أما كيفية هذا الوزن وهل هو وزن للأعمال ، أو للأشخاص فمردّه إلى الله ، الذى يعلم النوايا ومقدار الإخلاص والتجرد وهو نعم الحسيب المكافئ القائل فى كتابه :

إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وهو سبحانه القائل : وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا . (النساء : ٦) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

ولقد مكناكم فى الأرض : أى : مكناكم من سكناها ، وزرعها ، والتصرف فيها .

ولقد خلقناكم ثم صورناكم : أى : خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصوَّر ، ثم صورناه أبدع تصوير ، بأحسن تقويم سرى إليكم .

التفسير :

١٠ - وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ .

هذه الآية فيها بيان لنعم الله على بنى آدم ؛ استمالة لقلوبهم إلى الإيمان بالله الخالق الرازق .

والمعنى : ولقد جعلنا لكم فى الأرض مكانًا وقرارًا ، وهيأنا لكم فيها أسباب المعايش ، وأنشأنا لكم فيها أنواعًا شتَّى من المطاعم والمشارب التى تعيشون بها عيشة راضية ، ولكن كثيرًا منكم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران !.

١١ – وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُوَا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِين .

أى : ولقد خلقنا أباكم آدم من طين غير مصوّر ، ثم صورناه بعد ذلك وأنتم بالتبع ، وقيل : المعنى : ولقد خلقنا الأرواح أولاً ، ثم صورنا الأشباح .

جاء فى تفسير أبى السعود : وفى هذه الآية تذكير لنعمة عظيمة فائقة على آدم عليه السلام سارية إلى ذريته لشكرهم كافة . بالرمز إلى أن لهم حظًا من خلقه وتصويره ، إذ الكلُّ مخلوق فى ضمن خلقه مصنوع على شاكلته .

أى : خلقنا أباكم آدم طينًا غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سارٍ إليكم جميعًا (٢٩) .

ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُوَا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ .

أى : أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تعظيم وخضوع وتحية ، لا عبادة فامتثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر ، من غير تلعثم أو تباطؤ .

إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ .

أى : لكن إبليس لم يسجد وأبَى السجود ؛ تكبرًا .

هل كان إبليس من الملائكة ؟

للعلماء فى ذلك رأيان :

أحدهما : أنه كان منهم ، أو مقيمًا معهم فنسب إليهم .

جاء فى تفسير أبى السعود : لما أنه كان جنيًا مفردًا مغمورًا بألوف من الملائكة مُتصفًا بصفاتهم فغلِّبوا عليه فى فَسَجَدُوَا ثم استثنى استثناء واحد منهم ، أو لأن من الملائكة جنسًا يتوالدون يقال لهم : الجنّ (٣٠) .

الرأى الثانى : أن إبليس ليس من الملائكة . لقوله تعالى :

إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . (الكهف : ٥٠) فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور ، ولأنّ له ذرية ولا ذرية للملائكة .

★ ★ ★

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ
فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

ما منعك ألا تسجد : ما ألزمك واضطرك إلى ألاَّ تسجد ، فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

فاهبط : أي : فانزل ، والهبوط : الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من منزلة إلى ما دونها ، فهو إمَّا حسى وإمَّا معنوى .

أن تتكبر : التكبر : جعل الإنسان نفسه أكبر مما هى عليه .

من الصاغرين : أى : من الأذلاَّء المحقرين ، وهو جمع صاغر .

التفسير :

١٢ – قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ... الآية .

أى : قال الله تعالى لإبليس : ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد ؟!

والسؤال لإقامة الحجة ، وللتقريع والتوبيخ ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك .

قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ . أى : قال إبليس أنا خير من آدم ؛ لأنى مخلوق من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين والأشرف لا يليق به الانقياد لمن هو دونه ، والأعلى لا يليق به السجود للأدنى.

ولقد أورد المفسرون هنا كلامًا لطيفًا يفيد أن عدو الله قد أخطأ فى زعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين .

فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت ، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة .

ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله .

جاء فى تفسير أبى السعود :

ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وزلّ عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى : **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ** . أى : بغير واسطة على وجه الاعتناء به .

وما من جهة الصورة كما نبّه عليه بقوله تعالى : **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِى** .

وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر فهو مؤهل للخلافة فى الأرض ، وله خواص ليست لغيره [٢١] .

وجاء فى تفسير ابن كثير :

وقول إبليس : **أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ** ... إلخ من العذر الذى هو أكبر من الذنب ؛ إذ بين بأنه خير من آدم ؛ لأنه خلق من النار وآدم خلق من الطين فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه .

وقاس قياسًا فاسدًا فى مقابلة نص ، وهو قوله تعالى : **فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ** .

فشذّ من بين الملائكة ؛ لترك السجود فأبعده الله عن رحمته .

وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت :

قال رسول الله ﷺ : «خُلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم» [٢٢].

١٣ – قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ .

أى : اهبط فى السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة ، الذين لا يعصون الله فيما أمرهم ، إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع .

أو اهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى ، وقيل : إن الضمير يعود على روضة كانت على مرتفع فى الأرض ، خلق فيها آدم .

فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا . فإن السماء أو إن الجنة لا تصلح لمن يستكبر ، ويعصى أمر ربه مثلك .

فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . أى : اخرج من الجنة ؛ فأنت من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه؛ لتكبرك وغرورك .

وكل من تردّى برداء الاستكبار؛ عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ، ومن لبس رداء التواضع: رفع الله قدره.

قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ... (الأنفال : ٥٣) .

وجاء فى تفسير القرآنى للقرآن :

«الضمير فى مِنْهَا يعود إلى المنزلة التى كان فيها إبليس قبل هذه المعصية والهبوط هنا : هبوط معنوى.

والمعنى : اخرج أيها الشيطان المريد من هذه النعمة التى خولتك إياها ورفعت بها منزلتك ، حتى اتخذت منها حجة على هذا العصيان لأمرى ، فتأبى أن تسجد لمن دعوتك إلى السجود له ... فما يكون لك أن تتكبر فى هذه النعمة ، وتختال بها ... وها أنت ذا قد أصبحت من الصاغرين ، قد نزع عنك ما كنت تدّعيه لنفسك من منزلة تعاليت بها على هذا المخلوق الآدمى ، الذى خلق من طين ...!» [٣٣] .

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

أنظرني : أمهلنى ، يقال : أنظره إنظارًا : أمهله .

المنظرين : الممهلين المؤخرين .

أغويتني : أى أضللتنى وأوقعتنى فى الغواية ، وهى ضدّ الرشاد .

مذءومًا : مذمومًا يقال : ذأمه يذأمه ذأما أى : ذمّه وحقره وطرده وعابه .

مدحورًا : أى : مطرودًا يقال : دحره يدحره دحرًا ، طرده ودحر الجند العدوّ أى : طردوه وأبعدوه .

لمن تبعك منهم : اللام مواطئة للقسم ، وجوابه : لأملأن جهنم .

التفسير :

١٤ - ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ .

أى : قال إبليس لله تعالى : أمهلنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة .

قال تعالى : ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّماوات وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ . (الزمر : ٦٨) .

وكأنَّ إبليس قد طلب ألا يموت أبدًا ؛ لأن يوم البعث لا موت بعده ، كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الإغواء لبنى آدم .

١٥ - ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ .

أى : إنك من الممهلين ، لا إلى يوم البعث ولكن إلى يوم الصعق ، قيل : الحكمة فى إنظاره ؛ ابتلاء العباد؛ ليعرف من يطيعه ممن يعصيه .

جاء فى تفسير أبى السعود : «أى : إنك من جملة الذين أخِّرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية ، إلى وقت فناء غير ما استثناه الله تعالى من الخلائق ، وهو النفخة الأولى ، لا إلى وقت البعث الذى هو المسئول» [٣٤] .

وقال ابن كثير : أجابه الله تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة ، التى لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

١٦ - ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

أى : فبسبب إضلالك إياى - حتى تركتُ السجود لآدم ، فعاقبتنى العقوبة المهلكة - لأترصَّدنَّ لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة ، كما يترصَّد قطاع الطرق السائرين فيها ، فأصدنَّهم عنها ، وأحاول بكل السُّبل إغراءهم ، وصرفهم عن صراطك المستقيم ، حتى يفسدوا بسببى كما فسدتُ بسببهم ، ولن أتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم .

١٧ - ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ .

أى : سوف آتيهم من كل الجهات ، محاولاً إغواءهم عن صراطك المستقيم (وهو طريق الجنة) بكل وسيلة أقدر عليها .

وقد ذكر الجهات الأربع الأصلية التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوَّه منها ، وترك جهة الفوق ؛ لأن الرحمة تنزل من فوقهم .

وعن ابن عباس (٣٥) رضى الله عنهما : مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ من قبل الآخرة وَمِنْ خَلْفِهِمْ من جهة الدنيا وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ من جهة حسناتهم وَعَن شَمَآئِلِهِمْ من جهة سيئاتهم .

وقيل : مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ من حيث يعلمون ويقدرون على التحرز .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ من حيث لا يعلمون ولا يقدرون .

وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ من حيث يتيسر لهم أن يعلموا ويتحرزوا ، ولكن لم يفعلوا ؛ لعدم تيقظهم واحتياطهم .

وَعَن شَمَآئِلِهِمْ من حيث لا يتيسر لهم ذلك .

وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ .

أى : لن تجد أكثر البشر مطيعين مستعملين لقواهم وجوارحهم ، فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله .

وإنما قال ذلك ؛ ظنًّا منه بتأثير وسوسته فيهم ، وإغوائه لهم ، ورغبته فى إضلالهم عن الأعمال الصالحة ، ومحاولة إفسادها .

قال تعالى : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِم إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤمِنِينَ . (سبأ : ٢٠) .

وقد حذرنا القرآن من اتباع الشيطان فهو عدو مبين حريص على النجاح فى مهمتِه ، ومهمتُه إضلال الإنسان وغوايته .

وواجب الإنسان الحذر من إضلال الشيطان والانتصار عليه .

قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . (فاطر : ٦) .

وقال سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عبد الله ابن عمر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يُمسى يقول :

«اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى» (٣٦) .

١٨ – قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ... الآية .

أى : اخرج من السماء أو من الجنة مذمومًا مطرودًا .

لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ .

فى هذا قسم وإنذار من الله تعالى لمن ترك طاعة الرحمن واتبع طريق الشيطان .

والمعنى : لمن أطاعك من الجن والإنس لأملأن جهنم من كفارهم ، وقريب منه قوله تعالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا . (الإسراء : ٦٣)

★ ★ ★

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى
لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ
حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

فوسوس لهما : ألقى إليهما الوسوسة : يقال : وسوس له وإليه ، وهى فى الأصل : الصوت الخفى المكرر، ومنه قيل لصوت الحلى : وسوسة. ووسوسة الشيطان للبشر : ما يجدونه فى أنفسهم من الخواطر الرديئة التى تزين لهم ما يضرّهم فى أبدانهم أو أرواحهم .

ليبدى لهما : لتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر .

مـــــا ورى : من المواراة وهى الستر .

ســـوآتـــهـــمـــا : السوءة : العورة وسميت العورة سوأة ؛ لأن انكشافها يسوء صاحبها .

إلا أن تكونا ملكين : أى : كراهة أن تكونا ملكين ، أو لئلا تكونا ملكين .

وقــاسـمـهـمـا : أى : أقسم لهما وجاء على وزن المفاعلة للمبالغة .

فدلاهما بغرور : أى : فأنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرّهما من دلّى الشىء وأدلاه ، أى : أنزله من أعلى إلى أسفل .

وطــفــقــا : أى : شرعا وأخذا .

يــخـصــفــان : يرقّعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قولهم: خصف الاسكافىّ النعل، إذا وضع عليها مثلها.

التفسير :

١٩ – ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

أى : وقلنا : يا آدم ، اسكن فى الجنة سكنًا أصليًا ، وتسكن زوجتك معك سكنًا تبعيًا .

ولكما أن تأكلا أكلا هنيئًا ، من جميع أشجار الجنة وثمارها .

إلاَّ شجرة واحدة حددها الله وعينها ، ونهاهما عن الاقتراب منها بالأكل ، وبين أن الأكل منها ظلم وعدوان .

ويتعلق بتفسير هذه الآية أمور منها ما يأتى :

١ – الجنَّة : هى كل بستان ذى شجر متكاثف ملتف الأغصان ، يظلل ما تحته ويستره .

ومن هذه المادة الجنّ ؛ لأنه مستور لا يرى ، والمجنُّ ؛ لأنه يستر المحارب ، والجنين ؛ لأنه مستور عن العين، والمجنون لأن عقله مستور محجوب ، وجَنّ الظلام : ستر ما تحته .

٢ – جمهور أهل السنّة على أن المراد بالجنة هنا : دار الثواب ، التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ؛ لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق .

٣ – جمهور علماء المعتزلة على أن المراد بالجنة هنا : بستان بمكان مرتفع من الأرض ، خلقه الله لإسكان آدم وزوجته .

٤ – ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدى فى التأويلات إلى أن الأحوط والأسلم الكفّ عن تعيين المراد بالجنة وعن القطع به ، إذْ ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة فيكفى أن يعلم المسلم أن الله أسكن آدم الجنة سواء أكان المراد بالجنة جنة الآخرة ، أم بستانا فى هذه الدنيا .

٥ – قال تعالى : وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ والقرب : الدنوّ والاقتراب من الشجرة ، والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة والنهى عن القرب هنا قُصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل ؛ إذْ فى النهى عن القرب من الشىء نهى عن فعله من باب أولى ، ونلمح أن القرآن عندما تحدث عن أشياء محرمة ، ذكر ذلك بصيغة التحريم مثل : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ... (المائدة : ٣) . أو بالنهى عنها مثل : وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَق ... (الإسراء : ٣٣) .

لكن عندما يكون المنهىُّ عنه مرغوبًا للنفس ، تدفع إليه الشهوة والرغبة ؛ فإنه ينهى عن الاقتراب منه مثل : وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢) .

وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ... (الإسراء : ٣٤) .

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ... (النساء : ٤٣) .

وكقوله تعالى فى هذه الآية وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ... لأن فى هذه الأمور رغبة نفسية أو جسدية ، فنهى القرآن عن الاقتراب منها فضلاً عن فعلها ، بخلاف القتل مثلا فلا تدفع إليه شهوة أو رغبة فقال سبحانه : وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ ... وكذلك أكل الميتة قال سبحانه : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ... .

٢٠ – فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا ... الآية .

أى : ألقى إليهما إبليس بالوسوسة والإغراء والتزيين للأكل من الشجرة حتى يسوءهما بظهور ما كان مستورًا عنهما من عوراتهما .

فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما ، ولا يراها أحدهما من الآخر .

ثم قد قيل : إنما بدت عوراتهما لهما لا لغيرهما .

وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

لقد حاول إبليس خداع آدم وحواء ، فأغواهما بالأكل من الشجرة ، وذكر لهما أنها منية النفس ، وأن الأكل منها طريق إلى الترقى من البشرية إلى الملائكية ، أو إلى الخلود فى الجنة والبقاء فيها بدون موت أو طرد أو حرمان .

٢١ – وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ .

أى : أقسم لهما بالله إنَّه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لمنفعتهما .

وفى قوله : وَقَاسَمَهُمَآ إشارة إلى تنازع الأقسام بينه وبينهما ، وكأن فى سكوتهما عنه قسمًا منهما باتهامه والحذر منه ، ولهذا صح أن تكون المقاسمة شركة بينهما وبينه .

وقيل : إنهما أقسما له بالقبول ، كما أقسم لهما على المناصحة ، أى : فصدَّقه آدم وحواء ، ولم يخطر ببالهما أنَّه كاذب مُضلّ [٣٧] .

٢٢ – فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا ... الآية .

التدلية والإدلاء : إرسال الشىء من أعلى إلى أسفل ، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه؛ ليشرب من مائها ، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء ، يكون مدليا فيها بغرور.

والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش ، وأصله من غررت فلانًا أى : أصبت غرَّته وغفلته ، ونلت منه ما أريد .

والمعنى : أن الشيطان أهبطهما بذلك من الرُّتبة العليّة وهى رتبة الطاعة والكرامة ، بما خدعهما به من اليمين الكاذبة .

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ...

أى : لما أكلا من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها ، أخذتهما العقوبة . وشؤم المعصية ، فتساقط عنهما لباسهما، وظهرت لهما عوراتهما، وشرعا يلزقان من ورق الجنة ، ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترها.

وقوله تعالى : وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ... إشارة إلى موالاة الخصْف من ورق الشجر .. والخصْف : جمع الشىء إلى الشىء وخياطته به ، ومنه خصف النعل إذا جمعت بعضه إلى بعض بإلصاق أو خياطة .

قال الشيخ حسنين محمد مخلوف فى صفوة البيان لمعانى القرآن :

ولعل المعنى – والله أعلم – إنهما لما ذاقا الشجرة ، وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلاّ، وخلعا ثوب الطاعة ، وبدت منهما سوأة المعصية ، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما ، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة فى الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى ، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها ، ومالهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك؛ ، فلما سمعا النداء الربانى بتقريعهما ولومهما ، أُلهما أن يتوبا إلى الله ، ويستغفرا من ذنبهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية ، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم، وقال لهما فقط ، أو لهما ولذريتهما ، أو لهما ولإبليس : اهبطوا من الجنة إلى الأرض ؛ لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته فى الأرض ، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى ، ومنازعة عدوهم لهم فيها، والله بالغ أمره ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِ شَيْءٍ قَدْرًا .

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ...

أى : ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ ، حيث خالفا أمر الله فأكلا من الشجرة بعينها ، ولم يحذرا ما حذرهما منها ، فقال سبحانه لهما ، ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة ؟!

وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِين . أى : ألم أقل لكما : إن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة لا يفتر عن إيذائكما وإيقاع الشرّ بكما .

جاء فى تفسير أبى السعود :

روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ، فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أن أحدًا من خلقك يحلف بك كاذبًا ، قال : فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ، ثم لا تنال العيش إلا كدًّا ، فأهبط وعُلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث ، فحرث وسقى وحصد ودرس وذرَّى وعجن وخبز.

٢٣ – قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ... الآية .

اعترف آدم وحواء بالخطإ ، والتمسا من ربهما الصفح والمغفرة ، فقالا : ربَّنا ظلمنا أنفسنا أى : أضررناها بالمعصية والمخالفة .

وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

لقد اعترف آدم بخطئه ، وطلب من الله المغفرة والرحمة ؛ حتى لا يصير من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة ، خلافا لإبليس الذى لم يعتذر عن معصيته ، ولم يستغفر ربّه ، بل استكبر ، فهذا الإنسان من طبيعته الخطأ ، ولهذا كان أهلاً لتحمل الأمانة ، فمن أفراده من يحسن تحملها ، ومن أفراده الظلوم الغشوم.

وقد سبقت حكمة الله وإرادته أن يوجد الإنسان فى هذه الأرض ومعه العقل والإرادة والاختيار ، فمن أطاع الله فله الجنة ، ومن عصاه فله النار ، ومن تاب إلى الله قبل الله توبته ، وقد قبل الله توبة آدم .

قال تعالى : وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ . (طه : ١٢١ ، ١٢٢) .

وقال ﷺ : «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» .

٢٤ - قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

أى : انزلوا من الجنّة إلى الأرض حالة كون العداوة لا تنفك بين آدم وذريته ، وبين إبليس وشيعته ، وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ . أى : موضع استقرار وإقامة ، وَمَتَاعٌ أى : تمتع ومعيشة إلى حين انقضاء آجالكم .

والخطاب فى اهْبِطُواْ إما أن يكون لآدم وحواء وذريتهما . وإما أن يكون لهم ولإبليس أيضًا ، فإن عداوة إبليس لبنى آدم قد ذكرت مرارًا فى القرآن الكريم وتكررت هنا فى سورة الأعراف .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

٢٥ - قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ .

إن ميدان الاختبار والابتلاء هو هذه الأرض وقد شاء الله أن يخرج آدم من الجنة ؛ ليكون ذلك سببًا فى إعمار الأرض .

وسيترتب على ذلك الزراعة والتجارة والصناعة ، والتقدم والاختراع والابتكار ، وسيترتب على ذلك التنافس والتنازع ، وسيدخل إبليس على الإنسان من ناحية ماله أو شهوته أو ولده ، فإذا انتصر الإنسان ؛ فهو من الناجين ، وإذا انهزم أمام إبليس وأطاعه ؛ فهو من الهالكين .

والحياة والمعاش على ظهر هذه الأرض ، وبعد الوفاة والموت يدفن الإنسان فى باطن الأرض ، وبعد البعث والحشر يخرج الإنسان من الأرض إلى الحشر كما قال تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . (طه : ٥٥) .

★ ★ ★

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ
مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم
مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ
إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ
ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾
قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ
كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ
أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

أنزلنا عليكم : أعطيناكم ووهبنا لكم ، على حد قوله تعالى: وأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ بمعنى: خلقنا لكم الحديد.

يوارى سوآتكم : يستر ويوارى عوراتكم .

ريشاً : لباس زينة أو مالاً .

لباس التقوى : الإيمان وثمراته .

لا يفتننكم : لا يضلنكم ولا يخدعنكم

ينزع عنهما : يزيل عنهما استلابا بخداعه .

قبيله : جنوده أو ذريته .

أولياء : ناصرين ومتولين جمع ولى .

فعلوا فاحشة : أتوا فعلة متناهية فى القبح .

بالقسط : بالعدل وهو جميع الطاعات والقُرب .

وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد : أى: وتوجهوا إلى عبادته مستقيمين فى أى مسجد، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم.

حق عليهم الضلالة : أى : أوجب عليهم الضلالة ، يقال : حق الأمر : أوجبه وأثبته .

أولياء : أى : نصراء وموالى .

التفسير :

٢٦ - يَابَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ... الآية .

لما ذكر القرآن فى آيات سابقة أن معصية آدم تسببت فى ظهور عورته ، وخصف الورق عليها ، وكذلك حواء ، أتبع ذلك بذكر فضل الله على بنى آدم ، حيث ألهم الإنسان أن يزرع الأرض ، ويستنبط بعقله وفكره أسباب ستره ، ثم أسباب الزينة والرياش من الملابس الفاخرة ، ثم أنزل الله على الإنسان الكتب ، وأرسل له الرسل ؛ ليهديه إلى لباس التقوى والإيمان ، وكل ذلك من آيات الله وفضله على الإنسان ؛ حتى يتذكر الإنسان هذه النعم فيعترف لله تعالى بالشكر وبالعبادة .

قال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير :

تذكروا واعتبروا بما أنزل الله عليكم من مادة اللباس ، وذلك من الصوف والقطن والحرير وما إليها ، وبما ألهمكم وخلق فيكم من الغرائز ؛ لمعرفة طرق استنباتها وصناعتها بالغزل والنسيج والخياطة وسائر أنواع صناعة الملابس .

وقد امتن الله بها على بنى آدم ؛ ليستر عوراتهم التى أبداها لهم إبليس .

وَرِيشًا المراد بالريش هنا : لباس الزينة ، أى : إن الملابس التى ألهم الله بنى آدم اتخاذها حكمتها الستر والزينة .

وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ . لباس التقوى هو لباس الإيمان والعمل الصالح والورع واتقاء معاصى الله والخشية من الله ، فذلك خير لباس وأجمل زينة ، وقيل : هو الدِّرع والمغفر الذى يلبسه من يجاهد فى سبيل الله [٢٨].

ذَلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

أى : ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم ، لعلهم بعد ذلك لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية .

٢٧ - لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ ... الآية .

يستمر الدستور الإلهى فى توصية الإنسان وتنبيهه وتحذيره .

فهناك عداوة أبدية بين الإنسان والشيطان ، والعاقل يكون حذرًا من عدوِّه فالحرب خدعه ، والشيطان يجهز جيوشه وأعوانه ؛ لينتصر على الإنسان وذلك بتجميل المعاصى والشهوات .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن ج ٨ ص ٣٨٦ :

يحذر الله أبناء آدم من هذا العدوّ المبين المتربص بهم ؛ حتى يكونوا على يقظة دائمة من أباطيله وضلالاته ، التى يغريهم بها ، ويزينها لهم ؛ ليفتنهم فى دينهم ، وليخرجهم من الإيمان بالله ، والاستقامة على طاعته إلى معصيته والتعدّى على جرماته .

يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ ...

لقد حذر الله بنى آدم من الشيطان ؛ حتى لا يعيد معهم سيرته مع أبويهم ، اللَّذين أخرجهما من الجنة حال كونه نازعًا عنهما لباسهما ؛ ليريهما سوءاتهما .

وأسند القرآن النزع إلى الشيطان ؛ لأنه كان متسببًا فيه .

قال الشوكانى :

أوقعهما فى المعصية التى كانت عقوبتهما ظهور ما كان خافيًا عنهما من السوأة .

وقد عبر القرآن بالمضارع هنا ؛ لإظهار صورة الأبوين عاريين فى غاية الخجل والأسى ؛ حتى يحذر الإنسان هذه العاقبة .

إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ .

إن العدو إذا أتى من حيث لا يُرى ؛ كان أشد وأخوف ، فالشيطان عدو خفى يرى الإنسان ، ويرصد حركاته وسكناته ، ويطّلع منه على مواطن الضعف فينفذ إليه منها ، ومن هنا كان خطره داهمًا ، وشره مستطيرًا ، ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى اليقظة الدائمة والمراقبة المستمرة لهذا العدوّ الخفىّ المتربص.

قال مالك بن دينار : إن عدوًا يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله .

والمقصود : التحذير من وساوس الشيطان وحيله

إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ .

اقتضت حكمة الله تعالى ، أن من عصى الله واستمرأ المعصية ؛ قيض اللَّه له شيطانًا يقارنه ويلازمه، ويكون العاصى والكافر قرينًا وتابعًا للشيطان ، بينما المؤمن يُنفى شيطانه ويجهده ؛ لأنه لا يطيع له أمرا.

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال سبحانه وتعالى : وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . (الزخرف : ٣٦) .

والقرآن بهذا يظل كتاب التربية الحانية ، التى تفتح عين الإنسان وتبصّره .

فهداية الله غالية سامية ، ومن انحرف عن الجادة واستمرأ المعصية ؛ سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، وتركه حائرًا ضائعًا قرينًا للشيطان ووليًّا لإبليس وذريته . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُون .

ومن أطاع الله ، ولازم هدى السماء ، كشف الله بصيرته وأمده بعونه ومدده فلا سلطان للشيطان عليه قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

٢٨ – وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ... الآية .

كانت العرب تطوف بالبيت عراة ، يتأوّلون فى ذلك : أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها .

وربما كانت المرأة تطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئًا ؛ ليستره بعض الستر ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراةً ليلاً ، وكان هذا شيئًا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله ؛ فأنكر الله عليهم ذلك [٣٩] .

ومع هذا السبب الخاص فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومعنى الآية الكريمة :

إن المشركين كانوا يرتكبون الكبائر ، والقبائح التى نهى الله عنها ، كالشرك بالله ، والطواف بالكعبة عرايا وغير ذلك ، وليس بين أيديهم من حجة على هذا الذى هم فيه إلا أن ذلك مما كان عليه آباؤهم ، وأنهم على آثارهم مقتدون ، وأن آباءهم لم يجيئوا بهذا من عند أنفسهم ، بل هو مما شرع الله لهم ، هكذا يقولون وهكذا يفترون .

قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ .

أمر الله الناس بالآداب ومكارم الأخلاق ، وحثهم على الإيمان بالله وصلة الرحم وإكرام الجار ورحمة اليتيم ، ونهى الله عن الفحشاء والمنكر والزنا والربا والإفساد فى الأرض .

قال أبو السعود : فإن عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال ، والحث على مراضى الخصال.

والمراد بالفاحشة : ما ينفر عنه الطبع السليم ، ويستنقصه العقل المستقيم .

والفاحشة فى حدّ ذاتها تجاوز لحدود الله ، وانتهاك لحرماته ، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرماته .

أى : قل لهم يا محمد : إن كلامكم هذا يناقضه العقل والنقل ، أمَّا أن العقل يناقضه ويكذبه ؛ فما تفعلونه هذا من أكبر الكبائر ، ولا خلاف بيننا وبينكم فى ذلك ، بدليل أن بعضكم قد تنزه عنه .

ثم إن الله كامل كمالاً مطلقًا ، والكامل لا يصدر عنه الأمر بالنقص والعيب ، وأمَّا أن النقل يناقضه ويكذبه ؛ فلأنه لم يثبت عن طريق الوحى أن الله أمر بهذا ، بل الثابت أن الله لا يأمر به **قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ** أى : فكيف تدَّعون ذلك عليه سبحانه .

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ . وفيه نهى عن ذلك وإنكار عليهم ، وتوبيخ لهم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحًا فى كل شىء فكيف إذا كان فى التقول على الله ؟!

٢٩ - قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... الآية .

لقد أمر الله بالعدل والتوسط والاعتدال ، كما أمر بالتقوى وإخلاص العمل لله ، والاتجاه بالصلاة إلى الله.

قال أبو السعود : والقسط : العدل وهو الوسط فى كل شىء ، المتجافى عن طرفى الإفراط والتفريط .

وَأَقِيمُواْ وَجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . توجهوا إلى عبادة الله مستقيمين ، أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة عند كل مسجد حضرتكم الصلاة عنده ، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم .

وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . أى : اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء أو العبادة له وحده ، ولا تشركوا به شيئًا.

وأكثروا فى التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه ؛ فإن الدعاء مخ العبادة .

كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

كما بدأكم ربكم خلقًا وتكوينًا بقدرته ، تعودون إليه بالبعث والحشر والجزاء يوم القيامة .

وقيل : كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شىء .

٣٠ - فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ ... الآية .

أى: تعودون فريقين ، فريقًا هداه الله ووفقه للإيمان والعمل الصالح ، وفريقًا ضلُّوا وأغواهم الشيطان.

فأعرضوا عن طاعة الرحمن ، وكل فريق يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه .

جاء في تفسير المنار :

ومعنى حقَّت عليهم الضلالة : ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية ؛ لأنها جعلت غريزة لهم ، فكانوا مجبورين عليها ، يدل على هذا تعليلها على طريق الاستئناف البياني بقوله :

إِنَّهُمُ اتَّخَذُواْ الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ .

ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء : أنهم أطاعوهم في كل ما يزينونه لهم في الفواحش والمنكرات، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . فيما تلقَّنهم الشياطين إياه من الشبهات . ا هـ .

وهكذا كل ضال يزين له ضلاله الفتنة والغواية ، ويريه أنه على الصراط المستقيم ، والله سبحانه وتعالى يقول : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا ... (فاطر : ٨) .

★ ★ ★

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

خذوا زينتكم : البسوا ثيابكم ؛ لستر عوراتكم .

الفواحش : كبائر المعاصي لمزيد قبحها .

الإثم : ما يوجبه من سائر المعاصي .

البغي : الظلم والاستطالة على الناس .

سلطانا : حجة وبرهانا .

أجل : وقت مضروب الله أعلم به .

ساعة : أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال .

التفسير:

٣١- يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

خلق الله الإنسان فى هذه الحياة ، وخلق له وسائل الحياة ووسائل الزينة المباحة الحلال ، وأمره أن يأخذ نصيبه من الزينة ، وأن تكون الزينة فى وجوه الخير والعبادة ، فالأعمال بالنيّات ، وشتان بين من يتزين لإثارة الفتنة ، وإغواء الناس ، ومن يتزين متجها إلى بيوت العبادة والطاعة .

والآية دعوة إلهية إلى أن نهتم بالصلاة وأماكن العبادة ، وأن نأخذ الزينة الحسنة ، والسمت الجميل، عند الاتجاه إلى المساجد ، وبذلك يألف الناس المساجد والمجامع والمحافل ، ويتم التعارف والتآلف والتودد.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إهمال حسن المظهر وإهمال الشعر والثوب ، ونهى عن أكل البصل والثوم قبيل الاجتماعات ، وكل ما يجعل الإنسان مزعجًا للآخرين .

كان أحد الصحابة مهملاً فى لباسه وشعره ؛ فقال له النبى ﷺ : ألك زوجة تهتم بك ؟ قال : نعم .

قال : اذهب إلى زوجتك ؛ لتأخذ لك من شعرك ، ولتنظّفْ لك ثوبك ؛ فإنك سيّدٌ فى قومك ، وما أراه لا يليق بك .

وهكذا علَّم النبى أصحابه النظافة والسمت الحسن ، وقال ﷺ : «تزينوا وتنظفوا واستاكوا فإن بنى إسرائيل ما كانوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم» [٤٠] .

كما حث الإسلام على العناية بالمسجد ونظافته وحسن رعايته ، حتى يؤدى دوره الروحى التثقيفى القيادى ، قال تعالى : فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ... (النور: ٣٦، ٣٧)

وقال ﷺ : «من أكل ثومًا أو بصلاً ؛ فليعتزلنا» [٤١] .

والمعنى : فليعتزل مساجدنا .

لقد بنى الدين على النظافة ، ولذلك شرع الله الوضوء والاغتسال وطهارة الثوب والبدن والمكان ، وقال سبحانه : فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . (التوبة : ١٠٨)

وهذه الآية دعوة لبنى آدم أن يتزينوا بزينة الله عند التوجه إلى المساجد .

قال القرطبى: يَا بَنِي ءَادَمَ . هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانًا ، فإنه عام فى كل مسجد للصلاة ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقال ابن عباس : كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، يقولون: لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، فأنزل الله تعالى :

يَا بَنِى ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ[٤٢]

وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

وفى هذه الفقرة أساس سلامة الجسم والنفس ، ودعوة إلى أن يأخذ الناس حظهم من طيبات الحياة ، وأن يذوقوا نعم الله التى وضعها بين أيديهم ، ولكن فى غير إسراف بل فى قصد واعتدال .

روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلاّ قوتًا ، ولا يأكلون دسمًا يعظمون بذلك حجهم ، فهمَّ المسلمون بمثله فنزلت[٤٣]

وَلاَ تُسْرِفُواْ . بتحريم الحلال ، أو بالتعدى إلى الحرام ، أو بالإفراط فى الطعام والشره عليه .

قال البخارى: قال ابن عباس : «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة [٤٤]».

وجاء فى تفسير فتح القدير للشوكانى:

«نهاهم عن الإسراف ، فلا زهد فى ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من أهل النار».

والمقلل منه على وجه يضعف به بدنه ، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة ، أو سعى على نفسه ، وعلى من يعول ، مخالف لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف فى إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير ، مخالف لما شرعه الله لعباده ، واقع فى النهى القرآنى ..» اهـ .

إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . أى : لا يرتضى فعلهم .

قال ابن كثير : قال بعض السلف : جمع الله الطبَّ فى نصف آية فى قوله تعالى : وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ .

وكان الإمام الحسن بن على إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه ، فقيل له : يا ابن بنت رسول الله ؛ لِمَ تلبس أجمل ثيابك ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ؛ لأنه هو القائل : خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ [٤٥].

٣٢- قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... الآية .

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا ، ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا

الحكم ، الذى عن طريقه حرمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده ، فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه.

جاء في فتح القدير للشوكاني :

الزينة : ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن والجواهر ونحوها ، فلا حرج على من لبس الثياب الجديدة الغالية القيمة ، إذا لم يدخل فى حد الإسراف ، ولم يكن مما حرمه الله، ولا حرج على من تزين بشىء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة ولم يمنع منها مانع شرعى ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد ؛ فقد غلط .

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . أى : وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ، فإنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية للإنكار على من حرم ذلك على نفسه ، أو حرَّمه على غيره ، وترك أكل اللحم والطيبات المستلذات من الطعام، من اللحم والفاكهة والحلويات وغيرها ، مما طاب كسبًا ومطعمًا ، فهو داخل فى هذا النهى .

عن النبى ﷺ قال: « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مخيلة ولا سرف ؛ فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» [٤٦] .

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق يستمتع بها الذين آمنوا فى الحياة الدنيا بالأصالة ، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا فى الحياة .

أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى .

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . أى : مثل هذا التفصيل نفصِّل سائر الأحكام ، لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها فى معان عالية وآداب سامية .

٣٣- قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ... الآية .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين ضيَّقوا على أنفسهم ، ما وسَّعه الله عليهم ، إن الذى حرمه الله عليكم هو هذه الأنواع الخمس :

١ – الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ . وهى كل كبيرة وقبيحة من الأقوال والأفعال ، وقيل : إن الفواحش تطلق على الزنا وما اتصل به من شهوة الفرج ، والزنا محرَّم سواء كان فى السرّ أم فى العلن .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

أى : حرم الله المعاصى التى اشتدت شناعتها ، ومنها : الزنا، واللواط، والفجور، والشذوذ، وسائر الانحراف، سواء ما أعلن من الفواحش، وما أسرّ منها .

٢ ، ٣ – وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

الإثم : هو الشىء الذى يوجب الإثم ، ويعتبر فعله معصية .

والبغى : هو الظلم والتطاول على الناس ، وتجاوز الحد أو الكبر .

وقيل : الإثم : هو الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه .

والبغى : هو التعدى على الناس .

فحرم الله هذا وهذا .

بِغَيْرِ الْحَقِّ . قيّد البغى بكونه بغير الحق ؛ تأكيدًا له فى المعنى ، وتذكيرًا بأنه عمل مجاف للحق خارج عليه .

٤– وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا .

أى : وأن تجعلوا لله شريكًا لم ينزل عليكم به حجة ، وكل شرك لا حجة له ولا دليل ، وإنما وصف الشرك بأنه لم ينزل به سلطانًا من باب التهكم بالمشركين ، وتنبيه على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان .

جاء فى التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ما خلاصته :

إن الشرك بالله لا حجة له ولا سلطان ، لا من العقل ولا من النقل ، والمراد من الجملة : تحريك دواعى التفكير والحذر عند المؤمن ؛ حتى يحذر الشرك الخفى والاستظلال بظل كبير أو خطير ؛ لأن المؤمن يرى أن كلّ شىء لله ، وأنه ليس لأىّ مخلوق مهما بلغ من جاه أو سلطان ، سبيل إلى شىء من ملك الله .

٥– وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

أى : أن تقولوا : إن الله حرم هذا ، وأحل هذا ، بدون معرفة أو علم بحقيقة أن الله قال ذلك ، مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها .

جاء في تفسير المنار :

« ومن تأمّل هذه الآية حق التأمل ؛ فإنه يجتنب أن يحرِّم على عباد الله شيئًا ، أو يوجب عليهم شيئًا في دينهم ، بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يجتنب أيضًا أن يقول : هذا مندوب أو مكروه في الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هذا ، المتجرئين على التشريع .. » .

٣٤- وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ .

أي : ولكل أمة من الأمم المهلكة حد معين من الزمان ، مضروب لمهلكهم ، فإذا جاء الأجل المقدر لإهلاك الأمة نفذ فيها نفاذًا محكمًا ، بدون تقديم أو تأخير ، كما حدث لقوم لوط وشعيب ونوح ... وغيرهم .

★ ★ ★

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ
يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ
قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا
مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ
عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

يقصون : أي : يخبرون ، يقال : قص الخبر يقصه قصًّا وقصصًا : رواه .

ضلوا عنا : أي : تاهوا عنا .

قال ادخلوا في أمم : أي : قال لهم الله ، أو قال لهم أحد الملائكة .

قــد خــلــت : أي : قد مضت ، يقال : خلا يخلوا خلوا أي : مضى ، ومنه السنون الخالية ، أي: الماضية.

اداركوا فيها : تلاحقوا في النار واجتمعوا فيها .

أخراهم : منزلة وهم الأتباع والسفلة .

لأولاهم : منزلة وهم القادة والرؤساء .

عذابا ضعفا : أي : مضاعفا ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا .

قال لكل ضعف : القادة منهم ؛ لأنهم ضلوا وأضلوا ، والأتباع ؛ لأنهم كفروا وقلّدوا .

التفسير:

٣٥ - يَا بَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ .

والمعنى : يا بني آدم إن أتاكم رسل من أبناء جنسكم ، يخبرونكم بأحكامي ويبينوها لكم ، فآمنوا بهم وأطيعوهم وصدقوهم وتابعوهم ، فالناس حيال الرسول فريقان : فريق اتقى الله وأصلح نفسه وعمله ، فهذا لا خوف على أفراده ولا ظلم .

وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ . يوم القيامة على ما أصابهم في الدنيا .

٣٦- وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

أما الفريق الذي كذَّب الرسل ، وكفر بالآيات التي يقصها عليهم رسلنا واستكبر عن إجابة الرسل ، والعمل بما شرع الله ، هذا الصنف يلازم جهنم كأنَّهم أصحابها ، وهؤلاء يخلدون في النار ولا يخرجون منها بسبب كفرهم .

٣٧- فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ... الآية .

أي : لا أحد أظلم ممن اقترف معصية الكذب على الله ، فشرع من الدين ما لم يأذن الله به ، أو كذَّب بما جاءت به الرسل ، أو أحل الحرام أو حرّم الحلال .

أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ .

أي : هؤلاء الكاذبون على الله ، والمكذبون لما أتاهم من الله ، سيوفون نصيبهم في الدنيا ، ويحصلون على ما قدر لهم من خير وشر ، وما كتب لهم في الأزل .

حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ .

أى : حتى إذا جاء إليهم ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم .

قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .

أى : سألهم ملك الموت وأعوانه سؤال توبيخ وتقريع ، أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ؟! ابحثوا عنها ؛ لتنفعكم اليوم !

قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا . أى : غابوا عنا وصرنا لا ندرى مكانهم ، أو أضاعونا فلا يدرون أين نحن .

وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ . أى : أقرّوا على أنفسهم بالكفر .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

والشهادة هنا هى استيقانهم بواقع أمرهم ، وأنهم كانوا على ضلال وكفر .. وتلك هى الشهادة التى شهدوا بها على أنفسهم ، فكان حكمًا عليهم ، أدانوا أنفسهم به ، قبل أن يدينهم الديّان .

٣٨- قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ... الآية.

قال الله تعالى لأولئك المكذبين: ادخلوا ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتكم فى الكفر ، وشاركتكم فى الضلالة ، كلما دخلت أمة من الأمم الماضية لَّعَنَتْ أُخْتَهَا . أى : الأخرى التى سبقتها إلى النار ، أو أختها فى الدين والملّة، فالأمة المتبوعة تلعن التابعة ؛ لأنها زادتها ضلالاً ، والأمة التابعة تعلن المتبوعة ؛ لأنها ضلت بالاقتداء بها .

حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا . أى : تدراكوا وتلاحقوا فى النار .

والتدارك : التلاحق والتتابع ، والاجتماع فى النار ، أى : أدرك بعضهم بعضًا .

قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاَءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .

أى : قالت أخراهم دخولاً وهم سفلتهم وأتباعهم ، لرؤسائهم وكبارهم ، ربّنا هؤلاء السادة أضلونا ؛ وسنُّوا لنا الضلال ، فاقتدينا بهم ؛ فضاعف لهم العذاب مرات ومرات ؛ لأنهم ضلّوا وأضلُّوا .

قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ .

أى : لكل طائفة منكم ضعف من العذاب ، أما القادة ؛ فَلِمَا ذكر من الضلال والإضلال ، وأمّا الأتباع؛ فلكفرهم وتقليدهم .

وَلَكِنَ لاَّ تَعْلَمُونَ .

أى : ولكنكم يا معشر المقلِّدين ، لا تعلمون ذلك ؛ لجهلكم وانطماس بصيرتكم .

٣٩- وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ .

أى : قال الزعماء لأتباعهم بعد أن سمعوا ردّ الله عليهم ؛ إنا وإياكم متساوون فى استحقاق العذاب ، وكلنا فيه سواء لأنا لم نجبركم على الكفر ، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللتم بسبب جهلكم ، فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا ، بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من قبائح ومنكرات .

وهذا الخصام بين أهل النار ، حيث يلقى بعضهم اللوم على بعض ، ويتمنى بعضهم زيادة العذاب للبعض الآخر ، مع أنهم كانوا فى الدنيا أصدقاء وأخلاء . قال تعالى : الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقِينَ . (الزخرف : ٦٧) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ
مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾
وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ
أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المفردات :

يلج الجمل : يدخل الجمل .

سَمّ الخياط : ثقب الإبرة ، ومنه قولهم : حتى يشيب الغراب .

مهاد : فراش. أى : مستقر .

غواش : أغطية كاللُّحف .

وسعها : طاقتها وما تقدر عليه .

غل : حقد وضغن وعداوة .

أورثتموها : أورثكم الله إياها .

التفسير :

٤٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ... الآية .

لقد تعنَّت المشركون مع رسول الله ﷺ ، فبين القرآن جانبًا من سلوكهم ، وهو التكذيب بآيات الله والاستكبار عن اتباع دين الله ، هؤلاء لا أمل فى دخولهم الجنة فقد علق الله دخولهم الجنة على أمر مستحيل وهو دخول الجمل الكبير الجسيم فى خُرْم إبرة صغير .

أو دخول الحَبْل الغليظ فى خرم إبرة صغيرة .

ونلمح فى الآية أن صلة الموصول فيها تمهيد للحكم حيث قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا . الذين اسم موصول ، وكذبوا بآياتنا واستكبروا عنها صلة الموصول . وقد بينت صلة الموصول ما يستحقون من عقاب، حيث كان الجواب :

لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ .

قال الشوكانى فى فتح القدير : «لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ، وقيل : أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا ، ولا لأعمالهم إذا اعملوا ، فلا ترفع إلى الله ولا تقبل ، بل تردّ عليهم فيضرب بها فى وجوههم .

وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .

لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل فقال : حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ . وخص سمَّ الخياط وهو ثقب الإبرة ؛ لكونه غاية فى الضّيق .

والجمل : الذكر من الإبل ، وقيل : الحبل الغليظ من القنب ومن ذلك قول العرب : حتى يشيب الغراب .

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ .

ومثل ذلك الجزاء الرهيب ، نجزى جنس المجرمين ، الذين صار الإجرام وصفًا لازمًا لهم .

٤١ - لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ .

المهاد : الفراش ، والغواش : الأغطية .

أى : إن هؤلاء المكذبين لهم نار جهنم تحيط بهم، فهى من تحتهم بمنزلة الفراش، ومن فوقهم بمنزلة الغطاء.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ . أى : ومثل ذلك الجزاء نجزى كل ظالم ومشرك ، جزاء ظلمه وكفرانه .

ومن شأن القرآن أن يقابل بين عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ، فبضدها تتميز الأشياء .

٤٢ - وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

إنهم عملوا يسيرًا واستفادوا كثيرًا ، ويدلّ على ذلك جملة : لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

وإنما حُسِّن وقوع لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا . بين المبتدأ والخبر ؛ لأنه سبحانه لما ذكر عملهم الصالح، ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم، وغير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظيم قدرها ، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة .

وقال الشوكانى فى تفسير فتح القدير :

لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا . أى : نُكلِّف العباد بما يدخل تحت وسعهم ويقدرون عليه ، ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم .

٤٣ - وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ... الآية .

ينزع الله ما فى قلوبهم من حقد بعضهم على بعض ، حتى تصفوا قلوبهم و يودّ بعضهم بعضًا ، فإن الغل لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا ؛ لكان فى ذلك تنغيص لنعيم الجنة ؛ لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر .

والغلّ : الحقد الكامن فى الصدور ، وقيل : نزع الغل فى الجنة : ألاّ يحسد بعضهم فى تفاضل المنازل.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن (٤٧) :

«وعلام يتباغضون ؟! والخير يملأ كلَّ ما حولهم ، ليس لأحد منهم حاجة فى شىء إلا وجدها بين يديه؛ فليس فيهم غنى وفقير ، وشقى وسعيد ، إذْ كلهم أغنياء من فضل الله سعداء برحمته ورضوانه» .

تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذَا .

هم ينعمون فى غرفهم والأنهار تجرى من تحتهم ، وهم يلهجون بشكر ربهم ، الذى هداهم إلى الإيمان ووفقهم لمرضاة الله ، والفوز بهذا النَّعيم العظيم .

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . أى : ما كنا نطيق أن نهتدى بهذا الأمر لولا هداية الله لنا .

لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . أى : قالوا ذلك اغتباطًا بما صاروا فيه من نعمة .

وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

نادى المنادى من قبل الله تعالى لأهل الجنة ؛ تهنئة لهم بنعمة الله عليهم ، هذه هى الجنة وجبت لكم، وحقت كما يحق الميراث لوارثه ، وقد ورثتموها بسبب أعمالكم فى الدنيا ، وهذا من فضل الله ، فالعمل الصالح لا يؤهل لدخول الجنة وحده ، وإنما يدخل الناس الجنة بفضل الله تعالى. ويقتسمونها بأعمالهم فى الدنيا .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لن يُدْخل أحدًا عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسنًا فلعله أن يزداد فى إحسانه ، وإما مسيئًا فلعله أن يتوب » (٤٨) .

فأعمال الإنسان مهما عظمت لا تكفائ نعمة واحدة من الله على الإنسان ، وهى نعمة البصر .

والجنة جزاء عظيم ، والعمل مهما عظم ، فهو ثمن ضئيل لعظمة دخول الجنة .

ثم إن الله هو المتفضل على الإنسان بالتوفيق للعمل الصالح ، والمتفضل عليه بدخول الجنة .

قال ابن عباس : أنفسٌ هو خالقها ؛ وأموال هو رازقها ، يطلبها منا ثم يمنحنا عليها الجنة إنّها لصفقةٌ رابحة .

وهذا عند تفسيره لقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْءَانِ .. الآية (التوبة : ١١١)

★ ★ ★

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ
حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا
بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ
أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا
يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾
وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا
وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا
وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات :

فأذن مؤذن : أعلم معلم من الملائكة ، أى : نادى منادٍ .

يبغونها عوجا : يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

بينهما حجاب : حاجز وهو سور بينهما .

وعلى الأعراف : أى : أعراف الحجاب ، أى : أعاليه ، جمع عرف مستعار من عرف الفرس ، وقيل : العرف ما ارتفع من الشىء .

رجال : أى : طائفة من الموجودين قصَّروا فى العمل فحُبِسوا بين الجنة والنار حتى يقضى الله فيهم .

بسيماهم : بعلامتهم المميزة .

أفيضوا علينا : صبُّوا أو ألقوا علينا .

غرتهم الحياة الدنيا : خدعتهم بزخارفها وزينتها .

نـنـسـاهـم : نتركهم فى العذاب كالمنسيِّين .

ومـا كـانـوا : وكما كانوا .

التفسير :

٤٤ - وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ ... الآية .

تعرض الآيات مشهدًا من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهو حوار يمثل الرضا والسعادة والفوز والامتنان من جانب المؤمنين ، ويمثل الحسرة والذلة والحرمان والقلق من جانب الكافرين .

وإنه لتصوير قوى بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم ، والطرد والحرمان من رحمة الله بسبب ظلمهم وانحرافهم .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ .

أى ينادونهم بعد أن يستقر كل من الفريقين فى منزله .

أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا .

أى : إنَّا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم ، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم؟ ا هـ.

قَالُواْ نَعَم . أى : وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا وفى رواية .

نَعِم . بكسر العين وهى لغة فيه ، كما يقول أبو السعود فى التفسير .

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

أى : نادى منادٍ من الملائكة ، أو هو نداء الكون والحق والعدل . «وهذا المنادى من أمور الغيب التى لا تعلم علمًا صحيحًا إلا من التوقيف المستند إلى الوحى، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لا يعتمد عليها»[٤٩].

وقال أبو السعود : قيل : هو صاحب الصور .

أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

إنه صوت الوجود كله . يلعن الظالمين ويخزيهم ويفضح ما كان منهم من كفر بالله وصد عن سبيله.

٤٥- الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ... الآية .

لقد كان هؤلاء الكفار يصدون أنفسهم عن سبيل في الله ، ويصدون غيرهم عن طريق الحق المستقيم، ويريدونها طريقًا معوجة ، قائمة على الضلال والبغى والعدوان .

وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ .

لقد كذبوا بالآخرة وأنكروا البعث والحشر والجزاء ، وكان هذا سرّ عدوانهم وظلمهم ، فالعقيدة السليمة تؤدى إلى السلوك السليم . كما يقول الشاعر:

وإذا كان القلب أعمى عن الرشـ د فماذا تفيده العينان ؟

٤٦- وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ... الآية .

والمعنى : بين أهل الجنة والنار حاجز سميك ، يعزل كل فريق عن الآخر عزلة كاملة ، لا ينفذ منها شيء من نعيم الجنة إلى أصحاب النار ، كما لا ينفذ منها شيء من عذاب جهنم ولفحها إلى أهل الجنة ، ولكنهم مع هذا بمرأى ومسمع من بعض .

أصحاب الأعراف :

الأعراف فى اللغة: المكان المرتفع ، ومنه: عرف الديك الذى هو أعلى شيء فيه ، ومنه: المعرفة بالشيء حيث تكشفه وتستولى على حقيقته .

وأصحاب الأعراف : قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

فلم تكثر حسناتهم ليدخلوا الجنة ، ولم تكثر سيئاتهم ليدخلوا النار .

فهم فى منزلة بين المنزلتين ، يشاهدون أصحاب الجنة وما يتقلبون فيه من النعيم ، ويتمنون أن يكونوا مثلهم .

ويشاهدون أصحاب النار وما يتقلبون فيه من الجحيم ، ويدعون الله ألاّ يكونوا معهم .

وهم أشبه بالنظارة والمشاهدين الذى يشجعون الفريق الفائز فى مباراة أو مناظرة ، وهناك آراء كثيرة فى أصحاب الأعراف .

قال الشوكانى : وقد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف .

فقيل : هم الشهداء ، وقيل : هم فضلاء المؤمنين ، فرغوا من شغل أنفسهم ، وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، ذكره مجاهد .

وقيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، قد قصرت بهم أعمالهم عن دخول الجنة ، ثم يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته ، وهم آخر من يدخلها ، وقيل : هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدْخالهم الجنة والنار[٥٠]

وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ .

والمعنى : أن رجال الأعراف على شرفات عالية ، يعرفون كل فريق من أهل الجنة وأهل النار بعلامتهم المميزة ، فأهل الجنة من علامتهم بياض الوجوه ونعيمها ، وإشراق الأمن والسلامة والرضا عليهم .

وأهل النار سود الوجوه، على وجوههم غبرة ترهقها قترة، قد استولى عليهم الكرب والفزع ، واشتد بهم البلاء.

قال تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ – ٤٢)

ويلاحظ أن البياض هنا كناية عن النعيم ، والسواد كناية عن الحزن والجحيم ، وليس فى هذا ميزة لأبيض على أسود فى الدنيا ؛ «لأن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٥١].

وفى محاورة بين أبيض وأسود قال الأسود :

ألم تر أنّ سواد المسك لا شيء مثله وأن بياض اللِّفت حمل بدرهم

وأن سواد العين لا شك نورها وأن بياض العين لا شيء فاعلم

فقال الأبيض :

ألم تر أن بياض البدر لا شيء مثله وأنّ سواد الفحم حمل بدرهم

وأن رجال الله بيضٌ وجوههم وأن سود الوجوه مأواهم جهنم

وهى كما ترى مماحكات لفظية ؛ لأن سود الوجوه فى الدنيا إذا عملوا أعمالاً صالحة ، ابيضت وجوههم يوم القيامة ، وبيض الوجوه إذا عملوا أعمالا سيئة اسودت وجوههم يوم القيامة ، فالسواد والبياض من أثر العمل الصالح أو السيئ والمنزلة السامية أو الهابطة فى الآخرة .

وقد تحدث القرآن عن المنافقين فقال : وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ... (المنافقون : ٤)

وقال تعالى : فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ . . . (التوبة : ٥٥)

وقال ﷺ : «كم من وجه صبيح ، وجسم مليح ، ولسان فصيح ، غدا بين أحشاء النار يصيح»

وقال ﷺ : «رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه» (٥٢) .

وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ .

أى : نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم بالتحية والتكريم والتشجيع فقالوا : سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وتعجب أهل الجنة من هؤلاء الذين يقدمون لهم التحية والتكريم ، وهم فى مرحلة عالية فاصلة ، من هم ؟!

فأجاب الحق سبحانه :

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ .

أى : لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، ولكنهم يطمعون فى دخولها ؛ لما يرون فى فضل الله ورحمته على أهل الجنة ، وأن الله تعالى تغلب رحمته غضبه ، وروى أن النبى ﷺ قال : « إذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال لأصحاب الأعراف : أنتم عتقائى فَارْعَوا من الجنة حيث شئتم »(٥٣)

٤٧ - وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

هذه الآية استمرار لهذا الحوار التفصيلى بين مشاهد أهل الجنة ومشاهد أهل النار .

والفريق الثالث : أصحاب الأعراف . فهم قد باركوا أهل الجنة ، وسلّموا عليهم سلام تحية وتقدير .

وهم ينظرون إلى أصحاب النار فيجدون عذابهم وسوء حالهم ، فيستعيذون بالله أن يكونوا مثلهم ويلهجون بدعاء الله ألا يجعلهم مع القوم الظالمين . أى : مع أصحاب النار .

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار :

« وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول ، أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ، ويلقون إليهم السلام . وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صُرِفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها ، قالوا : رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وكانوا موقوفين، مجهولاً مصيرهم ...» .

٤٨– وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .

هذه صور من المحاجة والمناظرة ، فيها براعة الوصف وإبراز المعقول فى صورة المحسوس .

والمعنى : نادى أصحاب الأعراف على رجال من زعماء الكفار ، كانوا يعرفونهم فى الدنيا ؛ لأنهم رءوس الكفر والضلال ، أو عرفوهم فى الآخرة لما شاهدوا عليهم من المذلَّة والانكسار .

فقال أصحاب الأعراف لهؤلاء الكافرين ؛ تبكيتًا لهم وإذلالاً : بماذا نفعكم تجميع الناس بالباطل حولكم ، واستكباركم عن استماع الحق والاستجابة إليه .

وفى الآية كلمة : يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ . أى : يعرفونهم من علامتهم وهى سواد وجوههم وظهور الكآبة والخزى على نفوسهم .

كذلك فإن جموع الكفر كانت تجتهد فى إكثار جموعها ، وتكابر وتعاند ، فكان هذا الاستفهام الإنكارى عقوبة عادلة لتقريعهم ، حيث يقول لهم أصحاب الأعراف :

مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .

٤٩– أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ .

أى: إن أهل الأعراف يزيدون فى توبيخهم وتقريعهم ، فيقولون لهم – ويشير أصحاب الأعراف إلى أهل الجنة من الفقراء والمستضعفين – أهؤلاء الفقراء والضعفاء الذين كنتم تعذبونهم فى الدنيا ، وقد أقسمتم فى الدنيا أن الله لن يشملهم برحمته ، أو فعلتم بهم ما ينبئ عن ذلك . هؤلاء يقال لهم : ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ . بعد هذا وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . فلا يعرفون الحزن ولا يجدونه ؛ فالجنة قد فتحت لهم أبوابها ، وتمتعوا فيها بسائر صنوف النعيم :

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

« وكلمة ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ تكون من كلام أصحاب الأعراف ، وفيها تلوين الخطاب ، وتوجيه الكلام لهم ، والانتقال من مخاطبة الكافرين إلى مخاطبة فقراء المؤمنين ، أى : ادخلوا الجنة على رغم أنوف الكافرين ».

« ويجوز أن يكون الكلام موجها إلى أصحاب الأعراف أى : قيل لأصحاب الأعراف : ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى ، بعد أن حبسوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم ، وقالوا لهم ما قالوا »[٥٤] .

٥٠– وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ .

لقد ذهب أصحاب الأعراف إلى الجنة ، ولم يبق على الساحة إلا أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، وعندئذ يدور حوار آخر يتقدم فيه أهل النار بطلب إلى أهل الجنة ، يطلبون منهم أن يتفضلوا عليهم بإفاضة الماء من الجنة عليهم ، أو إرسال شيء مما رزقهم الله فى الجنة من ثمار وخيرات ونعيم ، حتى يخفف شيئًا من الجحيم الذى يعذَّبون فيه ، ولكن الجواب يأتيهم من أهل الجنة بالرفض ، فقد منع الله ذلك النعيم ، منعًا كليًّا على أهل النار ، فلا يستطيع أهل الجنة مواساة أهل النار بشيء مما حرَّمه الله عليهم ، ومنعه عنهم .

٥١– الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

عندما أجاب أهل الجنة أهل النار بأن الله حرم نعيم الجنة على الكافرين ؛ تكفل الحق سبحانه بتوضيح أسباب الحكم ، وبيان حيثياته ، فذكر فى هذه الآية أنهم اتخذوا دينهم مادة للسخرية والتلهِّى ، وصرف الوقت فيما لا يفيد ، فأصبح الدِّين صورًا ورسومًا ، لا تزكى نفسًا ، ولا تطهر قلبًا ، ولا تهذب خلقًا، أو أنهم حرموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة ... وسخروا بدين محمد ، وانصرفوا عنه إلى اللهو واللعب قال تعالى : وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً . (الأنفال : ٣٥)

فقد انصرفوا عن العبادة الحقة إلى التصفيق والصفير .

وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنيَا . شغلتهم لذائذها ومتعها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله .

فَالْيَومَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا . أى : يهملهم الله تعالى فلا يستجيب لهم دعاءً ولا يسمع لهم قولاً .

قال أبو السعود : فَالْيَومَ نَنسَاهُمْ . نفعل بهم ما يفعل الناس بالمنسىّ ، من عدم الاعتداد بهم ، وتركهم فى النار تركًا كليًّا .

كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا .

أى : ننساهم نسيانًا مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا ، أو بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم .

وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

وهذه الجملة معطوفة على السابقة، أى: ننساهم بسبب نسيانهم البعث والحشر والحساب، وكما كانوا منكرين بأن القرآن من عند الله إنكارًا مستمرًا.

وتنتهى مع هذه الآية مشاهد الحوار المستمر، بين أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف، ويسدل الستار على أهل الجنة خالدين منعمين فى الجنة، وأهل النار معذَّبين فى الجحيم إلى ما شاء الله.

إنها طريقة القرآن الكريم التى تستحضر الغائب، وتقدم مشاهد القيامة أمام الناس شاخصة حيّة؛ ليعتبر ويتعظ من كان له قلب ولبٌّ.

قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا. (طه: ١١٣).

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المفردات:

فصلناه: أى: بينّا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ المفصلة.

تأويله: عاقبة مواعيد الكتاب القُرآن. وما يؤول إليه أمره من صدق ما وعد وأوعد به، من البعث والحساب والجزاء.

وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون: أى: وبطل عنهم ما كانوا يفترونه من وجود شركاء لله، أو ما كانوا يفترونه من الأضاليل وينسبونه إلى اللّه.

التفسير:

٥٢ - وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

من شأن القرآن التنقل والمراوحة، وقد كانت الآيات السابقة تعرض مشاهد القيامة، وأحوال أهل النار يعذَّبون، وأهل الجنة ينعَّمون.

ثم انتقل القرآن من مشاهد القيامة، إلى الحديث عن الحياة الدنيا الحاضرة.

ومعنى الآية : ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا محمد بكتاب عظيم الشأن كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلاً حكيمًا ، حال كوننا عالمين بما اشتمل عليه من تشريعات وأحكام وآداب ، وقصص وحكمة ، وسائر فنون القول المفيد ، كما أن هذا القرآن هداية ورحمة لمن آمن به واتبع هداه .

٥٣ - هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ... الآية .

التفسير :

أى : ما ينتظر هؤلاء الكفار بعدم إيمانهم به ، إلا ما يئول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد .

قال الشوكانى :

هل ينتظرون إلا ما وُعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يئول الأمر إليه .

يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُه : وهو يوم القيامة الذى يقف الناس فيه أمام خالقهم للحساب .

يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ .

أى : يقول هؤلاء الكفار الذين جحدوا هذا اليوم ، ولكن عندما تكشف لهم الحقائق فى الآخرة يعترفون بصدق الرسل ويقولون : لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِ وتبينًا صدقهم ، ولقد أخطأنا حين كذبناهم فى الدنيا .

فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ .

أى : هل لنا من شفعاء فيشفعُوا لنا عند الله ، حتى يخلّصنا مما نحن فيه من كرب أو بلاء ، أو هل من سبيل إلى أن نُردّ إلى الدنيا فنعمل عملاً صالحًا ، غير الذى كنا نعمله من الجحود ، واللهو واللعب .

قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُون .

أى: قد خسر هؤلاء الكفار أنفسهم ، فلم ينتفعوا بها فكانت أنفسهم بلاء عليهم ، ومحنة لهم ، فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأس ماله .

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُون .

أى : ذهب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا ، من أن أصنامهم ستشفع لهم يوم الجزاء ، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم .

وقال أبو السعود : ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء لله تعالى ، وشفعاؤهم يوم القيامه .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ
يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ
وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ
رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا
بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ
يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات :

ثم استوى على العرش : العرش : الجسم المحيط بسائر الأجسام ولا يحيط بكنهه إنسان .
والاستواء على العرش صفة لله بلا كيف ، أي : أنَّ له تعالى استواء على العرش على الوجه الذي عناه ، منزَّها عن الاستقرار والتمكن ، وهو استواء بالمعنى اللائق به سبحانه .

يغشى الليل النهار : يُغطي النهار بالليل ، فيذهب ضوءه .

يطلبه حثيثا : يطلبُ الليل النهار طلبا سريعا .

له الخلق : إيجاد جميع الأشياء من العدم .

الأمر : التدبير والتصرف فيها كما يشاء .

تبارك الله : تنزّه أو تعظّم أو كثر خيره .

ادعوا ربكم : اسألوه واطلبوا منه حوائجكم .

تضــــرُعـــــا : مظهرين الضراعة والذلة والاستكانة والخشوع .

خـــفـــيـــة : سرًا فى قلوبكم .

رحـــمـــة الـــلـــه : إحسانه وإنعامه أو ثوابه .

بُشـــــــرًا : مبشرات برحمته وهى الغيث .

أقـــلت ســـحـــابـــا : حملته ورفعته .

ثـــــقـــــالا : مثقلة بحمل الماء .

لـــبـــلـــد مـــيت : مجدب لا ماء فيه ولا نبات .

نـــــكـــــدا : عسرًا أو قليلاً لا خير فيه .

نصـــرّف الآيـــات : نكررها بأساليب مختلفة

التفسير :

٥٤ - إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... الآية .

خلق الله السماوات والأرض فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، والله قادر على أن يقول للشىء كن فيكون ، لكنه أراد أن يشعر الناس بأن للكون نظامًا وللخلق إحكامًا وترتيبًا ، فالجنين يمكث فى بطن أمه تسعة أشهر ، حتى يتم تخليقه وتكوينه ، نطفه ثم علقه ثم مضغة ثم عظامًا ، ثم يكسى العظام لحمًا ، ثم يتم تكوينه خلقًا آخر ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وفى القرآن الكريم : لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ . (غافر: ٥٧)

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

أى : استولى على نظام الملك وسيَّر أموره ، وهى كناية عن قدرته سبحانه على تسيير خلق هذا الكون وإبداع صنعته ، وإحكام نظامه ، وتدبير أموره .

من آراء المفسرين :

المفسرون القدامى لاحظوا أن هناك آيات تشير إلى أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض ، وهناك آيات تشير إلى أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء .

وقد جمع العلماء بينهما أن الله خلق الأرض أولاً ، ثم خلق السماء ثانيًا ، ثم أتمّ إعمار الأرض وجعلها مدحوّة ، منبعجة عند خط الاستواء ومفرطحة عند القطبين .

قال تعالى : ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ . (النازعات : ٢٧-٣٣)

وهذه الآيات تفيد أن الأرض خُلقت بعد السماء بيد أن علماء اللغة يقولون : إن كلمة بَعْدَ ذَلِكَ تحتمل معنى : فوق ذلك أو علاوة على ذلك ، أو قبل ذلك .

تقول لابنك : ربيتك وعلمتك وزوجتك ، وأنا بعد ذلك أبوك الذى رعاك صغيرًا وناشئًا . بمعنى : أنا فوق ذلك أو قبل ذلك .

وقال تعالى : قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (فصلت : ٩-١٢)

وفى كتب التفسير : ما يفيد أن الله تعالى خلق الأرض فى مقدار يومين ، وخلق الجبال والبحار والأنهار ووسائل الإعمار فى يومين ، فصار المجموع أربعة أيام .

تقولُ : سرت من البصرة إلى الكوفة فى يومين ، ومن الكوفة إلى بغداد فى أربعة أيام ، وتكون أنت قد سرت من الكوفة إلى بغداد فى يومين ، ونقصد أن مجموع أيام السفر إلى بغداد أربعة أيام .

وتفيد الآيات فى سورة فصلت أن الله بعد أن خلق الأرض ، خلق الجبال والبحار والأنهار ، ثم خلق السماء فى يومين ، لكن الآيات تشعر أن السماء والأرض قالتا : أتينا طائعين ، مما يفيد أن هناك مراحل متعددة مر بها نشوء هذا الكون حتى انتهى إلى الخلق البديع الكمال .

والعلماء المحدثون يذكرون النقاط الخمس الآتية :

١ – وجود مراحل ستة للخلق عمومًا .

٢ – خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .

٣ – تعدد السماوات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٤ – وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

٥ – إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث والدخان على حسب القرآن؛ للدلالة على الحالة الغازية للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى .

فالعلماء المحدثون يرون أن الكون كله كان كرة ملتهبة ، وبمرور الزمن انفصلت منها الأرض ، والسماء والفضاء والهواء .

وكانت الأرض صمًّاء لا تنبت ، والسماء كانت رتقاء ليس بها أسباب المطر ، والرتق ضد الفتق .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠)

وقد جاء في تفسير المنار جزء ١٢ ص ١٦ :

والمعنى : ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لافتق ولا انفصال ، وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك : بالسديم وبلغة القرآن بالدخان .

فَفَتَقْنَاهُمَا . بفصْلِ بعضها عن بعض ، فكان منها ما هو سماء ومنها ما هو أرض » .

وجاء في تفسير : فتح القدير للشوكاني :

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ .

قيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل : من أيام الآخرة، وقيل: هذه الأيام أولها الأحد وآخرها الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة ، يقول لها : كونى ؛ فتكون ، ولكن لكل شىء عنده أجل .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

« ليس ببعيد أن يكون لهذا الوجود فلك يدور فيه ، وأن يكون لهذا الفلك مركز ، وأن يكون العرش هو مركز هذا الوجود ، وهى جميعها من خلق الله وفى يد القدرة »[٥٥] .

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية فى القرآن الكريم وذكر الاستواء فى سبع آيات . مثل قوله تعالى: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . (طه : ٥)

وقوله تعالى : اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . (الرعد : ٢)

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنَّه صفة لله تعالى ، بلا كيف ولا انحصار ، ولا تشبيه

ولا تمثيل ؛ لاستحالة اتصافه سبحانه بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١)

وأنه يجب الإيمان بهذه الآيات كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه تعالى .

قال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعًا على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه عن ظاهره – أى : الاستواء على العرش ، (أو الجلوس على كرسى الملك) لاستحالته ، فالله خالق العرش ومدبره والعرش محتاج إليه .

قال الإمام القفال : المراد : أنه استقام ملكه ، وأطرد أمره ، ونفذ حكمه تعالى فى مخلوقاته ، والله تعالى دلّ على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم ، واستقر فى قلوبهم ، وتنبيها على عظمته وكمال قدرته ، وذلك مشروط بنفى التشبيه ويشهد بذلك ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ .

ويكون المعنى : استولي على نظام الكون ودبر شئون الملك .

وقال الشوكانى فى فتح القدير :

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ.

الاستواء : هو العلوّ والاستقرار ، والله أعلم بكيفية ذلك ، بل على الوجه الذى يليق بجلاله تعالى .

والعرش : هو سرير الملك ، عن أمّ سلمة : الكيف غير معقول ، الاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان، والجحود كفر .

وعن مالك أن رجلا سأله : كيف استوى على العرش ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ا هـ .

وأريد أن أشرح هذه الجملة ، بأن الكيف غير معقول ، أى : أن يجلس الله على كرسى الملك كما يجلس البشر.

والاستواء غير مجهول ، أى : الاستيلاء والقهر .

والإيمان بأن الله استوى على العرش واجب ، والسؤال عنه بدعة ؛ لأن السلف آمنوا بالآية دون سؤال على أنها دليل على سعة الملك وكمال القدرة وأن الله مالك الملك ومدبر شئونه .

يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ [٥٦] يَطْلُبُهُ حَثِيثًا .

أي : يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطى بظلمته ضياءه .

يَطْلُبُهُ حَثِيثًا . أى : حال كون الليل طالبًا للنهار طلبًا سريعًا لا يفتر عنه بحال .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : يُكَوِّرُ الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ . (الزمر : ٥)

أى : كل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبًا سريعًا .

« وهكذا النهار والليل فى دورة الفلك ، حيث تدور الأرض حول نفسها ، تحت سلطان الشمس مرة كل يوم من الغرب إلى الشرق .. وفى تلك الدورة اليومية يتناسخ كل من الليل والنهار ، أى : ينسخ كل منها الآخر، وذلك بتحريك الأرض شيئًا فشيئًا ، بحيث يكون دائمًا نصفها المقابل للشمس نهارًا ، والنصف الآخر ليلاً ، ففى كل لحظة ، ضوء ينسخ ظلامًا ، ويلبسه ، ويغشيه .. فالظلام الذى يخيّم على الأرض شىء أصيل ، والضوء الذى يلبسها كائن جديد داخل عليها ، الظلام منسوخ ، والضوء ناسخ له[٥٧] » وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . (الإسراء : ١٢)

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .

قرأ الجمهور بنصب الشمسَ والقمرَ والنجومَ على أنها معطوف على خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ . فى أول الآية.

أى : وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخراتٍ بأمره ، أى : وهى كائنات مسخرات بأمره لا سلطان لأحد من الناس عليها ولا سلطان لها على نفسها ولا فضل لها من ذاتها ومن هنا لا تصح عبادتها ، ولا ينبغى أن يتعلق مخلوق بمخلوق مثله وينشد الرزق منه .

ومُسَخَّرَاتٍ . منصوبة على أنها حال من الشمس والقمر والنجوم . وقرأ أبو عامر بالرفع فى جميعها على الابتداء والخبر مسخرات .

أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

الخلق : إيجاد الشىء من العدم .

والأمر : التدبير والتصرف والتسخير على حسب الإرادة ، فالمخلوقات كلها جميعًا صنعة الخالق ، وحركاتها وسكناتها كلها بتقدير الله وبأمره .

تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . كثر خيره وإحسانه وتعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين .

٥٥- ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

التضرع : الضراعة والتذلل والابتهال والرغبة إليه تعالى يقال : ضرع فلان ضراعة . أى : خشع وذل وخضع .

الخفية : الإسرار والتوارى وعدم الجهر بالدعاء .

والمعنى : ادعو ربكم فى تضرع وتذلل وخشوع ، واستتار وخفية ؛ فإنه سبحانه وتعالى سميع يسمع الدعاء ويجيب المضطر ويكشف السوء ، وهو القادر على إيصال الإجابة إليكم .

والدعاء روح العبادة ؛ لأنه يشتمل على معان رئيسة فى الإيمان ؛ إذ محتواه أن مخلوقًا ضعيفًا يسأل ربا قويًّا بيده الخلق والأمر .

وللدعاء آداب منها :

التوبة النصوح ، والاستغفار ، والصلاة على النبى محمد ﷺ ، وألاَّ يدعو بقطيعة رحم ، وأن يتخير أدعية القرآن والسنة ، وما روى عن السلف الصالح ، وأن يتخير الأوقات الفاضلة مثل : وقت السحر فى الثلث الأخير من الليل ، وأن يختم الدعاء بالصلاة على النبى ﷺ ، وألا يبالغ فى الجهر ، وألا يطوِّل الدعاء .

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : أربعوا على أنفسكم – أى : ارفقوا بها وأقصروا من الصياح – فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا ، إنه معكم ، إنه سميع قريب ، تبارك اسمه وتعالى جدّه [٥٨].

وهكذا نجد الأدب الإسلامى يتمثل فى الدعوة إلى إتقان العمل ، والبعد عن الرياء ، وإخلاص العمل لوجه الله، وخفض الصوت فى الدعاء .

قال الحسن بن على رضى الله عنهما : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزوّار وما يشعرون به ، ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . وذلك أن زكريا نادى ربه نداء خفيًّا [٥٩] .

إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . أى : المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء وفى كل شىء ، ومن الاعتداء فى الدعاء ، كأن يسأل الدّاعى ما ليس له كالخلود فى الدنيا ، أو إدراك ما هو محال فى نفسه ، أو يرفع صوته بالدعاء صارخًا به غير خاشع فيه .

روى أبو داود فى سننه : أن سعد بن أبى وقاص سمع ابنًا له يدعو ويقول :

اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوًا من هذا . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ؛ فقال له : يا بنىَّ ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء» ثم قرأ سعد هذه الآية: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً .. وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل [٦٠] .

٥٦- وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ... الآية .

« الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها أشد قبحًا من الإفساد على الإفساد ، فإن وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه ، فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه؟ ولذلك خُصَّ بالذكر وإلا فالإفساد مذموم ومنهى عنه فى كل حال ..»[٦١]

وقال الشوكانى فى فتح القدير:

وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ . بقتل الناس ، وتخريب منازلهم ، وقطع أشجارهم ، وتغوير أنهارهم ، ومن الفساد فى الأرض : الكفر بالله والوقوع فى معاصيه ، وإلغاء العمل بالشرائع بعد تقررها وانتظامها . ا هـ .

والجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الإفساد ، كإفساد النفوس والأموال ، والأنساب ، والعقول والأديان .

وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا .

أى : وادعوه خائفين من عقابه ، طامعين فى رحمته وإحسانه .

إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ .

أى : إن رحمته تعالى وإنعامه على عباده قريب من المتقين ؛ لأعمالهم المخلصين فيها ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

فمن أحسن فى أمور عبادته ؛ نال عليها الثواب الجزيل .

ومن أحسن فى أمور دنياه ؛ كان أهلاً للنجاح فى مسعاه .

ومن أحسن فى دعائه ؛ كان جديرًا بالقبول والإجابة ، وفى الآية تنبيه للمؤمن بأن يكون بين الخوف والرجاء ، يخاف من غضب الله وعقوبته ، ويرجو عفوه ورحمته ، وتُشير الآية إلى تغليب جانب الرجاء على الخوف .

قال تعالى : وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ .

والخوف والرجاء جناحان يطير بهما المؤمن فى ملكوت الرضا والأنس بالله ، وإذا غلب الخوف وزاد؛ صار يأسًا ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وإذا غلب الرجاء بدون عمل ؛ صار طمعًا بدون إحسان العمل وفى الأثر : « ألا وإن أقواما غرتهم الأمانىّ، خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نُحسن الظن بالله وكذبوا على الله لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل».

٥٧- وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ ... الآية .

بُشْرًا . أى : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .

بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ . أى : أن الرياح تتقدم نزول المطر وهو رحمة .

سَحَابًا ثِقَالاً . غيمًا حافلاً بالمطر .

والمعنى: أن الله تعالى ينعم على عباده بالعديد من النعم ، وهو الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول الغيث والمطر ، حتى إذا حملت الرياح سحابًا قد ثقلت بالماء الذى تحمله ، ساق الله ذلك السحاب إلى بلد مجدب لا نبات فيه ولا مرعى ، فأنزل الماء بذلك البلد .

فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

فأخرج الله بهذا الماء من جميع الثمار التى تناسب تربة البلد الذى نزل به على حسب مشيئة الله وفضله وإحسانه .

كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

أى : مثل إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم ، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم بدليل ملزم .

فحيث أمكن بقدرة الله تعالى إخراج الثمر على تلك الصورة العجيبة ، فما الذى يعجزه عن إخراج الموتى من قبورهم .

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . تذييل قصد به الحث على التدبر والتفكر .

أى : لعلكم تعتبرون بما وصفنا لكم ، فتعلمون بعظيم قدرة الله وبديع صنعته وأنه قادر على بعثكم.

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن :

« في الآية الكريمة عرض لمظهر من مظاهر قدرة الله ، وما تحمل هذه القدرة إلى الناس من رحمة .

فهذه الرياح ، يرسلها رُسل رحمة إلى الناس ، حيث تحمل السحاب مثقلاً بالماء ، فتسوقه إلى الأرض الجديب ، والبلد الميت ، ثم تنزل ما حملت من ماء ، فتسيل به الوديان ، وتجرى منه العيون ، وإذا هذا الجدب، وذلك الموات ، حياة تدب في أوصال الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان ، تلك بعض مظاهر القدرة القادرة، تلبس الجماد ثوب الحياة ، وتخرج من الأرض الجديب زروعا ناضرة، وثمارًا دانية القطوف، مختلفة الطعوم.

فهل تعجز هذه القدرة ، عن إحياء الموتى ، ونشر الهامدين من القبور ؟ ذلك مالا يقول به عاقل ..»[٦٢]

٥٨- وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا .. الآية .

قال في اللسان : النكد : قلة العطاء ، وعطاء نكد : أي : عطاء قليل لا جدوى منه ، ورجل نكد : شؤم عسر.

أي : الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وافيًا حسنًا تامًا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره .

والتربة الخبيثة ، كالأرض السبخة لا يخرج نباتها إلاَّ نكدًا : أي : قليلا عديم الفائدة .

فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب ، والنائى عنه بالبلد الخبيث .

وفيه بيان أن القرآن يثمر في القلوب التي تشبه الأرض الطيبة التربة ، ولا يثمر في القلوب التي تشبه الأرض الرديئة السبخة .

كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ .

أي : مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم . نُصَرِّفُ الآيَاتِ . أي : نرددها ونكررها ونوضحها . لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ . نعمة الله ؛ فيتفكرون فيها ويعتبرون بها .

من كتب التفسير :

قال أبو السعود في تفسيره :

« وهذا كما ترى مثلٌ لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع ، التي هي ماء حياة القلوب إلى المكلفين، المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها ، والمحرومين من مغانم آثارها »[٦٣] .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شىء من ذلك ، وعن مجاهد: آدم وذريته منهم خبيث وطيب ، وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت ، والكافر بخلاف ذلك ، وهذا التمثيل واقع على إثر ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد .

من البخارى ومسلم :

روى الشيخان عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا أو سقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرىَ إنما هى قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلَّم .

ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »(٦٤) .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات :

قال الملأ : الأشراف والرؤساء يملئون العيون مهابة .

أنصح لكم : أتحرى ما فيه صلاحكم قولاً وفعلاً .

على رجل : على لسان رجل .

لينذركم : الإنذار : إخبار مع تخويف من العاقبة بخلاف التبشير فإنه إخبار بحصول شىء سار .

الفلك : السفينة يذكر ويؤنث .

قومًا عمين : عمى القلوب عن الحق والإيمان .

التفسير :

٥٩- لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

تمهيد :

سورة الأعراف مكية حافلة بالدعوة إلى الله ، وإنذار المكذبين ، وسوق الأدلة الباهرة على مظاهر القدرة الإلهية ، وقد تفننت فى طرق هذه الدعوة . وفيما سبق من آيات لفتت الأنظار إلى آثار رحمة الله ، فى خلق الكون وإعمار الأرض ، وإرسال الرسل ، وتسخير السحاب والمطر ، وهداية من عنده استعْدادًا للهداية.

وفى الأجزاء الباقية من السورة تتحدث عن رسالات الأنبياء السابقين ، حديثًا وسطًا بين الإيجاز والإسهاب ، فتتحدث عن رسل الله نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، ثم تتحدث حديثًا طويلا عن موسى وجهاده مع بنى إسرائيل .

والقصص فى القرآن الكريم يخدم فكرة السورة ، ويؤكدها ، ويعرضها بطريق آخر ، هو طريق لفت النظر إلى القدوة والأسوة ، فإذا كذَّب قوم نوح نوحًا ثم أصابهم الطوفان بالغرق ، فإن هذه رسالة موجهة إلى أهل مكة تدعوهم إلى الإيمان ، وتحذّرهم عاقبة الكفر والطغيان .

كذلك فى هذا القصص مواساة للرسول وللمؤمنين ، وبيان أنَّ طريق الدعوات حافل بالمخاطر والتضحيات ، ولكن العاقبة للمتقين ، والهلاك للظالمين ، ففى سائر هذا القصص ينجى الله الرسل ويهلك المكذبين .

قال تعالى : حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... الآية .

نوح عليه السلام أوَّل الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم ، وكان بأرض العراق، وقيل: إن إدريس قبل نوح.

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحًا ؛ ليدلَّهم على طريق الرشاد .

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآيات : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عُبدت الأصنام : أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوَّروا صور أولئك الصالحين فيها؛

ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبَّهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودًّا ، وسواعًا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرًا .

فلما تفاقم الأمر ؛ بعث الله – تعالى – رسوله نوحًا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له . ا هـ .

وقد عرضت قصة نوح فى عدد من السور التى عرضت لذكر الأنبياء ، كما ذكر فى سورة خاصة به وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعًا . فهو نموذج لدعوة طويلة .

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

ونوح هو ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو إدريس النبى عليهما السلام .

قال ابن عباس : بعث نوح على رأس أربعين سنة من عمره ولبث يدعو قومه ٩٥٠ سنة وعاش بعد الطوفان ٢٥٠ سنة فكان عمره ١٢٤٠ ألفًا ومائتين وأربعين سنة .

وقد افتن نوح فى عرض أدلة التوحيد ، بيد أن قومه احتجوا عليه بأن أتباعه من الفقراء والأرازل ، واشترطوا عليه أن يبعد الفقراء والسوقة من الناس إن أراد أن يدخل الأغنياء والعظماء فى دعوته ، ولكن نوحًا شرح لهم أن هداية السماء عامة للناس ، وبأىٍّ وجه يطرد الفقراء بعد أن آمنوا بالله واتبعوا هدى السماء ؟.

فقال قومه : يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (هود : ٣٢)

ودعا نوح ربه أن يهلك الكافرين ، فأمره الله أن يصنع سفينة النجاة ، وأن يحمل معه من كل زوجين اثنين ، كما يحمل معه من آمن به ، وكان عدد المؤمنين قليلا « قيل : كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة ، وقيل تسعة : أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به»[٦٥] .

ولما جاء الطوفان أغرق الله الكافرين ونجَّى الله نوحًا ومن معه من المؤمنين .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .

أرسل الله نوحًا إلى قومه وعشيرته وأقاربه ومن يقيم بينهم ، فقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازًا للمجاورة .

فدعاهم نوح إلى عبادة الله وحده فهو سبحانه المستحق للعبادة وليس هناك إله سواه .

أى : اعبدوه ؛ لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق منكم أن يكون معبودًا .

إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : إن لم تعبدوه ؛ أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان .

٦٠- قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِى ضَلاَلٍ مُّبِينٍ .

الْمَلأُ : أشراف القوم ورؤساؤهم ، سُمّوا بذلك ؛ لأنهم يملئون العيون مهابة .

أى : قال الأشراف والعظماء لنوح : إنا نراك فى ضلال واضح ؛ إذ تأمرنا بترك عبادة آلهتنا ودًّا، وسواعًا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا ، وتطلب منا عبادة الله وحده .

وهكذا حال الفجّار يرون الأبرار فى ضلال ، كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُواْ إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ . (المطففين : ٢٢)

إلى كثير من الآيات كقوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ . (الأحقاف : ١١)

والرسول الكريم حريص على سلامة قومه ، ضنين بهم أن تغتالهم الضلالة أو يفتك بهم الكفر .

٦١- قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : قال نوح لقومه مستميلاً لقلوبهم : يا قوم ليس بى أدنى شىء مما يسمى بالضلال ، لكنى أحمل لكم الهداية والرسالة والهدى .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين : « وقد جاءت لكنّ هنا أحسن مجىء ؛ لأنها بين نقيضين ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد شيئين : ضلال أو هدى ، والرسالة لا تجامع الضلال ، ومِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . صفة الرسول ﷺ . ا هـ .

أى : لست ضالاً ، ولكنى أحمل مشعل الهداية وأبلغ رسالات السماء ورسالتى تأتى من عند الله تعالى.

٦٢- أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ .

إنه هنا يعدد وظيفة الرسول وهى :

١ - تبليغ الرسالة والوحى ، وسماها رسالات ؛ لاشتمالها على الأوامر والنواهى ، والمواعظ ، والزواجر ، والعبادات ، والمعاملات ...

٢ – إخلاص النصيحة .

والفرق بين تبليغ الرسالة والنصح هو أن تبليغ الرسالة معناه : أن يعرِّفهم جميع أوامر الله ، ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها .

وأما النصح فمعناه : أن يرغِّبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ، ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه .

٣– وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ . أى : أعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى أشياء لا علم لكم بها ؛ لأن الله قد خصنى بها . فإذا تبعتم رسالتى ؛ سرتم فى طريق النور والهدى . وقريب من ذلك قول إبراهيم لأبيه :

يَاأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . (مريم : ٤٣)

جاء فى تفسير ابن كثير للآية :

وهذا من شأن الرسول أن يكون مبلغًا نصيحًا ، ناصحًا عالمًا بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات .

كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا:

أيها الناس ، إنكم مسئولون عنِّى ، فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد[٦٦] .

٦٣– أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

كان قوم نوح يستكثرون عليه الرسالة ، ويرون أنه دعيٌّ لا رسول وقد حكى القرآن عنهم ذلك : فَقَالَ الْمَلَؤُاْ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى ءَابَائِنَا الأَوَّلِينَ . (المؤمنون : ٢٤)

إنَّه الحسد الذى تمكن فى قلوب العظماء ، والغيرة والكبر الذى منعهم من اتباع نوح ، مع أنه بشر مثلهم فهو أقرب إليهم ، وقد تلطف نوح فى بيان أعماله .

ومعنى الآية :

أإستبعدتم أو أكذبتم وأنكرتم وعجبتم ، أن جاء وحى وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفونه ليس من جنس آخر كالملائكة والجن فتنفروا منه ، بل هو بشر مثلكم تأنسون به ، وهو رجل منكم تعرفونه منذ نشأ لا ضالاً ولا كذابًا .

يقدم لكم الإنذار، ويحثكم على التقوى ، حتى تفوزوا برحمة الله .

لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

جاء في حاشية الجمل : وهذا الترتيب فى غاية الحسن لا من المقصود من الإرسال الإنذار ، ومن الإنذار التقوى ، ومن التقوى الفوز بالرحمة .

٦٤ - فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ .

كانت هذه الآية خاتمة القصة هنا فقد بذل نوح وسعه فى تبليغهم الرسالة ، ومناقشة أفكارهم الخاطئة ، ولكنهم تعاموا عن دعوته ورسالته ، فلم ينظروا إليها بعيونهم ولم يفقهوها بقلوبهم ؛ فأمره الله أن يركب السفينة التى صنعها ؛ ونجاه فيها هو ومن معه من المؤمنين .

وأغرق الله الذين كذبوا نوحًا من الكافرين . إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ .

وعَمِينَ . جمع عمٍ ، وهو الأعمى يقال : عمِى عمىً ، فهو أعمى ، وأصل عمٍ : عَامٍ صيغة مبالغة من اسم الفاعل مثل : حاذر وحذر ، وهذا يعنى : أن العمى الذى عليه القوم ليس عمىً طبيعيًا ، وإنما هو تعام عن الحق، ومبالغة فى هذا التعامى .. فهو عمى البصيرة وليس عمى البصر[٦٧].

★ ★ ★

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ
وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

المفردات :

وإلى عـــاد : أي : وأرسلنا إلى عاد .

قـــال الملأ : الأشراف والرؤساء الذين يملئون العيون بمهابتهم .

ســفــاهــة : خفة عقل وضلالة عن الحق .

عـلـى رجـل : على لسان رجل .

لـيـنـذركـم : الإنذار : هو الإخبار مع تخويف من العاقبة .

بصـــطـــة : قوة وعظم أجسام .

ءالاء الله : نعمه وفضله الكثير .

رجـــــس : عذاب أو رين على القلوب .

غـــضـــب : لعن وطرد أو سخط .

قطعنا دابر : أهلكنا آخر والمراد : أهلكنا الجميع .

التفسير:

٦٥ – وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ .

قصة نبى الله هود

أقامت عاد بالأحقاف ما بين اليمن وعمان ، فى نعمة ورغد وزراعة وبساتين وقصور عالية وسعة ورفاهية ، وقد أرسل الله إليهم نبّى الله هود ، يذكرهم نعم الله عليهم ، وما منحهم من بسطة فى أجسامهم وقوة فى أبدانهم ، وسائر النعم التى أنعم الله بها عليهم .

وبين لهم هود أنهم لم يشكروا خالقهم ، بل عبدوا أصنامًا وسجدوا لها ، ثم إنهم أفسدوا فى الأرض ويطش القوى بالضعيف .

ودعاهم هود إلى عبادة الله والإقلاع عن عبادة الأصنام ؛ فاتهموه بالسفاهة والطيش ، وظنّوا أن الآلهة قد أصابته بسوء أو مسّ من الجنون .

فأخبرهم هود أنه غير سفيه ، ولكنه رسول من رب العالمين، يذكّر قومه القيامة والبعث والحساب والجزاء.

قالوا : هيهات هيهات وبعيد جدًّا وقوع هذا البعث أو الجزاء ، إن هى إلا حياتنا الدنيا ، ولا حياة بعدها، وإن كنت صادقًا فأرنا هذا العذاب الذى تهددنا به ، فسخّر الله عليهم ريحًا حسومًا خلّعت خيامهم وكسّرت رقابهم ، وأهلك الله جميع الكافرين ونجىّ جميع المؤمنين .

قال تعالى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ – ٨) .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ .

ذكرت قصة عاد فى سورة الأعراف وفى سور أخرى منها : سورة هود ، والشعراء ، والأحقاف ، والحاقة.

والمعنى : وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هودًا ، أى : واحدًا من قبيلتهم فهو أخوهم نسبًا ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية .

فدعاهم إلى توحيد الله وتقواه ، فقال : يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ . فهو سبحانه الإله الواحد؛ فاتركوا عبادة الأصنام والأوثان .

وتذكروا قوم نوح فقد أغرقهم الله .

أَفَلاَ تَتَّقُونَ . أى : أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال ؛ لتنجوا من عقابه .

٦٦ – قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِين .

أى : قال الأغنياء والوجهاء الذين كفروا من قوم هود ، إنَّا لنراك متمكنًا فى خفة العقل راسخًا فيها حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر .

وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِين . أى : يتضح لدينا كذبك فى دعوى الرسالة .

٦٧، ٦٨ – قَالَ يَاقَومِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ.

ردَّ نوح على قومه فيما سبق حين قال : يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (الأعراف : ٦١).

وهنا ردّ هود على قومه فى هدوء وحلم فقال لهم : يا قومى ويا أسرتى وعشيرتى ، ليس بى أىّ نوع من أنواع السفاهة أو خفة العقل والطيش كما تزعمون ، ولكنى رسول من عند الله أبلغكم دعوة الله .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف : وفى إجابة الأنبياء عليهم السلام ، على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة ، بما أجابوا به في الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم من أضل الناس وأسفَهم – فى إجابتهم هذه أدب حسن وخُلُق عظيم ، وحكاية الله عز وجل ذلك تَعَلُّم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ا هـ .

وكما سبق أن تعجَّب قوم نوح من أن يكون نوحًا رسولاً من البشر ، نجد أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة .

٦٩ – أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ... الآية .

أى : أكذبتم وتعجبتم أن جاءتكم هداية الله ورسالته ، على لسان رجل منكم، تعرفون صدقه ونسبه وحسبه؟

إن ما عجبتم له ليس موقع عجب ، بل هو عين الحكمة ، فقد اقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم ، من يرشدهم إلى الطريق القويم . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . (الأنعام : ١٢٤) .

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .

أى : جعلكم سكان الأرض بعد هلاك قوم نوح ، أو جعلكم ملوكًا مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح ، الذين أغرقوا بالطوفان .

وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً .

أى : زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة ، أو زادكم بسطة فى قوة أبدانكم ، وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الاستخلاف وتلك القوة أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

«والبسطة فى الخَلْق : الزيادة فى بناء الجسد وقوته ، وهذه نعمة من نعم الله ، إذا صادفت عقلا راشدا، وقلبا سليما» (٦٨) .

فَاذْكُرُوٓا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى : تذكروا نعم الله عليكم ، حيث جعلكم سكان الأرض بعد هلاك قوم نوح ، أو جعلكم ملوكًا ، فاشكروا نعم الله عليكم ؛ حتى يزيدكم من نعمه ويكون لكم الفلاح والنجاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٧٠ - قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أى : أقصدتنا بدعوتك لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ، وبأن نترك الأصنام والأوثان التى كان يعبدها آباؤنا إنَّا لن نطيعك ونتحداك فائتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به إن كنت من الصادقين فيما تخبر به .

٧١ - قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ... الآية .

الرِجْس . والرجز : العذاب الشديد .

وَغَضَبٌ . أى : وانتقام منكم جزاء كفركم .

أى : قال هود لقومه : قد استحققتم عذاب الله وغضبه فهو واقع بكم لا محالة ، جعل ما هو متوقع كالواقع ، تنبيها على تحقق وقوعه .

أَتُجَادِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ... الآية .

أى : أتخاصمونني فى شأن أسماء الأصنام وهى أشياء سميتموها ليس تحتها مسميات ؛ لأنكم

تسمونها آلهة مع أن معنى الألوهية فيها معدوم ومُحال وجوده ؛ إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شىء ، أمّا هذه الأصنام التى زعمتم أنها آلهة ، فهى لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا .

مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .

أى : ما أنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها ، أو فى كونها شفعاء عند الله ، وإنما هى أصنام باطلة قلَّدتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير .

فَانتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ .

أى : فانتظروا ما طلبتموه من العذاب ؛ فإنى معكم من المنتظرين له وهو واقع بكم لا محالة ، بسبب شرككم ، وتكذيبكم لرسالة الله .

٧٢ - فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ .

أرسل الله سحابة سوداء على عادٍ قوم هود فاستبشروا بها **قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ** ... (الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥) .

وكان العذاب الذى أخذهم الله به ريحًا عاصفة شديدة البرد ، دمّرت ديارهم وأشجارهم ، وكانت تحمل الحجارة فتقذفها فى وجوههم وتحملهم فتضربهم بالأرض .

قال تعالى : **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ** . (الحاقة : ٦ - ٨) .

نجاة هود ومن آمن معه :

نجىّ الله هودًا ومن آمن به كمرثد بن سعيد ، وقطع دابر الكافرين ، أى : أهلكهم هلاكًا عامًا يستأصلهم عن آخرهم ، بالريح العقيم ، ما تذر فى شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وكان هذا بسبب كفرهم .

وفى قوله تعالى : **وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ** إشارة إلى أنهم لن يكونوا أبدًا من المؤمنين ، **وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** . (يونس : ٩٧) .

خلاصة من تفسير أبى السعود :

وقصة عاد أنهم كانوا باليمن بالأحقاف ، وكانوا قد تبسطوا فى البلاد ما بين عمان إلى حضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها : صدًا وصمودًا وإلهبا . فبعث الله تعالى إليهم هودًا نبيًا وكان من أوسطهم وأفضلهم حسبًا فكذبوه وازدادوا عُتُوًّا وتجبرًا ؛ فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ... فأظهر مرثد بن سعيد إسلامه ، وآمن بهود عليه السلام ، وأصرت عاد على الكفر والعناد فأرسل الله عليهم الريح العقيم فأهلكتهم . ا هـ .

قال ﷺ : «نُصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدبور» (٦٩) .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا
وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ
وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المفردات :

ناقة الله : خلقها الله من صخر لا من أبوين .

آيـــــة : معجزة دالة على صدقى .

بوأكم : أسكنكم وأنزلكم .

فى الأرض : أرض الحجر بين الحجاز والشام .

سهولها : أرضها المنبسطة .

لا تعثوا : لا تفسدوا إفسادًا شديدًا .

فعقروا الناقة: ذبحوها ، يقال : عقرها يعقرها : ذبحها .

عتوا : استكبروا وجاوزوا الحد ، يقال : عتا يعتوا عتوًا وعتيا : استكبر وتعدّى .

الرجفة : الزلزلة الشديدة أو الصيحة .

جاثمين : متبلدين بالأرض ، وهنا معناه : خامدين هامدى الحسّ ، فعله : جثم يجثم جثوما .

فتولى عنهم : فأعرض عنهم .

التفسير :

تمهيد فى قصة نبى الله صالح وقومه ثمود :

أرسل الله صالحًا إلى قومه ثمود فى أعقاب هلاك عاد قوم نبى الله هود .

وكانت عاد تسكن فى جنوب الجزيرة ، بين اليمن وعمان ، وكانت ثمود تسكن فى شمال الجزيرة بين الحجاز والأردن فى طريق تبوك ، وقد مرّ النبى ﷺ على منازلهم فى طريقه إلى غزوة تبوك ، فاستحثّ راحلته وحنى ظهره ، وقال لقومه : «لا تمرُّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون ؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم» .

وبدأ صالح بدعوته إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام وقابله قومه بالتكذيب والعناد .

فذكرهم بما بين أيديهم من النعم حيث قال لهم : أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ . (الشعراء : ١٤٦ – ١٥٢) .

واقترح القوم عليه أن يأتيهم بآية ومعجزة تدل على صدقه ؛ فأخرج الله من بين الجبال ناقة كاملة الخلقة كبيرة الحجم ، تشرب الماء فى يوم ، ثم تقف فيحلب منها الجميع ، ما يملأ أوانيهم ويكفى جميع حاجاتهم .

وحذّرهم نبى الله صالح من إيذاء الناقة أو الاعتداء عليها ، ولكن العناد جعلهم يوجهون انتقامهم إلى الناقة ، فانطلق الأشقياء وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، واستعجلوا عذاب السماء ، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بهذا العذاب إن كان صادقًا .

فأرسل الله عليهم عذابًا مهلكًا جزاء عدوانهم وتكذيبهم ، وفى سورة الشمس وضحاها . يقول الله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

وهى آيات مختصرة سهلة تختم بالألف اللينة تبين عناصر الموضوع :

فقد كذبت ثمود رسولها ، فجحدت رسالته ، ثم طغت وبغت وحذَّرها رسولها وقال لها : هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ . فهى ناقة الله أى هى آية من عند الله ، ولكن القوم ركبهم العناد والظلم ، فعقروا الناقة وعتوْا عن أمر ربهم ، فأمهلهم صالح ثلاثة أيام ؛ علّهم أن يتوبوا ، ثم أهلكهم الله وهو سبحانه قادر على ذلك ، ولا يخاف من عاقبة إهلاكهم .

وقد ذكرت قصة صالح مع قوم ثمود فى سورة هود الآيات ٦١ - ٦٨ والأعراف ٧٣ - ٧٩ والشعراء ١٤١ -١٥٩ والنمل ٤٥ - ٥٣ والقمر ٢٣ - ٣١ والشمس ١١ - ١٥ .

وفيها عناصر قصة قرآنية متكاملة تمرّ كالآتى :

١ - رسول ينصح ويبلغ ويذكِّر .

٢ - قوم يكذبون ويكفرون ويعاندون .

٣ - آية ومعجزة تؤيد الرسول .

٤ - عناد وجدال وتكذيب وعدوان .

٥ - هلاك من السماء للكافرين ، ونجاة للرسول والمؤمنين .

وهذه من أهداف القصة فى القرآن الكريم وأهم أهداف القصة القرآنية ما يأتى :

١ - إثبات الوحى والرسالة وبيان أن الدين كلَّه من عند الله .

٢ - بيان أن وسائل الأنبياء فى الدعوة واحدة .

٣ - بيان أن الله ينصر رسله فى النهاية .

٤ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم .

٥ - بيان قدرة الله على الخوارق .

٦ - بيان عاقبة الاستقامة والصلاح ، وعاقبة الانحراف والإفساد .

٧ - تثبيت قلب النبى ﷺ .

٨ - سَوْق العظة والعبرة من القصة . قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف : ١١١).

موضوع يحتاج إلى تحقيق :

يذكر بعض الكتاب أن ثمود نشأت فى أعقاب عاد وقد ورثت أرضها ، ويستأنسون بقوله تعالى :

وَاذْكُرُوٓا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى الْأَرْضِ . (الأعراف : ٧٤) (٧٠) .

وعند التحقيق نجد أن عادًا كانت فى جنوب الجزيرة بين اليمن وعمان ، وأن ثمود كانت فى شمال الجزيرة بين الحجاز والأردن فى طريق تبوك .

فثمود لم تكن فى أرض عاد ، ولعل الله قد استخلف ثمود فى أرضها فى شمال الحجاز ، بعد هلاك عاد فى جنوب الحجاز ، أو أنهم ورثوا خلافة الأرض والسيطرة عليها أو زعامة المنطقة .

وزمان عاد وثمود كان قريبًا ، وربما هلكت عاد فى حياة ثمود فأراد الله أن يذكرهم بهلاك أقرانهم، وأن يقول لهم : اذكروا ملككم وخلافتكم فى الأرض بعد هلاك عاد ، وتملككم القصور والبساتين ، والنعيم ، فحافظوا على ذلك ولا تبطروا ولا تكفروا ؛ حتى لا يهلككم الله كما أهلك قبيلة عاد .

التفسير :

٧٣ - وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ اللَّهِ... الآية .

أى : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب والموطن ، صالحًا عليه السلام فأمرهم بعبادة الله الذى خلق الخلق لعبادته وأخبرهم أن العبادة لا تصلح إلا للّه وحده ، وهذان الأمران هما خلاصة دعوة الرسل كما قال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ . (النحل : ٣٦) .

قد جاءتكم معجزة من الله تدل على صدقى ، وهى إخراج الناقة من الحجر الصَّلد ، واتركوها حرة طليقة تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

«أى : دعوها تأكل فى أرض الله ؛ فهى ناقة الله والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه» .

وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

الناقة ناقة الله ، والأرض أرض الله ، هو الذى أنبت النبات والمرعى بها وساق إليها الماء .

وقد نصحهم نبى الله صالح بعدم التعرض للناقة بسوء ، أى : عدم إصابتها بأى أذًى ، وفيه تنبيه بالأدنى على الأعلى ؛ لأنه إذ كان قد نهاهم عن مسها بسوء ، إكرامًا لها ، فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلإ والماء من باب أولى .

وجملة فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وعيد شديد لهم إذا عقروا الناقة ، وتحذير لهم ؛ حتى لا ينزل بهم العذاب الأليم .

٧٤ - وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ ... الآية .

أى : اذكروا نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، بعد أن أهلكهم بسبب طغيانهم وشركهم ، ثم جعلكم ملوكًا متصرفين فى أرض الحجر التى كانوا يسكنونها وهى بين الحجاز والشام ، قال تعالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (الحجر : ٨٠ - ٨٤) .

وتفيد آيات القرآن أنهم كانوا فى رغد من العيش ، ونعمة واسعة ، ومساكن جميلة ، ودور عالية .

تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ...

قيل : إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء ؛ لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء .

أما فى غير الشتاء فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل .

فهم يتخذون فى السهول القصور والدور الجميلة ، وينحتون فى الجبال البيوت ، فهم فى حضارة عمرانية ، واضحة المعالم ، وقد تمتعوا بهذا النعيم فى فصول العام ، ولذلك ذكّرهم صالح بأنعم الله عليهم فقال : فَاذْكُرُوٓاْ ءَالآءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

أى : تذكروا نعم الله عليكم حيث متعكم بالزراعة والقصور والبيوت المنحوتة فى الجبال ، فلا تغرنكم النعمة ، ولا تسيروا في طريق البطر والجحود ، ولا تكثروا الفساد فى الأرض ؛ فإن النعمة تحتاج إلى شكر لمن أنعم بها . وشكر النعمة : هو استخدامها فيما خلقت له .

٧٥ - قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ... الآية.

أى : قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون .

قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية :

أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ... إليكم لعبادته وحده لا شريك له وهو سؤال قصد منه المترفون تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ؛ لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحًا مرسل من ربه ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون بمقتضى الظاهر وهو : إننا نعلم أن صالحًا مرسل من ربه ؛ بل تضمَّن الجواب قولهم : لسنا فقط نعلم صدقه ، بل نؤمن به ونتبعه ونطيع أمره ، وهو جواب يدل على شجاعتهم في الجهر بالحق ، وعلى قوة إيمانهم وسلامة يقينهم .

٧٦ – قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِالَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ .

لقد أعلنوا موقفهم في عناد وصلف وجحود ، فقالوا : إنا بما آمنتم به كافرون ، يرغبون في تهديدهم والاستخفاف بهم .

٧٧ – فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

لقد خالفوا رسولهم واعتدوا على الناقة، وانبعث أشقاهم فعقرها وقتلها، وكان ذلك برضاهم وموافقتهم، ولذلك نسب إليهم ، وقد فعلوا ذلك عن عُتُوٍّ واستكبار ، وتعمد وإصرار على ارتكاب المنكر ، وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ . أي : استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، من العتوّ وهو النبوّ أي : الارتفاع والتكبر عن الحق .

يقال : عتا يعتو عتيا ؛ إذا تجاوز الحد في الاستكبار فهو عات وعتيّ .

وَقَالُواْ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

بعد قتلهم الناقة واستكبارهم ، تحدّوا صالحًا وقالوا : أنزل بنا العذاب الذي تتوعدنا به إن كنت رسولاً حقًا.

٧٨ – فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

الرَّجْفَةُ : الزلزلة الشديدة .

جَاثِمِينَ : ساقطين على وجوههم .

والمعنى : فأخذت أولئك المستكبرين الرَّجْفَةُ أي : الزلزلة الشديدة التي وصفت بالصيحة وبالطاغية ؛ لأنها انتقام من الله تعالى : فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ . (الحاقة : ٥) .

فأصبحوا فى ديارهم جاثمين مقلوبين على وجوههم كما يجثم الطائر على الأرض أو كما يبرك البعير هامدًا لا يتحرك .

كذلك هؤلاء المكذبين صاروا لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم ميتين لا حراك بهم .

٧٩ - فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ .

فأعرض عنهم نبيهم صالح ، أو ذهب عن أرضهم موليًا لهم ظهره عند اليأس من إجابتهم ، ونفض يده منهم ، وتركهم للمصير الذى جلبوه لأنفسهم ، وأخذ يقول متحسرًا على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب .

يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى كاملة غير منقوصة ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، ولكن كان شأنكم بغض الناصحين وعدواتهم ، ثم مضى صالح فى طريقه مع من آمن به ، وترك هؤلاء جثومًا هامدين .

★ ★ ★

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المفردات :

ولــوطــا : أى : وأرسلنا لوطًا .

الفاحشة : الفعلة القبيحة ، يقال : فحش يفحش فحشًا : أتى بعمل قبيح ، والفاحشة هنا المراد بها : إتيان الذكور.

يتطهرون : يدَّعون الطهارة مما نأتى .

الغابرين : الباقين فى العذاب كأمثالها ، والغابر : يطلق على الباقى والماضى ، يقال : غبر يغبر غبورًا مكث، وذهب ، وهو فى الأفعال التى لها معنيان متضادان .

قصة لـوط عليه السلام

لوط عليه السلام ابن هاران بن آزر هو ابن أخي إبراهيم وقد رحل إبراهيم عن مصر واصطحب معه في سفره لوطًا ، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير وخير موفور ، ونزلا بتلك الأرض المقدّسة ، ثم ضاقت بأنعامهما بُقعة الأرض التي نزلا بها ، فنزح لوط عن ديار عمه إبراهيم ، واستقر به المقام في مدينة سدوم، قرب الأرض المقدسة ، قرب البحر الميت وقد كان أهلها لا يتعففون عن منكر ، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة ، يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتربصون لكل سائر ، فيجتمعون عليه في كل حدب وصوب ، ويسلبونه ما حمل ، ثم يتركونه يندب حظه ، ويبكي ضياع ماله .

ثم ابتكروا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، فكانوا يأتون الذكران ، ويتركون ما خلق الله لهم من النساء ، وذهبوا يحملون الناس على ذلك ، ويجعلونه أمرًا مألوفًا في المنتديات والمجتمعات .

وقد أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادته سبحانه وتعالى ، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم ، فنهض لوط عليه السلام بدعوته ، وحذّرهم من العدوان على الآخرين ، وبين لهم ضرر الشذوذ الجنسي ، فالرجل ليس مكان الحرث ، والمرأة خلقها الله تعالى ؛ لتكون موضع شهوة الرجل ، وليكون ذلك وسيلة إلى إعمار الكون وتوالد الذرية .

وهكذا أخذ لوط ينكر على قومه سلوكهم ، ويدعوهم إلى التطهر والاستقامة ، ويبين لهم عاقبة الانحراف ، والخروج على نظام الفطرة الإلهية ، لكن القوم كانوا سادرين في غيّهم ، يعتبرون سلوكهم تقدمًا، وسلوك غيرهم تطهرًا وتأخرًا ، وقرّروا طَرْد لوط ومن آمن به من بلدهم ؛ لأنهم قوم يتطهرون .

فدعا لوط ربّه ، أن ينزل بهم ما يستحقون من العذاب .

ملائكة السماء :

أرسل الله الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد سألهم إبراهيم عن وجهتهم فأخبروه أنهم في طريقهم إلى قرى قوم لوط لإرسال حجارة عليهم .

وهي حجارة من سجِّيل (أي : من صوَّان) ، وهي سجِّيل ولكنها منضودة (أي : مهيأة ومعدة لهم ، في أحجام منتظمة)وهي منضودة ، ولكنها مسوَّمة (أي : معلمة ، يعرف كل حجر منها المكان الذي يقع عليه والأثر الذي يحدثه) .

ونجَّى الله لوطًا ومن آمن به ، وأهلك زوجته مع الهالكين الغابرين ، الذين أصابتهم الغبرة وهي التراب، وتركهم عظةو عبرة لكل خارج على هدى الله رب العالمين .

وقد وردت قصة لوط فى السور الآتية :

الأعراف ٨٠ – ٨٤ ، النمل ٥٤ – ٥٨ ، هود ٧٧ – ٨٣ ، العنكبوت ٢٦ – ٣٥ ، الشعراء ١٦٠ – ١٧٥ ، الحجر ٥٧ – ٧٧ ، الصافات ١٣٣ – ١٣٨ ، الأنبياء ٧٤ ، ٧٥ ، الحج ٤٣ ، ق ١٣ ، القمر ٣٣ – ٣٩.

عناصر القصة فى القرآن الكريم :

إذا قرأنا قصة لوط فى عشر سور فى القرآن الكريم سبق ذكرها وجدنا أن عناصر القصّة كالآتى :

١ – ارتكاب قوم لوط للفاحشة والعدوان على الآخرين .

٢ – رسالة لوط إليهم ودعوتهم إلى توحيد الله ، وإلى ترك الشذوذ .

٣ – مقاومة قوم لوط واضطهادهم للمؤمنين .

٤ – استغاثة لوط بالله تعالى .

٥ – إرسال الملائكة تطلب من لوط أن يخرج مع قومه من هذه القرى الظالمة، ولا يلتفت إليهم متعطفًا أو مسترحمًا .

٦ – إرسال العذاب بحجارة من صوّان صوبت إلى كل فرد ، وقلب الله القرية فجعل عاليها سافلها ، وأهلكها بالعذاب .

٧ – جعل الله ذلك عظة وعبرة لكل ظالم .

آيات من قصة لوط فى القرآن الكريم :

قال تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٧٧ – ٨٣) .

من سورة الشعراء :

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . (الشعراء : ١٦٠ – ١٧٥).

ولقد كان القرآن الكريم حكيمًا مربيًا مرشدًا معلمًا للبشرية حتى تتجنب طريق الشذوذ المهلك ، ومعروف أن بعض الدول الأوربية أباحت الشذوذ بين البالغين الذين يزيد عمرهم عن ٢١ عامًا ، وأباحت بعض الدول الزنا إذا كان برضى الطرفين ولم تكن إحداهما زوجة .

ثم انتشر وباء الإيدز وهو نقص المناعة المؤدى إلى الموت . وقد ارتعدت البشرية وتعالت الصيحات بالبعد عن الشذوذ ، وعن الزنا ، ووجوب الاكتفاء برجل واحد لزوجة واحدة ، وكأن البشرية تعود إلى طريق القرآن وهدى الرحمن ، الذى حرَّم الشذوذ ، وحرم الزنا ونهى عنه حيث قال تعالى : وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢) .

٨٠ – وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ .

أى : وأرسلنا لوطًا إلى قومه بقرية سدوم ، بقرب بيت المقدس ، فقال لقومه : أترتكبون تلك الفعلة التى بلغت النهاية فى القبح والفحش ؟! والتى ما فعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان ؟ فأنتم أول من ابتدعها فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة . والاستفهام هنا للإنكار ، أى : أترتكبون فاحشة اللواط ، وهو شذوذ عن الفطرة لم يفعله أحد من قبلكم ؟!.

قال عمر بن دينار : «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان من قوم لوط»

وقال الوليد بن عبد الملك : «لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أنّ ذكرًا يعلو ذكرًا» .

٨١ – إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

لقد انتكستم فى فطرتكم ؛ فقد خلق الله الشهوة فى الرجل ليتَّجه بها نحو المرأة حتى يتم الامتاع النفسى والجنسى ويترتب على ذلك إعمار الكون والتناسل ووجود الذرية .

لكن قوم لوط اتجهوا بشهوتهم إلى أدبار الرجال ، وكانت لذتهم فى ذلك ، وتركوا النساء فلم يقوموا بواجبهم نحوهم ، وهذا لون من الإسراف والخروج عن الاعتدال البشرى ، وعن مقتضى الفطرة إلى الإسراف فى قضاء اللذة مع الرجال دون النساء .

إنهم مرضى بالشذوذ ، فقد تركوا المرأة التى خلقها الله لقضاء الوطر وإنجاب الذرية ، واتجهوا بشهوتهم إلى نكاح الرجال عدوانًا وإسرافًا !.

٨٢ - وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

كان الأمل أن يستجيبوا لدعوة لوط عليه السلام ، وأن يستمعوا لداعى الهدى ، لكنهم أصروا على ضلالهم ، كما هو ديدن الشطّار والدُعار ، وتواصوا بأن يطردوا لوطًا ، ومن آمن به ، من قرية سدوم ؛ لأنهم يتطهرون عن الوقوع فى اللواط وعن العدوان على الآخرين .

وهو منطق أعرج وسبيل أعوج ، أن يستنكفوا عن الهدى ثم يُصّرون على إخراج الشرفاء الأطهار ؛ ليبقى لهم الملوثون الممسوخون .

فهم يسخرون بالمؤمنين ، ويتطهرهم من الفواحش ، ويفتخرون بما كانوا فيه من القذارة واللواط .

وصدق الله العظيم : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَءَاهُ حَسَنًا .

٨٣ - فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

أنجى الله لوطًا وأهله المؤمنين ، وأهلك امرأته مع الهالكين .

قالوا : ولم يؤمن بلوط سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى : فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ . (الذاريات : ٣٥ ، ٣٦) .

وقوله : إِلَّا امْرَأَتَهُ استثناء من أهله ، أى : فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإننا لم ننجها ؛ لخبثها وعدم إيمانها .

قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به بل كانت على دين قومها ، تُمالِئهم عليه ، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه ؛ بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أُمر لوط عليه السلام ؛ ليسرى بأهله - أمر ألا يعلمها ولا يخرجها من البلد .

٨٤ – وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

أى : وأرسلنا عليهم نوعًا من المطر عجيب أمره ، فقد كان المطر حجارة من طين متجمد ، قد أعد كل حجر لشخص معين ، كأنما سجل عليه اسم من يهلك به .

وجعل الله أعلى القرية أسفلها ؛ لأنهم قلبوا الأوضاع ، وأتوا الرجال دون النساء ، فقلب الله قريتهم حيث جعل أعلاها أسفلها ، ثم أمطر على المجرمين حجارة من طين متجمد .

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

أى : فانظر أيها العاقل نظر تأمل وتدبر واتعاظ فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش ، واحذر أن تعمل أعمالهم ؛ حتى لا يصيبك ما أصابهم .

وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول» [٧١] .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط .

وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم سواء أكان محصنًا أو غير محصن [٧٢] .

من تفسير أبى السعود :

قيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن ، وقيل : كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة ، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار ، وقيل : خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم ، وقيل : أمطر عليهم ثم خسف بهم ، وروى أنّ تاجرًا منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يومًا حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه .

وروى أن امرأة لوط التفتت نحو ديارها فأصابها حجر فماتت [٧٣] .

الإسلام دين الفطرة :

قال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . (البقرة : ٢٢٢ ، ٢٢٣) .

روى مسلم فى صحيحه : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يسكنوا معها فى بيت واحد ، فسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله الآية ، فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شىء إلا النكاح» [٧٤].

وتفيد الآية : وجوب ترك الجماع بين الزوج وزوجته فى أيام الحيض ،والحيض دم ينفضه رحم بالغة لأداء بها ولا حبل ولا تبلغ سن اليأس وهو سن ٥٥ سنة غالبًا .

وجماع الحائض يترتب عليه أضرار صحية جمّة للرجل والمرأة ، وتصاب المرأة بأضرار أكثر من الرجل ، ولهذا أمر الله الرجل بترك جماع الزوجة الحائض . ودم الحيض أقله ثلاثة أيام وأوسطه خمسة أيام وأكثره سبعة أيام فإذا انقطع دم الحيض ، ثم اغتسلت المرأة ؛ أبيح الجماع فى الفرج .

وفى الحديث الشريف : «إن الله لا يستحيى فى الحق ، لا تجامعوا النساء فى حشاشتهن» [٧٥] أى : فى أدبارهن وفى الحديث النبوى الشريف : «ملعون من أتى امرأته من دبرها ، ملعون من عمِل عمَل قوم لوط!» [٧٦].

والمرأة التى تجامع فى دبرها يكون عند أولادها لين واستعداد لأن يُفعل بهم ما فُعل بأمّهم . ولهذا حرّم الله جماع المرأة فى دبرها . وهذا الأمر محرم تحريمًا قاطعًا عند أهل السنه وعند الشيعة مكروه كراهة تحريم .

وقد جاء فى تفسير ابن كثير :

أن أهل مكة كانوا يستمتعون بالمرأة مقبلة ومدبرة وعلى جنبها وعلى قفاها ويلزُّون المرأة لزًّا ، أى: أنهم يستمتعون بالمرأة فى حالات كثيرة من حالات الجماع ، لكن كله فى القُبل وهو مكان الحرث .

فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة تزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار . وكانت الأنصار تجاور اليهود ، واليهود لا يجامعون المرأة إلا على حالة واحدة وهى أستر ما تكون عليه المرأة . أى : عندما تكون المرأة مستقبلة على ظهرها ، وزوجها فوقها .

فلما أراد أحد المهاجرين أن يستمتع بزوجته الأنصارية فى حالات كثيرة من الجماع امتنعت عليه ، ثم ذهبت فأخبرت السيدة عائشة زوج النبى ﷺ ، ولما أخبرت عائشة النبى عليه الصلاة والسلام أنزل الله الآية ٢٢٣ من سورة البقرة ، وهى تجعل المرأة مكان الحرث فالحرث ينبت الزرع الذى يقيم حياة الإنسان ، والمرأة تنبت الولد الذى يعمّر الحياة ، ويباح للزوج جماع زوجته كيف شاء ، ومن أى جهة شاء ، من خلف ومن قدام ، وباركة ومستلقية ومضطجعة إذا كان فى موضع الحرث .

وبهذا نرى أن الإسلام كان دينًا وسطًا وهو دين الفطرة السليمة ، فقد أباح للزوج الاستمتاع بالحائض ما عدا الجماع فى الفرج ، فإذا طهرت المرأة الحائض واغتسلت ؛ أباح للزوج الاستمتاع بزوجته

فى أى وضع من أوضاع الجماع مادام الجماع فى الفرج وهو مكان الحرث ، كما حرم الإسلام جماع الزوجة فى دبرها ؛ حفاظًا على سلامة الفطرة ، وحتى تُولد أجيال سليمة بعيدة عن الشذوذ .

إن اللواط مرض نفسى ، وشذوذ عن الفطرة ، وسبب فى أمراض فتاكة ، وإن الإسلام أباح التمتع والأخذ بنصيب وافر من زينة الدنيا ومتعة الحياة بين الرجل والمرأة على السواء مع الاعتدال والسلامة والتوسط وفى الحديث الشريف : «وفى بضع أحدكم صدقة» .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾
وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

وإلى مدين أخاهم شعيبًا : أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم (شعيبًا ابن ميكيل بن يشخر بن مدين) .

قد جاءتكم بينة : البينة : الدليل ، ويريد بها هنا المعجزة التى كانت له .

فأوفوا الكيل والميزان : أى : أوفوا الكيل ووزن الميزان ويصح أن يكون الميزان مصدرًا بمعنى : الوزن كالميعاد بمعنى : الوعد .

ولا تبخسوا الناس أشياءهم : أى : ولا تنقصوهم حقوقهم . يقال : بخسه حقه يبخسه بخسًا أى : نقصه .

ولا تفسدوا : الإفساد : شامل لإفساد نظام المجتمع بالظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق، والآداب بارتكاب الإثم والفواحش، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام.

فى الأرض بعد إصلاحها: إصلاح الأرض : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران ، المحسنة لأحوال المعيشة .

صراط : طريق . جمعه : صُرُط وأصله : سراط .

توعدون : أى : تهددون وتخوِّفون .

وتصدُّون : أى : تمنعون ، يقال : صدَّه يصدُّه ويصِّده صدًّا وصدودًا : منعه .

تبغونها عوجًا : تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

فكثركم : أى : بما بارك فى نسلكم .

فكرة ميسرة عن نبى الله شعيب

كان أهل مدين يسكنون أرض معان ، من أطراف الشام تمتد أرضهم شرقى وغربى خليج العقبة [٧٧].

وكانوا يكفرون بالله ويشركون به ؛ إذ عبدوا الأيكة من دونه (وهى : الشجر الكثيف الملتف) وصاروا يبخسون الناس أشياءهم ويطففون الكيل والميزان ؛ فأرسل الله إليهم نبيَّه شعيبًا فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وأمرهم بالعدل وعدم تطفيف الكيل والميزان ، ولكنهم قاوموه وجادلوه :

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ . (هود ٨٧ – ٩٥) .

عناصر القصة

١ - قوم مدين يكفرون بالله ويطففون الكيل والميزان ويفسدون فى الأرض .

٢ - يرسل الله إليهم نبيه شعيبًا فيدعوهم إلى توحيد الله ويحذّرهم من المخالفة .

٣ - قوم مدين يجادلونه ويناقشونه ويقولون : كيف يتركون عبادة ما كان يعبده آباؤهم ؟ وكيف يتركون تطفيف الكيل وفى هذا نقص لأموالهم ؟!.

٤ - شعيب يوضح لهم بأنه يحمل هداية السماء ويدعو الإنسان إلى طاعة الرحمن ويذكّره بواجباته فالشيطان حريص على امتلاك الإنسان فى العبادة وفى الأعمال .

٥ - ويذكرهم شعيب بما أصاب الأمم السابقة مثل : قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط .

٦ - ويدعوهم إلى الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله ويحرّك فيهم عناصر الخير ، ويقاوم عوامل الشر .

٧ - يتحججون بأنهم لا يفقهون كلامه ، ولا يعقلون دعوته وهكذا الطغاة والجبارون لم تتهيأ نفوسهم لتقبل كلام الهداة والمرسلين .

٨ - وفى النهاية تأتى عدالة السماء ، فقد أرسل الله عليهم الرجفة العاتية فأهلكتهم وغلبت كبريائهم وتعنتهم وأصبحوا فى ديارهم جاثمين هالكين .

وهكذا يقصُّ الله علينا من قصص القرآن ويحرّك دواعى الهدى ، وما يحيى ذكرى الأنبياء السابقين ويمجد ذكراهم ، وما ينبئ عن أخبار السابقين وهلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين .

التفسير:

٨٥ - ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ .

شعيب يأتى يوم القيامة خطيبًا للأنبياء ، فقد كان قوىَّ الحجة بليل اللسان ، حكيم القول ، وهو هنا يدعوهم إلى عبادة الله وحده فهو الإله الحق وليس هناك إله غيره ، فكلّ ما عداه من الآلهة ، آلهة بغير حق .

ومع شعيب معجزة من الله ، وقد أعطى الله كل نبى معجزة تؤيده وأعطى محمدًا ﷺ وحى السماء ، وهو القرآن الكريم ومحمد ﷺ أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة [٧٨] .

وقد دعا قومه إلى عدد من المكارم ونهاهم عن عدد من المفاسد فدعاهم إلى ما يأتي :

١ - وفاء الكيل والميزان وهذه عادة من أفضل العادات تؤدى إلى ثقة الأمة وتكافلها ، وتطفيف الكيل والميزان يؤدى إلى غضب السماء وفى الحديث الشريف : «ما طفف قوم المكيال والميزان ؛ إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور الحكام» [٧٩] .

٢ - وَلَا تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ .

أى : لا تنقصوا الناس شيئًا من حقوقهم فى بيع أو شراء أو حق مادِّى أو معنوى .

روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ، ويقولون: هذه زيوف ، فيقطعونها، ثم يشترونها منه بالبخس أى : بالنقصان .

وتلمح أن كل نبى دعا إلى توحيد الله ، ثم عالج الأمراض الخُلقية فى قومه كما عالج لوط الشذوذ الجنسى ، فإن شعيبًا عالج تطفيف الكيل والميزان وأنواع الفساد الأخرى التى إذا فشت فى أمة ؛ قضت عليها وأزالت ملكها وعزَّها .

٣ - وَلَا تُفْسِدُواْ فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .

لقد أصلح الله الأرض ، واستخلف الإنسان فيها لعمارتها ، وأرسل إليه الرسل وأنزل الكتب ودعا سبحانه إلى الخير ونهى عن الشر .

وعقوبة المفسد تكون أشدّ وأكبر إذا أفسد بعد أن رأى بعينه طريق الإصلاح ميسرًا معبدًا مع من سبقه .

وقال الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى :

إنه تعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة ، ومكَّنهم فى الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح ، وبما أودع فى خلق الأرض من سنن حكيمة ، وقوانين مستقيمة ، وبما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم فى المعاملات والاجتماع ، وبما أرشد إليه المصلحون من العلماء والحكماء ، والذين يأمرون بالقسط ويهدون الناس إلى مافيه من صلاحهم فى دينهم ، والعاملون من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة ، الذين ينفعون الناس فى دنياهم ، فعليكم ألا تفسدوا فيها ببغى، ولا عدوان على الأنفس والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش ولا تفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام وبث الخرافات والجهالات التى تقوض نظم المجتمع ، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما يستفاد من هذه الآية وما بعدها [٨٠] .

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . أى : ذلكم الذى تقدم من عبادة الله والوفاء بالكيل والميزان ، وترك البخس والإفساد فى الأرض ، خير لكم فى الإنسانية ، وحسن الأحدوثة وهو خير لكم فى الدنيا والآخرة ، إن كنتم مؤمنين بالله ومصدقين برسالتى إليكم .

والبشر لم يصلوا فى عصر من العصور إلى ما وصل إليه أهل هذا العصر من العلم بالمنافع والمضار، ومع هذا فالعلم وحده لم ينفعهم ؛ فكثرت الجرائم من قتل وسلب وإفساد وفسق وفجور .

فخير وسيلة للإصلاح هو حسن تربية الناشئة وإقناعهم بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل وإقناعهم بمضار الرذائل ؛ لأن الوازع النفسى أقوى من الوازع الخارجى .

٨٦ – وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

نهاهم فى هذه الآية أيضًا عن عدد من المفاسد مما يدل على أنهم كانوا عتاة فى إجرامهم ، وقد روى عن ابن عباس أن بلادهم كانت خصبة وكان الناس يمترون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبًا ، ويقولون لهم : إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم .

وفى الآية نهى لهم عن ثلاثة أشياء :

١ – قعودهم على الطرقات التى توصل إلى شعيب مخوفين من يجيئه؛ ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته.

٢ – صدّهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان ، والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين .

٣ – ابتغاؤهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطّعن وإلقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها .

وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُم .

أى : اذكروا إذ كنتم مقلّين فقراء فجعلكم مكثرين موسرين ، أو إذ كنتم أذلّة قليلى العدد فأعزكم بكثرة العدد والعُدد .

وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

أى : انظروا نظرة عبرة واتعاظ لما أصاب المفسدين المكذبين من الأمم قبلكم من قوم عاد وثمود وقوم لوط.

٨٧ – وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

أى : وإن اختلفتم فى رسالتى ، فصرتم فريقين : فريق صدقوا بالذى أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم فى المكاييل والموازيين ، واتبعونى فى ذلك .

وجماعة أخرى لم يصدقونى وأصرُّوا على شركهم وإفسادهم .

فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ، وهو خير من يفصل وأعدل من يقضى ؛ لتنزُّهه عن الباطل والجور .

جاء فى فتح البيان للعلامة صديق حسن خان :

وهذا فى باب التهديد والوعيد الشديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر ، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين [٨١] ومثله قوله تعالى : فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ . (التوبة : ٥٢).

وقال الأستاذ سيد قطب ، فى ظلال القرآن :

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذًى ، وترك كلٍّ وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس ، لا تدين للطاغوت ، إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سلطانه ، ولا تحكم فى حياتها شرعًا إلا شرعه ، ولا تتبع فى حياتها منهجًا إلا منهجه – إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ، حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده .

إن الطاغوت يفرض المعركة فرضًا على الجماعة المسلمة ، حتى لو آثرت هى ألاّ تخوض معه المعركة، إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل ، إنها سنة الله لابد أن تجرى [٨٢] .

★ ★ ★

خاتمة

يختم الجزء الثامن بهذا المقطع فى قصة شعيب مع قومه مدين ، وفيه صراع بين الإيمان والكفر ، واعتزاز الكفر بالجبروت والقوة ، وفى النهاية ينصر الله المؤمنين ، ويهلك الكافرين ، وهذه ظاهرة نلمحها فى سورة الأعراف ، التى بدأت بإنذار الكافرين ، ثم قدمت دعوة لبنى آدم ؛ ليحذروا من الشيطان .

ثم قدمت قصص عدد من الرسل مع قومهم ، فذكرت قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وقد شاهدنا هلاك المكذبين ، وانتصار المؤمنين ، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وفى هذا القصص عظة وعبرة ، وتثبيت لدعائم الإيمان ، وإحياء لذكرى المرسلين وجهادهم .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

اللهم ، وفقنا للسير على سنن العدل والرشاد .

اللهم ، اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهاب غمنا وحزننا ، اللهم علمنا منه ما جهلنا وذكرنا منه ما نسينا وارزقنا تلاوته على النحو الذى يرضيك عنا .

اللهم ربنا ، آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا .

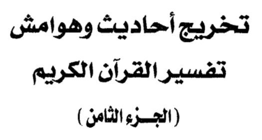
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

كان الفراغ من هذا الجزء الثامن عشية يوم الخميس ٣٠ ذو القعدة ١٤١١ هـ الموافق ١٣ يونيو ١٩٩١م بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان .

اللهم ربنا ولك الحمد والشكر حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه ، كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، اللهم ، ارزقنا الإخلاص والقبول ، اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجــزء الثامن)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمي

(١) يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن :

رواه النسائى فى الاستعاذة (٥٥٠٧) من حديث أبى ذر قال دخلت المسجد ورسول الله ﷺ فيه فجئت فجلست إليه فقال يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس قلت أو للإنس شياطين قال نعم . ورواه أحمد فى مسنده (٢١٧٨٥) من حديث أبى أمامة قال كان رسول الله ﷺ فى المسجد جالسا وكانوا يظنون أنه ينزل عليه فأقصروا عنه حتى جاء أبو ذر فاقتحم فأتى فجلس إليه فأقبل عليهم النبى ﷺ فقال يا أبا ذر هل صليت اليوم قال لا قال قم فصل فلما صلى أربع ركعات الضحى أقبل عليه فقال يا أبا ذر تعوذ من شر شياطين الجن والإنس قال يا نبى الله وهل للإنس شياطين قال نعم شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ثم قال يا أبا ذر ألا أعلمك من كنز الجنة .. الحديث .

(٢) تفسير الآلوسى .

(٣) لا أشك ولا أسأل :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ . قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : لا أشك ولا أسأل . وقال أيضا: أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ . قال: لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل . قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ . قال: أنزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام ، كانا ميتين فى ضلالتها فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزه وأقر أبا جهل فى ضلالته وموته ، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب». ورواه الترمذى فى المناقب (٣٦٨١) وأحمد فى مسنده (٥٦٦٣) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر . وقال الترمذى: حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر. ورواه الترمذى فى المناقب (٣٦٨٣) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال اللهم أعز الإسلام بأبى جهل ابن هشام أو بعمر قال فأصبح فغدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم. وقال الترمذى: حديث غريب من هذا الوجه وقد تكلم بعضهم فى النضر أبى عمر وهو يروى مناكير . ورواه ابن ماجه فى المقدمة (١٠٥) من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة . قال البوصيرى فى الزوائد: حديث ضَعِيف. فِيه عَبْد الملك بْنُ الماجشون ، ضعفه بعض، وذكره ابْنُ حبان فى الثقات. وفِيه مسلم بْنُ خَالِد الزنجى، قَالَ البخارىّ: منكر الحديث . وضعفه أبو حاتم والنسائى وغيرهم. ووثقه ابْن معين وابْنُ حبان . وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب فبنى عليه الإسلام وهدم به الأوثان. وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بنحوه باختصار وقال أيد الإسلام ، ورجال الكبير رجال الصحيح فى غير مجالد بن سعيد وقد وثق . وذكره أيضا من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دعا عشية الخميس فقال اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم. وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه القاسم بن عثمان البصرى وهو ضعيف. وذكره من حديث ثوبان قال قال رسول ﷺ اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب وقد ضرب أخته أول الليل وهى تقرأ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ .. الحديث. وقال: رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو متروك وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به ، وبقية رجاله ثقات .

(٤) إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٢٧٦) والترمذى فى المناقب (٣٦٠٥، ٣٦٠٦) وأحمد فى مسنده (١٦٥٣٩) من حديث واثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم .

(٥) نور يقذف فينشرح :

قال السيوطى فى الدر المنثور: أخرج ابن المبارك فى الزهد وعبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى جعفر المدائنى رجل من بنى هاشم وليس هو محمد بن على قال: سئل النبى ﷺ أى المؤمنين أكيس؟ قال «أكثرهم ذكر للموت وأحسنهم لما بعده استعدادا. قال: وسئل النبى ﷺ عن هذه الآية : فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ . قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح له. قالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» .

(٦) لو أن أولكم وآخركم :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وأحمد ١٦٠/٥ ، كلاهما عن أبى ذر رضى الله عنه. وأوله عند مسلم وأحمد: يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى. وعند الترمذى: يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته. وقال: حديث حسن .

(٧) تفسير أبى السعود ١٩٠/٢ .

(٨) تفسير سورة الأنعام د. محمد سيد طنطاوى ص ٢٦٤ .

(٩) تفسير أبى السعود ١٩٢/٢ .

(١٠) مناهل العرفان فى علوم القرآن ١١٢/١ تحت عنوان فوائد معرفة أسباب النزول ، الفائدة الثالثة: دفع توهم الحصر فما يفيد بظاهره الحصر ، نحو قوله تعالى : قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً .. (الأنعام : ١٤٥) .

(١١) لعن الله اليهود إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها :

رواه البخارى فى البيوع (٢٢٢٣) وفى أحاديث الأنبياء (٢٤٧٠) ومسلم فى المساقاة (١٥٨٢) وأبو داود فى البيوع (٣٤٨٨) وابن ماجه فى الأشربة (٣٣٨٣) والدارمى فى الأشربة (٢١٠٤) وأحمد فى مسنده (١٧١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما يقول بلغ عمر بن الخطاب أن فلانا باع خمرا فقال قاتل الله فلانا ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها. رواه البخارى فى البيوع (٢٢٢٤) ومسلم فى المساقاة (١٥٨٣) وأحمد فى مسنده (٨٥٢٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله يهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها .

(١٢) تفسير أبى السعود ١٩٧/٢ .

(١٣) عفوا تعف نساؤكم :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٥٤٤٣) بلفظ: عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك منه محقا كان أو مبطلا، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض. ونسبه للحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة، وصححه. وقال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبى، عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم .. الحديث. قال الهيثمى فى المجمع: وعن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال: عفوا تعف نساؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شىء بلغه عنه، فلم يقبل عذره، لم يرد على الحوض» رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه خالد بن زيد العمرى وهو كذاب .

(١٤) لعلك به ترزق :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٥) من حديث أنس بن مالك قال كان أخوان على عهد النبى ﷺ فكان أحدهما يأتى النبى ﷺ والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النبى ﷺ فقال لعلك ترزق به. وقال الترمذى: حسن صحيح .

(١٥) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخارى فى الديات ح (٦٣٧٠) ، ومسلم فى القسامة (٣١٥٧، ٣١٦٧) ، والترمذى فى الديات ح ١٣٢٢، وفى الحدود ح ١٣٦٤، والنسائى فى تحريم الدم ح (٣٩٥١) ، وفى القسامة ح (٤٦٤٢) ، وأبو داود فى الحدود ح (٣٧٨٨) ، وابن ماجه وفى الحدود ح (٢٥٢٥) ، وأحمد ح (٣٤٣٨، ٣٨٥٩، ٤٠٢٤) ، والدارمى فى الحدود ح (٢١٩٦) .

(١٦) خط خطا فى الأرض وقال هذا سبيل الله :

رواه الدارمى فى المقدمة (٢٠٤) وأحمد فى مسنده (٣٩٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . قال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد والبزار وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف. ورواه ابن ماجه فى المقدمة (١١) وأحمد فى مسنده (١٤٧٣٩) من حديث جابر بن عبد الله قال كنا عند النبى ﷺ فخط خطا وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده فى الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله ثم تلا هذه الآية : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . قال العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه النسائى فى الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(١٧) لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان :

رواه مسلم فى الفتن (٢٩٠١) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١١) والترمذى فى الفتن (٢١٨٣) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٥٥) وأحمد فى مسنده (١٥٧٠٨) من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى قال اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما تذاكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيس ابن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

(١٨) لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٣٥، ٤٦٣٦) وفى الرقاق (٦٥٠٦) وفى الفتن (٧١٢١) ومسلم فى الفتن (١٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣١٢) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٦٨) وأحمد فى مسنده (٧١٢١) من حديث أبى هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ .

(١٩) تفسير أبى السعود ٢/٢٠٦ .

(٢٠) إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٠١) ومسلم فى الإيمان (١٢٨، ١٣٠) وأحمد فى مسنده (٧١٥٥) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاكتبوها بمثلها وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف . رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٩١) ومسلم فى الإيمان (١٣١) وأحمد فى مسنده (٢٥١٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٨٦) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة . رواه مسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس فى أثناء ذكره لحديث الإسراء والمعراج فيه : «حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئًا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى .. الحديث» .

(٢١) قال تعالى : إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٢٢) وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧١) وأبو داود فى الصلاة (٧٦٠) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢١، ٣٤٢٢، ٣٤٢٣) والدارمى فى الصلاة (١٢٣٨) وأحمد فى مسنده (٧٣١) من حديث على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك ، وإذا ركع قال اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى ، وإذا رفع قال اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد ، وإذا سجد قال اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت .

(٢٣) إن رحمتى تغلب غضبى :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) وفى التوحيد (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤) ومسلم فى التوبة (٢٧٥١) والترمذى فى الدعوات (٣٥٤٣) وابن ماجه فى المقدمة (١٨٩) وفى الزهد (٤٣٥٩) وأحمد فى مسنده (٧٤٧٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده غلبت أو قال سبقت رحمتى غضبى فهو عنده فوق العرش .

(٢٤) من كتاب أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم : د. عبد الله شحاتة ص ٩١.

(٢٥) تسمى سور المفصل ؛ لكثرة الفصل بينها بالبسملة مثل : الضحى وألم نشرح ..

(٢٦) هى السور التى يكون عددها قرابة مائة آية .

(٢٧) تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور أحمد السيد الكومى والدكتور محمد سيد طنطاوى ، ص ٦ وما بعدها .

(٢٨) يؤتى بالرجل العظيم لا يزن عند الله :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم فى صفة القيامة (٢٧٨٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرءوا: فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا .

(٢٩) تفسير أبى السعود ٢/٢١٤ ، ٢١٥ ، بتصرف وانتقاء .

(٣٠) المرجع السابق ٢/٢١٦ .

(٣١) تفسير أبى السعود ٢/٢١٦ بتصرف .

(٣٢) خلق الملائكة من نور وخلق الجان :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٩٦) وعبد بن حميد فى مسنده (١٤٧٧) وأحمد فى مسنده (٦/١٥٣، ١٦٨) .

(٣٣) عبد الكريم الخطيب : التفسير القرآنى للقرآن المجلد الثانى من الجزء ٥-٨ الجزء الثامن ص ٣٧٦ .

(٣٤) تفسير أبى السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة الإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١. هـ ج ٣ الناشر دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ص ٢١٦ .

(٣٥) تفسير أبى السعود ٣/٢١٩ .

(٣٦) اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٧٤) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٧١) وأحمد فى مسنده (٤٧٧٠) من حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى وحين يصبح اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عورتى وقال عثمان: عوراتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى .

(٣٧) تفسير فتح القدير للشوكانى ، وتفسير الآلوسى .

(٣٨) زبدة التفسير فى فتح القدير للإمام الشوكانى للأستاذ محمد سلمان عبد الله الأشقر الطبعة الأولى على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ص ١٩٥ ، بتصرف وإضافات .

(٣٩) انظر تفسير ابن كثير ، وأبى السعود ، وفتح القدير للشوكانى وغيرها .

(٤٠) اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١٢١٨) بلفظ: اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا، وتزينوا، وتنظفوا، فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك ؛ فزنت نساؤهم . ونسبه لابن عساكر عن على وقال: ضعيف . قال المناوى فى فيض القدير : قال المؤلف فى الأصل: وفيه عبد الله ابن ميمون القداح ذاهب الحديث انتهى وللأمر بالتنظيف شواهد والمنكر قوله فإن إلى آخره . وكذا ذكره الهندى فى كنز العمال (١٧١٧٥) ونسبه لابن عساكر عن على أيضا .

(٤١) من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا ١٧١ :

رواه البخارى فى الأذان (٨٥٤، ٨٥٥) وفى الأطعمة (٥٤٥٢) وفى الاعتصام (٧٣٥٩) ومسلم فى المساجد (٥٦٤) وأبو داود فى الأطعمة (٣٨٢٢) والترمذى فى الأطعمة (١٨٠٦) والنسائى فى المساجد (٧٠٧) وأحمد فى مسنده (١٤٦٥١) من حديث جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا أو قال: فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته.. الحديث . ورواه البخارى فى الأذان (٨٥٣) وفى المغازى (٤٢١٥) ومسلم فى المساجد (٥٦١) والدارمى فى الأطعمة (٢٠٥٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال فى عزوة خيبر: من أكل من هذه الشجرة يعنى الثوم فلا يقربن مسجدنا . ورواه البخارى فى الأذان (٨٥٦) وفى الأطعمة (٥٤٥١) ومسلم فى المساجد (٥٦٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٨٣٣) من حديث عبد العزيز قال : سأل رجل أنس بن مالك ما سمعت نبى الله ﷺ يقول فى الثوم ؟ فقال: قال النبى ﷺ : من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا أو لا يصلين معنا. ورواه مسلم فى المساجد (٥٦٣) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٠١٥) وأحمد فى مسنده (٧٥٢٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مسجدنا ولا يؤذينا بريح الثوم . ورواه مسلم فى المساجد (٥٦٥) وأبو داود فى الأطعمة (٣٨٢٣) وأحمد فى مسنده (١١١٨٩) من حديث أبى سعيد قال لم نعد أن فتحت خيبر فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ فى تلك البقلة الثوم والناس جياع فأكلنا منها أكلا شديدا ثم رحنا إلى المسجد فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئًا فلا يقربنا فى المسجد فقال الناس حرمت حرمت فبلغ ذاك النبى ﷺ فقال: أيها الناس إنه ليس بى تحريم ما أحل الله لى ولكنها شجرة أكره ريحها . ورواه أبو داود فى الأطعمة (٣٨٢٦) وأحمد فى مسنده (١٧٧١١) من حديث المغيرة بن شعبة قال أكلت ثوما فأتيت مصلى النبى ﷺ وقد سبقت بركعة فلما دخلت المسجد وجد النبى ﷺ ريح الثوم فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: من أكل من هذه الشجرة فلا يقربنا حتى يذهب ريحها أو ريحه ، فلما قضيت الصلاة جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله والله لتعطينى يدك قال: فأدخلت يده فى كم قميصى إلى صدرى فإذا أنا معصوب الصدر قال إن لك عذرا . ورواه أبو داود فى الأطعمة (٣٨٢٧) وأحمد فى مسنده (١٥٨١٤) من حديث معاوية بن قرة عن أبيه أن النبى ﷺ نهى عن هاتين الشجرتين وقال من أكلهما فلا يقربن مسجدنا وقال: إن كنتم لابد آكليهما فأميتوها طبخا قال: يعنى البصل والثوم. ومالك فى الموطإ كتاب وقوت الصلاة (٣٠) من حديث سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال: من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مسجدنا ويؤذينا بريح الثوم .

(٤٢) حاشية الجمل على الجلالين .

(٤٣) تفسير أبى السعود ٢٢٤/٣ .

(٤٤) تفسير أبى السعود وتفسير ابن كثير .

(٤٥) إن الله جميل يحب الجمال :

رواه مسلم فى الإيمان (٩١) ، والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) . من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق ، وغمط الناس . ورواه أبو داود فى اللباس (٤٠٩٢) من حديث أبى هريرة .

(٤٦) إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده :

رواه الترمذى فى الأدب (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده. وقال الترمذى : هذا حديث حسن. ورواه أحمد فى مسنده (٨٠٤٥) من حديث أبى هريرة رفعه قال: إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . ورواه أحمد فى مسنده (١٩٤٣٢) من حديث أبى رجاء العطاردى قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال إن رسول الله ﷺ قال : «من أنعم الله عز وجل عليه نعمة فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح ببغداد يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال الهيثمى فى المجمع : وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سحب ثيابه لم ينظر الله إليه . فقال أبو ريحانه : والله لقد أمرضنى ما حدثتنا به فو الله إنى لأحب الجمال حتى إنى أجعله فى شراك نعلى وعلاق سوطى، أفمن الكبر ذاك؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه موسى بن عيسى الدمشقى قال الذهبى مجهول ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٤٧) الجزء الثامن ص ٤٠١ .

(٤٨) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسنا فلعله أن يزداد وإما مسيئا فلعله أن يستعتب .

(٤٩) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأعراف ص ٥٦ .

(٥٠) زبدة التفسير من فتح القدير ، وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكانى للأستاذ محمد سليمان عبد الله الأشقر ، مطابع الأنباء بالكويت ص ١٩٩ .

(٥١) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) وابن ماجه فى الزهد (٤١٤٣) وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

(٥٢) رب أشعث أغبر :

رواه الترمذى فى المناقب (٣٨٥٤) وأحمد فى مسنده (١٢٦٧) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك. وقال الترمذى: حسن غريب من هذا

الوجه. ورواه ابن ماجه فى الزهد (٤١١٥) من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ : ألا أخبرك عن ملوك الجنة قلت بلى قال: رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره. ورواه مسلم فى البر (٢٦٢٢) وفى الجنة (٢٨٥٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره. رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩١٨) وفى الأدب (٦٠٧٢) مسلم فى الجنة (٢٨٥٣) والترمذى فى صفة جهنم (٢٦٠٥) وابن ماجه فى الزهد (٤١١٦) وأحمد فى مسنده (١٨٢٥٣) من حديث حارثة بن وهب الخزاعى قال سمعت النبى ﷺ يقول : ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر .

(٥٣) أنتم عتقائى فارعوا من الجنة :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عتقائى فارعوا من الجنة حيث شئتم» .

(٥٤) تفسير أبى السعود ٢٣١/٣ .

(٥٥) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ المرحوم عبد الكريم الخطيب ٤١٣/٨ .

(٥٦) يُغشى : فعل مضارع مبنى للمجهول ولفظ الجلالة نائب فاعل ، والليل مفعول أول والنهار مفعول ثان، ويحتمل العكس ، والآية الكريمة من باب أعطيت زيدًا عمرًا لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشيًا ومغشيًا .

(٥٧) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٤١٤/٨ .

(٥٨) يا قوم أربعوا على أنفسكم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) وفى المغازى (٢٤٠٥) وفى الدعوات (٦٣٨٤) وفى القدر (٦٦١٠) وفى التوحيد (٧٣٨٦) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٤) وأحمد فى مسنده (١٩٠٢٦، ١٩١٠٢، ١٩٢٤٦) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال : لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ : أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصما ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله . فقال لى: يا عبد الله بن قيس قلت لبيك يا رسول الله . قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله . فداك أبى وأمى. قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٥٩) تفسير ابن كثير للآية الكريمه .

(٦٠) أبو داود كتاب الدعاء .

(٦١) تفسير المنار ٤٦١/٨ .

(٦٢) التفسير القرآنى للقرآن ٤١٧/٨ .

(٦٣) تفسير أبى السعود ٢٤٣/٣ .

(٦٤) مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم :

رواه البخارى فى العلم (٧٩) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨٢) من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به قال أبو عبد الله : قال إسحاق: وكان منها طائفةقبلت الماء قاع يعلوه الماء والصفصف المستوى من الأرض .

(٦٥) تفسير أبى السعود ٢٣٧/٣ .

(٦٦) اللهم اشهد :

رواه مسلم فى الحج (١٢١٨) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٧٤) فى أثناء ذكر حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبى ﷺ ، والترمذى فى المناقب (٣٧٨٦) مختصرا وفيه : « .. فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون . قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال: بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات .. » الحديث .

(٦٧) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ المرحوم عبد الكريم الخطيب ٤٢٠/٨ .

(٦٨) التفسير القرآنى للقرآن ٤٢١/٨ .

(٦٩) نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور :

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤١٠٥) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٩٥٦) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال: نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور .

(٧٠) وقد ورد هذا المعنى فى تفسير أبى السعود وفى قصص القرآن تأليف محمد أحمد جاد المولى وآخرون .

(٧١) من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط :

رواه الترمذى فى الحدود ح (١٤٥٥،١٤٥٦، ١٤٦١) ، وأبو داود فى الحدود ح (٤٤٦٢) ، وابن ماجه فى الحدود ح ٢٥٦١، وأحمد ح (٢٧٢٧) ، والدارمى فى السير ح (٢٤٩٠) من حديث ابن عباس .

(٧٢) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأعراف ص ١١١ وقال أيضا راجع تفسير القاسمى ٢٨٠٧/٧ وتفسير الآلوسى ١٧٢/٧ وما بعدها .

(٧٣) تفسير أبى السعود ٢٤٦/٣ .

(٧٤) اصنعوا كل شيء إلا النكاح :

رواه مسلم في الحيض (٣٠٢) وأبو داود في الطهارة (٢٥٨) وفي النكاح (٢١٥٦) وابن ماجه في الطهارة (٦٤٤) وأحمد (١١٩٤٥) من حديث أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ . فأنزل الله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ... إلى آخر الآية . فقال رسول الله ﷺ : اصنعوا كل شيء إلا النكاح فبلغ ذلك اليهود . فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئًا إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير .. الحديث .

(٧٥) إن الله لا يستحيي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن :

رواه الترمذي في الرضاع (١١٦٤) والدارمي في الطهارة (١١٤١) من حديث علي بن طلق قال: قال رسول الله ﷺ : إذا أحدث أحدكم في الصلاة فلينصرف وليتوضأ ثم يصلي . وقال رسول الله ﷺ : لا تأتوا النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحيي من الحق . وقال الترمذي: حديث علي بن طلق حديث حسن وسمعت محمدا يقول لا أعرف لعلي بن طلق عن النبي ﷺ غير هذا الحديث من حديث طلق ابن علي السحيمي وكأنه رأى أن هذا رجل آخر من أصحاب النبي ﷺ : وروى وكيع هذا الحديث . وورواه ابن ماجه في النكاح (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (٢١٣٥١) من حديث خزيمة بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ : إن الله لا يستحيي من الحق - ثلاث مرات - لا تأتوا النساء في أدبارهن . .

(٧٦) ملعون من أتى امرأته في دبرها :

رواه أبو داود في النكاح (٢١٦٢.) والدارمي في الطهارة (١١٤٤) وفي النكاح (٢٢١٣) وأحمد في مسنده (٩٤٤٠، ٩٨٥٠) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ملعون من أتى امرأته في دبرها .

(٧٧) الأساس في التفسير ، تأليف سعيد حوّى نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع لصاحبها عبد القادر محمود البكار .القاهرة ص.ب ١٦١ غورية ت ٩٣٥٦٤٤ ، وحلب وبيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٥ م . المجلد الرابع تفسير سورة الأعراف ص ١٩٥٢ .

(٧٨) ورد هذا المعنى في حديث الشيخين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيًا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة» .

(٧٩) ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين :

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) من حديث عبد الله بن عمر قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم . قال البوصيري في الزوائد : هذا حديث صالح للعمل به . وقد اختلفوا في ابن أبي مالك وأبيه . ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٩٤٥) بلفظ: خمس بخمس: ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر . ونسبه للطبراني من حديث ابن عباس

وصححه . قال الهيثمى فى المجمع: رواه الطبرانى فى الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام .

(٨٠) تفسير المراغى ٢١٠/٨ الطبعة الثالثة دار الفكر .

(٨١) فتح البيان فى مقاصد القرآن ، تفسير سلفى أثرى خال من الاسرائيليات والخرافات للعلامة صديق خان المتوفى ١٣٠٧ هـ ٣٦٩/٣ دار الفكر العربى .

(٨٢) فى ظلال القرآن سيد قطب ١٣١٨/٨ ، وقد نقل هذه الفقرة أيضًا الأستاذ سعيد حوّى فى الأساس فى التفسير المجلد الرابع سورة الأعراف صفحة ١٩٤٩ .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الثامن

محتويات الكتاب

تم تفسير الجزء الثامن ويليه تفسير الجزء التاسع

إن شاء الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0461308